

٥٦.٣٢٨٢٨

# سندباد عصری

میر فونزی

جولات فی المحيط الهندی



جیفونی

DS

413

F 3 X

1938



# سندباد عصري

جولات في المحيط الهندي

٨١٢٦  
نحو - سع



20089

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

القاهرة — ١٧ — ١٩٣٨

مطبعة الاعتماد

درجت على حبِّ الغربَ ،  
 والإعْجَابُ بِحضارةِ الغربَ ،  
 وقضيت أهْمَادُوايْرِ التكوانِ من عَمَري فِي أوروباً ،  
 فتمكنتُ وأصْحَى ، وتفوقتُ دُعَائِمِ الْعِجَابِ .  
 فلما ذهبتُ إِلَى الشَّرْقِ ، عَذَتْ  
 إِلَى بَلَادِي وَفَدَتْ مُسْتَحِلِّ بِحُبِّ وَالْعِجَابِ  
 إِيماناً بِكُلِّ مَا هُوَ غَرِيبٌ

صَبَّامْ فَزْلَمْ



**مَكْتَبَةُ**  
**لِسَانِ الْعَرَبِ**

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

ك  
Ma Compagne

إلى  
أصدقاء

## مقدمة

في موسم من مواسم الصيف بالأسكندرية كان ركب من أركان الميناء مسرحاً لحركة ربما بدأ عادياً ولم يكن مدارها سفينة صغيرة قيل بأنها تসافر إلى المحيط الهندي لتضرب في طوله وعرضه تسعة أشهر . ولو لا أن مشحونات تلك السفينة تختلف عما تشحن السفن عادة ، فهي بجموعة آلات علية وشباك وصناديق لم يكن الرجال القائمون بالشحن والترتيب نخبة من شبيبة رقيقة الحواشي ، ناعمة الأيدي ، يظهر على أفرادها أنهم من خريجي الجامعات ، ويغلب فيهم ذوو الشعر الأصفر والعيون الزرقاء . قيل بأنهم أعضاء بعثة أجنبية جات تستعير سفينة مصرية بضباطها وبحارتها ، وتشترك مع بعض الأخصائين المصريين في دراسة مستفيضة لمياه البحر الأحمر والمحيط الهندي وما تكتنه من أسرار حية وجامدة .

وذات يوم وفدى بعض الرجال الرسميين على مرسى السفينة الصغيرة ، وصعدوا إلى باخرة كبيرة مرابطة إلى جانبها وتناولوا عليها الشاي بين أصوات الخطاب والتصفيق احتفاء وتدبرها للبعثة الأجنبية . ثم نزلوا إلى السفينة الضئيلة ، وتجولوا في أنحائها لحظة لم يتحملوا بعدها ضيق المرات وازدحامها بالآلات والشباك

فعادوا إلى سياراتهم الفخمة مارين بصفين من البحارة يؤدون  
لمقامهم التحيات العسكرية . ما عدا واحداً منهم قصد أن يعرف  
كيف يعيش أربعون نفساً في هذا السجن العائم مدى تسعه أشهر  
في عرض البحر . فاكتفى بزيارة طابق الاخصائيين وسط  
السفينة ، منحدراً إليه على سلم صغير كأنه هابط إلى سرداد . وقد  
خرج الرجل دهشاً من تلك المغامرة الكبرى على ظهر سفينة كانت  
إلى جانب الباخرة الراسية حذاءها كأنها مولود صغير وضعته توأ .  
وسافرت السفينة الضئيلة في اليوم التالي وهي تشهد المودعين  
بصفيتها على أنها مغادرة حقاً مياه الأسكندرية إلى مياه البحر  
الأحمر والمحيط الهندي .

وفي أواخر شهر مايو من السنة التالية كان بعض الرجال  
الرسمين ينتظرون عودتها في لنش ذهب لاستقبالها عند مدخل مينا  
الأسكندرية . وما إن ألقت الباخرة الصغيرة مراسيها في نفس  
الموضع الذي غادرته منذ تسعه أشهر حتى انطلقت في الفضاء  
أصوات التصفيق والزغاريد صادرة من بعض ذوى الجلاليب  
والنساء المؤتررات بالسوداء .

كان من نصيبي أن أركب هذه السفينة طوال رحلتها الهندية .  
وأن أشتراك في مباحثها العلمية ، وأشرف على صحة ركابها . ولقد كنت  
في موضع آخر القصة الرسمية للرحلة ، ومقامها من البعثات البحرية  
التي جابت بحار العالم تكشف عن أسرارها منذ أواخر القرن الماضي ،



وأثرها في البيئات العلمية الأجنبية ، وفيها كسبته مصر من طيب الأحذوته نتيجة لصبر أبنائها وحسن بلائهم .

وكتابي اليوم لا علاقة له بذلك القصة الرسمية . وإنما هو صفحات ضمنتها صوراً وخطرات أوحت بها إلى جولاني في أنحاء المحيط الهندي ، وحياتي على ظهر السفينة . دون ادعاء أو حذلقة فنية . بسيط العبارة يسرد الحوادث ويصف بعض المناظر لاقمية خاصة بها ، بل تبعاً لما أثارته في نفسي من إحساس ، وفي ذهني من تفكير . فكانت السفينة ورجالها وهرتها «مشمسة» قيمة تعادل معبد رامشيفارام ، وصخرة «ماها بالى بورام» . واتخذ شعورى بزيارة منفى الزعيم في المحيط الهندي أهمية أكثر من وصف جزر سيشل ذاتها . وكان الحروف المذبوج في جنح الليل ، والراقصة البربرية ، ووابنة البنجاب ، وقردة محطة «مادورا» ، ونفاق المهر المتكشف ، سواء بسواء عندي وعمارة المعابد الهندوسية ، وتعاليم البوذا ، ووصف الشعاب المرجانية ، وعادة الدفن عند المجروس . كما كانت الشراراة التي ألهبت قلبي يوم لقاء الغادة الزمردية في «مومباسا» أقوى من كل ما شعرت به أمام شجرة «البودي» المقدسة ، أو بين ركام المدينة المدفونة «آنوراداپورا» . كل هذا دون وحدة فنية مرسومة مقدماً ، ودون تعلم أو افتعال . فلا توجد في تلك الفترة من حياتي وحدة فنية أكثر من وحدة السفينة وركابها . ولقد أرسلت القلم لأحدث أصدقائي بمارآه بصرى أو أدركته بصيرتي . ولعلهم فاهمون بعد هذا

سر الجاذبية التي وجهت حياتي في طريق لا يزال يستخرج منهم على  
عمر السنين بعض الدهشة .

لذا أرجو القارىء أن لا يحاول تحميل هذه الصحائف أكثر  
عما تتحمل . وأن يتقبلها على علاتها صورة من نفس صاحبها يقدمها  
إلى أصدقائه و المعارف . فإذا استطعت أن أصطحبه وأصطحبهم في  
رحلتي الفسكونية ، وأخفف عنه وعنهم ملل الساعات الطويلة ، كما  
استطعت أن أسكن آلام رفقائى بالسفينة ، فقد نجحت في أطيب  
المهمات إلى نفسي : أن أرتداد مع أصدقائى عالماً يشعرون فيه  
شعورى .

الاسكندرية في أكتوبر سنة ١٩٣٧

فهرست

١١

عبد الله

	صفحة
ما نجويه	٣
الريكيشو	٧
القردة الخطاقة	١٢
الرئيس أحد	١٦
عبد الغنى	١٩
على حمد	٢٢
مشمسة	٢٨
اهر المتكشف	٣٧
ملك الزمان	٤٤
حكاية الحروف ...	٥٩
الذى أفلت من خرم إبرة !	

II

صَوْر

صفحة

- فينوس من الآبنوس ٧١ ✕  
إبنة البنجاب ٧٤  
ماهابالى بورام ٧٨  
المدن المدفونة ٨١  
شجرة البوذى المقدسة ٨٧  
بريم ٩٣ ✕  
خوريا موريما ١٠٠ ✕  
أبراج السكون ١٠٧  
حجاج راميشفارام ١١٧  
ويحك يابن بطوطة ١٣٢

III

جَهَنَّمٌ

صفحة

- ١٤٣ ترويض النفس  
١٥٢ ترقيات استثنائية  
١٦٣ حيناً قت خطياً  
١٧٠ الشّرق والغرب X  
١٨٠ الوفاء الروجي  
١٨٥ جوتاما ساكاموني

IV

مَثَاعِرٌ

- ٢٠١ مني الرّعيم  
٢٠٧ نسائيات  
٢٢١ حياة البحار  
٢٣١ تلك السفينة !

## فهرست الصور

الموجهة لصفحة

{ الريکشو — سيلان	
{ حجاج «راميشفارام» — جنوب الهند	٣٢
صخرة «ماهابالى پورام» — جنوب الهند	٦٥
{ برج من أبراج السكون — بومباي	
{ سكان جزائر خوريا موريما	٩٦
{ معبد هندوسى — جنوب الهند	
{ راهبان يباب معبد بوذى — سيلان	١٢٩
تمثال الوفاء الزوجى بمعبد «راميشفارام»	١٧٦
{ تمثال البوذا ووسط الحرج — سيلان	
{ تمثال حارس المعبد البوذى — سيلان	١٩٣
{ تلك السفينة ، في ميناء مسقط — عمان	
{ شارع في «ماهى» عاصمة جزائر سيشل	٢٠٨
حياة البحار	٢٢٥

## خرائط

المخطط الهندي تواجه عنوان الكتاب

I

# عَجَيْبَ شَّ

ما نجو بير

الري يكتشو

الفرودة الخطاوة

الربس احمد

عبد الفنى

علي محمد

صَنْعَةٌ

الربر المنقصف

مدان الزمانه

عطابة الخروف



## مَانْجُوپِير

على قيد عشرة كيلو مترات من كراتشى عاصمة السند  
مزار اسلامى لولى اسمه مانجوپير . حول مقامه ينابيع ماء بارد  
وساخن ، وبركة يعيش فى مياها أكثر من مائة تمساح ،  
وقد أحياطت بسور يطل منه الزائر على تلك الزواحف المفزعه  
وهي مدة على شاطئ البركة كأنها جذوع أشجار متوجزة ،  
لا تتحرك إلا حين تلقى إليها النذور من الأغنام المذبوحة .  
ومن حسن حظى أن لم أر يوم زيارتى نذرا ولا نذرا .

ويقال بأن مانجوپير كان فقيرا هندوسيا ( سادهو ) ،  
ولا سبيل إلى معرفة حقيقة أمر هذا الشيخ وسط الخرافات  
التي حيكت حوله ، فالإنسانية الدنيا التي تعمه في ظلام الجحالة  
تحيط حتى الديانات السامية بخرافات تكاد تلقى اليأس في  
نفوس الإنسانية العليا التي تسعى أبدا إلى الأخذ بيد البشرية .

وتتنازع الشيخ مانجوپير خرافتان :

الأولى : أن أصل هذه التاسیح عائلة رجل شرير استولى على أموال اليتامى والأيامى إلى آخر ما هنالك من ضروب الشرور التي يظهر أنها كانت تلقى في العصور الخالية عقوبات أشد صرامة مما نعرف في عصورنا المادية . وجاء الشيخ مانجوير فدعا على المعتمى وأسرته أن يتتحولوا إلى تماسیح ، وقد كان له ما أراد .

ويظهر أن فكرة التناسخ - محور العقائد الهندية - من أقدم العقائد البشرية . ولا أحسب شعبا لم يعتقد بها في حقبة من تاريخه . وأساس أغلب الديانات الفطرية عبادة حيوانات أو جمادات يعتقد عبادها أن قد تقمصت فيها أرواح طيبة أو شريرة .

وفي مصر آثار من العقائد الفطرية احتفظ بها الشعب رغم الديانات الكبرى التي اعتنقها .

فهذه أشجار مقدسة (المندورة) ، وأبواب مبروكة (كبواة المتولى) ، لا يزال يؤمها الشعب كأنذهب إلى قيشى ومارينباد ، إذ يعتقدون فيها البرء من كل داء أو بأساء وقد تحاول الحكومة أو أصحاب الأرض قطع الشجرة فيتحدث إليك محاسيبها بالحلم الذى أقض مضجع مأمور القسم ،

أو كيف صرخت الشجرة ثم شترت والمنشار يحز فيها ،  
وكيف شوهد الدم ينづف من جذعها المقطوع .  
ثم من لا يذكر خراقة أصل القرد ؟ حكاية المرأة الشريرة  
أمام الفرن ، واعتداؤها على حرمة الخنزير باستعماله لغير الغرض  
الذى خنز لأجله .

ليست فكرة التناسخ والتقمص إذن غريبة عن البشرية  
إنما الغريب بقاوتها بمثل القوة التي هي عليها في معتقدات  
الهنود .

أما الخراقة الثانية عن مانجوپير فهى :  
كانوا أربعة من الأولياء : مانجوپير ، كالاندار لال شاه  
باز ، الشيخ فريد ، بهاء الحق ، اجتمعوا يوماً ليتنافسوا في  
الكرامات .

ضرب مانجوپير الأرض فتفجرت عين ماء بارد .  
وضربها شاه باز فتفجرت عين ماء ساخن .  
ولما أن وجد الشيخ فريد باب الاجتهد في ضرب باطن  
الأرض قد أقفل ، أخرج مشطاً وجعل يمشط شعره ، فكان  
القمل المتساقط منه يتحول إلى تماسيح بمجرد نزوله في مياه  
عين الشيخ مانجوپير .

أما الشيخ بها الحق فحين رأى باب الاجتهد قد أُقفل  
أطلاقاً، أخرج من عبه حفنة من نوى البلح ... وجعل يزرعها  
في الأرض بكل بساطة وهدوء.

ومع أن هذا الشيخ الأخير يذكرني قسراً بالبلياتشو حين  
يخرج عقب البهلوانات البارعة ليدخن سيجاراً أو يستلقى على  
قفاه، إلا أنني احترم الشيخ بها الحق أجل احترام. فكأنه  
يقول (ويختص بالقول زميله المعلم الذي حول ص彬اته  
تماسيخ) : أيا كانت كرامتكم إليها الزملاء فهى لاتعدل قدرته  
تعالى ولا حكمته حين يخرج من هذه النواة نخيلاً يحمل  
للأجيال القادمة رطباً شهياً.

وإننى لأشارك سيدى بها الحق هذا التفكير العالى، ولو  
ان طبعى الحاد يودنى أن ألتفت إلى شيخ القمل وأقول له :  
— اتفخس عليك ولى.

## الرِّيكِشُو

الفيتون عربة صغيرة تسير على عجلتين يجرها حسان ،  
والريكيشو فيتون صغير يجره إنسان ، ولا أدرى إن كانت  
شفقى على إنسان الريكيشو ناشئة عن آدميته انحطت إلى  
مقام الدابة ، أم هي لأنه وقد دخل في عداد الأنعام نال من  
نفسى ذلك الحنان البالغ الذى أخصص به العجهاوات .  
وحكايى اليوم تجعلنى أميل إلى الرأى الأخير .

المنظر شوارع كولومبو عاصمة سيلان ، وقد ركبت  
الريكيشو وطلبت من صاحبه أن يجرنلى إلى سينما فى طرف  
من المدينة ، وان يسرع فى عدوه حتى لا تفوتنى الحفلة الماتينيه  
والفيلم هو دون كيشوت، يمثله شاليابين، ووقتى فى كولومبو  
لا يتحمل إضاعة ليل كثيرة فى السينما . وحفلة السواريه عندى  
هي والفت وشوربة العدس بالبصل سيان فى أنهما نوع من  
البنج لا قومة لي منه إلا فى الصباح

ولكن صاحب الريكسو هو في نفس الوقت حماره وسائقه ، وبصفته الأخيرة شترك مع الشوفيرات والعربجية في استكراط الغرباء . فداربي دورة تذهب بعدها إلى عبيه فغضبت . وصرخت فيه ألا يحيد عن طريق إلى السينما . ويظهر أن خلقة حماري الآدمي مثلثة ، فهو فوق أنه انسان ودابة عفريت من الجن ، إذ استطاع — ويخيل لي أنه فعل هذا في لمح البصر — أن ينقلني إلى أقصى المدينة في الطرف الآخر منها حيث لا يوجد السينما ، فصرخت أستحشه . ولصوتي أثر عجيب في نفسي وهو أنه إذا صدر غضبان ضاعف من حنقه فأصرخ من جديد بمقدار غضب المضاعف . وهكذا حتى تمحظ عيناي ويقاد يقفر قلبي من حلقي لو لا اختناق هذا الأخير تحت تأثير الحق البالغ .. ورأى حماري الآدمي ذلك فقال في نفسه « داما يهزرش » وانطلق يعدو وقد فكر أخيراً أن ينهب الأرض بدل أن ينهب جنبي . ولكنه رجل قارب الكهولة ، وأصحاب الريكسو كهولتهم شيخوخة وشبابهم كهولة . وهو نحيف التكوين ضعيف البنية مصاب بالربو أو ما إليه ، فلامصيبي فيه ! وهنا نسيت الآدمي وذكرت مطلع قصيدي التي قلتها في الرفق بالحيوان أثناء التلمذة ( وأرجو أن

يطمئن القارئ إلى أن شعرى مستقر فى قرافة المجاورين منذ  
الحداة فلا خطر عليه منه ! ) فنالتى الشفقة بالمنحوس الذى  
قضى عليه سوء الطالع أن يحرنى إلى السينما فى ذلك اليوم .

ولما كان من عادى أن أعبر عن مشاعرى نحو الحيوانات  
بصوت عال فقد خاطبته قائلا «أيها الحيوان ، ماذا غررك  
لتضيع وقتى هكذا ! » ثم أذكر أن حفلة الماتينيه قد بدأت وأنه  
السبب فى ضياعها على ، وأن أضاعت لها متعمدة ، وهنا يعود  
أمامى إنسانا غشاشا نصابا فأصرخ « أسرع إليها الحمار ، أسرع  
إليها الكلب الحقير ! » فقع كلامى على سمعه كأنها السياط  
تلعب ظهره فيندفع ساعلا ، ويخيل إلى أنه لابد واقع أعياء  
بين عريشى فيتوته ، وربما أسلم الروح فى ببرة أضواء باب  
السينما ، ولن أغفر لنفسى وفاة هذا الإنسان التافع الذى  
لا يشارك البهائم فى زرائبه وأكلها ومشربها فحسب ، بل فى  
صناعتها ، فأقول « خفف من سرعتك إليها اللص . فوت على  
ميعاد السينما ، فما فائدة لهثك ؟ » ثم أذكر أنتى مصمم على  
دخول الماتينيه ولو متأخرا ، تغير لي أن أرى بعض الرواية  
مفتاح العينين من أن أراها كاملة وأنا فى غفوة بعد السابعة  
في ترتيب النوم ، فأعود إلى الصياح وأضرب أرض الريشكو

بقدى ، ولا تثبت عيناي أن تشرفا على الخروج من محجرهما  
وينطلق المسكين لاهثا ساعلا باصقا لاعنا باغته السنجالية .  
وقد ذكرني لغطه باغته أتنى لم أشتمنه إلا باللغة الأنجلزية . وإذا  
كنت قد ألقيت على سمعه أقبح ألفاظها — وهى شتائم تعلمتها  
من البحارة الأنجلز ولم أجدها ترجمة محترمة لأنثتها هنا —  
فقد نسيت أن هناك كنزا من الشتائم فى لغى لم أتفع به بعد  
لذا انطلقت أكيل لهذا السنجالى نقاوة شتمائنا المصرية الأصيلة  
وقد وصلت إلى حالة ذريعة من الحق نفخت فى زماره روحى  
حتى أشرفت على الانفجار . وما كان أعظم دهشى إذ كان  
لألفاظ السباب المصرية فى فهى وقع البلسم على نفسى . وإذا  
بزمارة روحى وقد سمع لها صوت يقول « فس » وكان  
تعجيزى باللغة المصرية وخر إبرة فيها الراحة والبرء .

وضحك من غضبى الفارغ ، وسخرت من شاليا بين  
ودون كيدوشته ، وضاعت حيوانى النصاب أجره تاركا إيه  
في موضع ما . وزلت أتريض وأعجب بلا زورديه السماء في  
سيلان ، حتى اتهى بي المطاف إلى بائع شراب النارجيل ،  
فجلست أحتسى ذلك الشراب العلوى يقدمه لي الساق فى  
نارجيلة طازجة أعمل فيها بسكتنه حتى فتح بقشرتها ثقبا

يسيل منه شرابها كأنه لعاب العذارى اليافعات .  
وشاهدت الفيلم في حفلة السواريه . وفي قولى شاهدت  
كثير من التساهل أغترره لنفسى إذ لا أجد كلمة تعبر بالضبط  
عما أريد . فإذا أنا قلت استولى على النعاس أخطأت التعبير لأنى  
أذ كرجيداً لأنى كنت قائماً في جلستي مبخلقاً في الستار الفضى ،  
وأنى رأيت طواحين هواء وعمالةقة ، وسانكوبانثا ودولسينيه  
ديلتو بوزو . إلا لأنى لست متأكداً من رؤيتي كل هذا في السينما  
أو هي الصور العالقة في ذاكرتى من كتاب سرفاتيس الخالد  
قرأته لبعض سنوات خلت . من يدرى ؟ ربما كنت أحلم يقظاً  
فأنا على يقين من أننى لم أر دون كيشوت راكباً فرساً  
روسانات ، وإنما رأيته يركب ريكشيو يجرهار جل كهل عجاف  
يسعل ويصق ويلهث ويلعن باللغة السنجاليه فيرد عليه فارس  
دى لامانشا بأنقى وأصنف شتايم الحسينية ودربر عجوز .

## القردة أخطافه

قال صاحبى الهندى المسيحى وقد ركنا القطار فى «مادورا» بجنوب الهند ، بعد زيارة معبدها الكبير المكرس للآلهة «مينا كشى» ذات عيون السمكة والنہود الثلاثة : «جهزت لك غذاء إسلاميا تتناوله فى القطار على الطريقة الهندية ، فقد خشيت أن يدنسك غذاء غير إسلامى في عربات الأكل» . وشرع قبل قيام القطار فى فك بقجة كبيرة احتوت أنواعا من الأرز والكري لا عداد لها ، اختلطت بلحوم لا شكل لها ضمت بالتوابل ، وقدم لي صحافا من ... أوراق الموز . أخذت موضعى من العربة وأعملت أصابعى الخمسة فى هذه اللبخة الهندية التي هي غذاء إسلامى . ونية صاحبى الهندى المسيحى حسنة ، فالمسلم فى الهند لا يقرب أكل الهندوسى ... ولا المسيحى والعكس بالعكس . وكان من الطبيعى أن يأمن جانب اعترافى الدينى حين يقدم لي هذه الأكلة الإسلامية

ولكنه حين علم بأن المسلمين في غير الهند لا يحيطون أنفسهم بهذه الحرمات التي لا معنى لها ، وأن كل ما يتجنبوه على الأكثـر هو لحم الخنزير ، وعـدـى بأـكـلـة بـرـاهـمـانـيـة في مـخـطـرـاـناـ التـالـيـ .

وـيـنـما يـتأـهـبـ القـطـارـ للـمسـيـرـ — وـإـذـ تـأـهـبـ القـطـارـ للـمسـيـرـ فـيـ جـنـوبـ الـهـنـدـ فـعـنـيـ هـذـاـ أـنـ هـنـاكـ عـطـلاـ فـيـ الـخـطـ ،ـ وـأـنـ القـطـارـ قـدـ لـاـ يـتـحـركـ قـبـلـ سـاعـةـ أـوـ بـعـضـ سـاعـةـ — اـنـدـفـعـ جـمـعـ منـ الـقـرـدـ نـحـوـ الـنـوـافـدـ وـيـمـمـواـ شـطـرـ غـذـائـناـ الشـهـيـ ،ـ وـإـذـ مـاـ لـاحـظـنـاـ الشـراـهـةـ الـمـشـرـقـةـ فـيـ عـيـونـ هـذـهـ الـقـرـدـ فـانـتـاـ نـحـمـ تـوـاـ بـأـنـهاـ قـرـودـ غـيرـ هـنـدـوـسـيـةـ ،ـ وـإـلـاـعـافـتـ نـفـوسـهاـ أـكـلـتـاـ الـأـسـلـامـيـةـ .ـ وـقـامـ صـاحـبـ يـطـارـدـهاـ وـقـمـتـ خـلـفـهـ لـأـعـرـفـ مـنـ أـيـنـ جـاءـتـ ،ـ فـهـىـ أـوـلـ قـرـدـ أـرـاهـاـ فـيـ بـلـادـ الـقـرـودـ .ـ وـلـاـ كـنـاـ قـدـ اـعـتـدـنـاـ أـنـ نـرـىـ الـقـرـدـ تـابـعاـ لـصـاحـبـهـ ،ـ فـقـدـ اـشـتـقـتـ أـنـ أـرـىـ الـقـرـدـاتـ الـغـنـىـ الـذـىـ يـحـكـمـ عـلـىـ قـطـيـعـ مـنـ الـقـرـدـ يـرـسـلـهـ فـيـ أـثـرـ الـآـكـلـيـنـ بـدـلـ أـنـ يـعـلـمـ أـفـرـادـهـ «ـنـوـمـ الـعـجـوزـةـ اـزـايـ»ـ ،ـ أـوـهـ بـوـسـ إـيدـ سـيـدـكـ يـاـ وـلـدـ»ـ وـ«ـفـينـ عـروـسـتكـ يـاـ مـيمـونـ»ـ

وـمـاـ إـنـ اـنـدـفـعـتـ إـلـىـ النـافـذـةـ فـيـ أـثـرـ صـاحـبـهـ حـتـىـ كـانـ أـفـرـادـ مـنـ الـقـطـيـعـ قدـ اـنـدـفـعـوـاـ مـنـ نـوـافـدـ النـاـحـيـةـ الـأـخـرـىـ وـانـقـضـوـاـ

على سباتة الموز الذى يمثل فاكهتنا الوحيدة فاختطفوها ،  
وعدنا نهوش ونلوح بأيدينا ولكن بعد فوات الوقت ، فقد  
كان أفراد القطيع اقسموا أصابع الموز ، وذهب كل منهم في  
سبيله يحمل أصبعه ليقشهه ويبلغ به على مرأى منا فوق  
رصف الخطة .

ولم يكن هناك قرداً ، وإنما فهمت من صاحبى الهندى  
أنها منصر من القردة تسليط فى الحطات هذا السطو المنظم ،  
فيشاغل فريق منها الآكل من ناحية حتى إذا ما قام يطاردها  
هجم الفريق الآخر من الناحية الأخرى ، وحل ما تصل  
إليه أيديه من الموز والجوز . وجعل صاحبى يعتذر لى آسفًا  
على ما حدث . فأجبته ضاحكا بأننا ندفع للقردات فى بلادى  
مقدار ما تساويه سباتة موز فى بلاده مقابل أن يعرض علينا  
قرده الوحيد — يصطحبه جحش ومعزه هما فى الأكثـر  
كومبارس — الأعيب أقل طرافة ما رأيت ، وبأنىأشكر  
هذه الفرصة التى أتاحت لى — فى مقابل سباتة موز — أن  
أشاهد «فصال» بديعا من هؤلاء القرود يفضل عندى كل شقلبات  
قرود القاهرة ، وكل تقليد «نوم العجوزة» ، و«نوم العروسة» ،  
فهذه فى جموعها دروس محفوظة عن ظهر قلب . أما أن يتآمر

قردة محطة مادورا على زائر مصرى يرافقه مضيفه الهندى  
ويدعوه إلى مأدبة إسلامية في صحاف من أوراق الموز ،  
ويصيّبوا هذا النجاح الباهر ، فهو آخر ما كنت أنتظره من  
أصدقائي الحيوانات . ولاشك عندى بأنه لو كان لها في محافظتنا  
— لا في موزنا — مارب ، لاستطاعت أن تشرط جيوينا  
كمهر نشالى العتبة الخضراء بالقاهرة . وإنى بعد اتساعل عما  
إذا كانت هذه القردة في دخولها محطة « مادورا » قد قطعت  
تذاكر مقابلة ، أو أنها حاصلة من ناظر المحطة على ترخيص  
بائع سريع . بل وأريدك أن تتأكد من أنها غير تابعة لبو فيه  
المحطة سلطاناً صاحب امتيازه على الركاب الذين يرفضون  
التعامل معه ، ويحملون غذائهم من المدينة أو من منازلهم .

ثم رفعت قبعتي تحية للقردة ، وتمنيت لها أتم النجاح في  
مهمة أدخلت على قلبي السرور في يوم شديد القيظ بجنوب  
الهند ، وأنسستى كل العنااء الذى لاقيته فى ازدراد الأكلة  
الإسلامية التى قدمها لي مضيفى .

# الرِّئَسُ حَمَدٌ

لوأن في وظائف البحرية العسكرية وظيفة فتوة «الدرید نوت» لكان الرئيس أحمد أول مرشح لها . ولوأنه — لاقدر الله — فقد مركزه في بحرية الدولة ذات يوم فان أرشحه لوظيفة عتال في الجمرك ، او أجلسه على عرش او لم يفي بلاد الرباعين ، او أعرضه في الموالد لابسا «ريدى» عليه هلال ونجمة ، تحيط به شتى الأثقال إحاطة الهالة بالقمر .

لم يكن يحب الحياة الشاقة الفذة التي تحياها على ظهر السفينة منذ شهور بين السماء والماء — ومن من أحباها ؟ — ولكنها احتملها كما احتملناها جميعا . أما مانع بحمله واحتماله فهو الرئيس عبد الله ، الرجل القصير الذى جمع بين مكر الشعلب وخفة القردة ، والذى كان يكرهه جميع البحارة لا لعنة إلا أنه رئيسهم المباشر . وكره البحارة عاطفة زمنية مكانية ، فهى رهينة بالسفينة وبالسفينة فى عرض البحر . أما إذا رست

هذه وخرج رجاها إلى البر فأن عاطفة الـكره تهرب إلى عرض البحر أمام حاجز الأمواج وتترقب خروج السفينة من الميناء لتحط بين رجاها . وهي في هذا تشبه مجموعة من المشاعر تستولى على راكبي البحار وتحتفى عند اقتراب الشاطئ . والبحارة في هذا يشاركون المساجين والأسرى وكل من تقضي الظروف بأن يخشدوها سويا في صعيد واحد بعض الزمن .

أصيب الرئيس أحمد بالملاريا في عرض البحر ، وكلما ذهبت لأعوده شكا إلى الرئيس عبد الله أكثر مما يشكو الصداع والحرارة والرعدة . ومع أنى لم آخذ شيكواه على محمل الجد مرة لكثره اعتيادي عليها . ولأنى قيدتها على حساب العواطف الزمنية المكانية الخاصة بعرض البحر ، إلا أن إصراره عليها واهتمامه بيها أكثر من الكلام عن مرضه ، جعلنى أفقد بعض صبرى . ولما كانت أعمالى كثيرة متعددة النواحي على ظهر السفينة ، فقد تركت للرئيس أحمد كل جرعااته من الكينا عن يوم كامل توقعت فيه عدم إمكانى الذهاب إلى عنبر رؤساء البحريية قبل المزيع الأول من الليل . وتركته وهو يلحف بالرجاء أن أجده له علاجا يريحه من الرئيس عبدالله أكثر مما يريحه من الملاريا .

وبعد العشاء ذهبت لا عود مريضي فألفيتها فاقد النطق ،  
ولكنه كان محتفظا بقواه العقلية . . . وربما الجثمانية أيضا ،  
وإذا كان قد فقد من هذه ما يعادل قوة أربعة رجال فقد بقى  
له منها ما قد يقل قليلا عن قوة ستة رجال . وأشار إلى « بما  
يعنى أن في رأسه آلافا من الطواحين ، لها دوى وهزيم ،  
ووش عظيم ، فبادرته بالسؤال عن عدد ما تناول من حبات  
الكينا فأشار إلى بأنه ابتلعها كلها مرقة واحدة . وهناك أمثال ذلك  
من تذكر حكاية الصعيدي الذى قرش شربة الملح الانجليزى  
أو السلوفات . وإذا كانت حالته غير خطيرة فقد أمكننى أن  
أصرخ في أذنه — وقد أصمت سمعه الكينا مؤقتا — أهو ربنا  
حairy الحك من الرئيس عبد الله .. ويرى حنى منك ياريس أحمرد .



## عبدالغني

أغلب بحارة هذه السفينة «أولادبلد» ولكتنهم أحبطوا  
سياج العسكري وألبسو نظامه ، فاتخذوا طابع الجندي  
وقدروا كثيرا من صفات ابن البلد . أما عبد الغنى فهو نجار  
«ملکی» استخدمته البعثة في السفينة قبل سفرها . فاذا  
قسمت ركابها إلى فريق عسكري خاص بالملاحة والآلات ،  
وفريق «ملکی» خاص بالكشف العلمي ، فأنت مضطرك أن  
تجعل من عبد الغنى فريقا وحده ، فهو نشاز صارخ على ظهر  
الباخرة . ومع أننا نليس جميعا في عرض البحر أسمالا تسبغ  
 علينا سيماء قطاع الطرق أو فرchan البحار ، إلا أنه يسهل تمييز  
 عبد الغنى من رجال البحرية حتى تحت هذه الأسئلة . فشيئته  
 وحركاته ، وطريقة كلامه وتلقيه الأوامر وتنفيذها ، تتم على  
 أننا حيال «صاحب صنعة وابن كيف». ثم هو لا يكاد يتحرك  
 على ظهر السفينة إلا حاملا مشاره أو قدومه ، أما في «وقت

الراحة » فان جلسته وطريقة تدخينه تفضحان أمره لـ كل ذى عينين . فليست هذه جلسة بحار عسكري أو وقاد فى « الراحة » ، بل هذه ليست جلسة رجل من رجال البحر . وإنما يحول لك عبد الغنى كل شيء حوله إلى قهوة بلدى ، بجلسته وحديثه وإشاراته وطريقة تدخينه .

ومع هذا فقد اتهى عبد الغنى إلى اقتناء بدلة وقميص أفرنجى ليلبسهما بدل « السا كو » والجلالية . ولكن له سبب لا أفهمه — وهو مصدر عجى الدائم كلما رأيت حدوثه في مثل هذه الحالة — أهمل أن يشتري الياقة والبمباخ .

إن أمر إهمال الياقة والبمباخ عند عبد الغنى وأمثاله ، ربما كان قائما على نفس الأسس البسيكولوجية التي تجعلنا نصر على لبس الطربوش . فهذا عبد الغنى قد اضطر بحكم الوسط الذى أحاط به على ظهر السفينة — وخصوصا حينما يخرج وإياهم إلى البر فى الموانى ، وهم مضطرون هناك إلى الاحتفاظ بملابسهم العسكرية — إلى لبس الملابس الأفريقية . ولكن في نفسه بقية احتجاج على هذا ، وبقية تمسك بعاداته و « قوميته » المحلية . و مجرد إهماله الياقة والكرافطة يجعل المثلث الظاهر من القميص خارج الصديرى ، وأزراره البدية ، وأكمامه

الخارجة من أكام الچاکته لاتضمهمما أزرار قيص ، رمزا  
على «القومية» الخلية ، وعلى أن عبد الغنى — برغم كل شيء  
— رجل ابن بلد وابن كار وليس «أفندي» .

كذلك نحن والطربوش ... نلبس الملابس الأوروبية  
ونحاول أن نرقى إلى مستوى الحياة الأوروبية . ولكتنا —  
لا تنس من فضلك ! — مصريون فوق كل شيء .  
كأن القومية رهينة بأصص الزرع المقلوبة فوق الرؤوس .

# على محمد

إذا قلبت الأوضاع نتيجة زلزال أدي يجعل من أعلى  
هذه البعثة أسافلها ، فان على حمد يصبح رئيسا للبعثة بحكم  
هذا الانقلاب . ولست أدرك الخدمة العلمية والانسانية التي  
كانت تؤديها في هذه الحالة ، ولكنني على يقين من أنها  
كانت تصبح أكثر جذلا ومرحا . وعلى حمد بوضعه الطبيعي  
فيها — ولم يكن منبني أفق ناقتها — كان بؤرة السرور ومدار  
الضحك في السفينة . وفي الحق أنه شخصية فذة تعد في نظرى  
أقصى ما يطمح إليه في تمثيله ببرى مصر الوحيد . وعلى حمد  
فوق هذا سفرجي من الطبقة الأولى ولو أنه مقيد في الدفاتر  
على الدرجة الثالثة . وهو الوحيد من أربعين لم أسمعه ينشئ  
شكوى مدى التسعة أشهر التي قضيناها في عرض البحر . ولو  
أن في صوته وصوصة الشاكى الدائم ، والحتاج على كل شيء .  
فإذا ما صرخ فيه الكوماندور ضابط الملاحة ليحضر زجاجة

الـ « gin » والماء المثلج ، سمعناه من « خمارتنا » بأسفل السفينة  
وهو يصعد سليمها إلى السكويرته محتاجا « إيه دى ! كمان الجن  
في المركب » ولكنه يعود إلينا سريعا يتقدمه صواؤه ولم  
ينس زجاجة ولا كوبا . وعلى حمد ينطق الجيم في اسم هذا  
الشراب بلا تعطيش ، ولعله في نفسه أقام علاقة بين أثر  
الشراب علينا وبين « إخواننا اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم ».  
وقد تناقضه في سر وصوته عند ذكر هذا الشراب ، ونحاول  
أن نقنعه بأن الجن مهما لعب برأس شاربه فهو برد وسلام  
إذا قيس بالبوظة . وهنا تخرج زرابين على حمد ، وتلعب  
أطراف شواربه المدللة على شفتوريه كأنها بقایا مكنسة  
عتيقه ، ويوّكـد لنا في لغة نصف مفهومه بأنه لو استعاضت  
السفينة عن الفحم بالبوظة لزالت سرعتها بعض عقد ، ولو  
جعلنا منها شرابنا كل مساء بدل الجن لآخر جرت من أجسامنا  
كل داء ، وجعلتنا أقوى على تحمل المشاق وأسرع جذبا  
للشباك وأقدر صيدا . وهذا لا نرى مناصا من سلوك سبيل  
المسلمة ، فتفقـد وإيهـاه على أن جميع المسـكريـات شـرابـ الجن  
والأـ بالـ سـةـ ، وـ توـكـدـ لهـ بـأنـ بـعـلـ بـزـ بـولـ قدـ اـصـطـفـ الـ بوـظـةـ يـشـربـ  
منـهاـ كـوـوسـاـ دـهـاـقاـ . وـ أنهاـ الـ بوـظـةـ وـ بـواـخـهاـ فيـ رـأـسـهـ جـعـلـتهـ

يُنتصب قائماً أمام ابن الصلصالة ولسان حاله يقول « شارب البوظة من قرعتها لا يسجد لشارب الماء حتى ولو من سلسيل ». وعلى حمد رجل نظام بمعنى الكلمة . فهو لا يهاب على السفينة سوى رجل واحد : القومندان الاسكتلندي . فحينما ييدو لهذا الأخير أثناء تفتيشه الأسبوعي تقدير في خدمة على حمد ، يصرخ في وجهه « آلى هاماد ! » ويزغر له بعينيه الرماديتين ، ويرفع سبابته في اتجاهه . وهنا تراخي مفاصل على حمد — ولعل تفسير هذا التراخي في نفسه هو بعد عهده بشرب البوظة — ويتحذى وجهه سيماء البلاهة . وإذا يلتقي نظري بنظر القومندان ، يكتسم كل منا ضحكة ، متواعدين أن نضحك في وقت آخر من هذا الساذج الذي أضفى على السفينة المكدودة روح المرح : والذى أصبح لازماً لنا كالشمس والهواء والبحر والخنز .

فإذا مخلوت بعلى حمد عقب التفتيش ، وكررت له تحذير القومندان وأنا ضاحك ، أجابني وهو يوصى كالفار ، فيطل عليه الكوماندور ضابط الملاحة من أعلى المشى ويختار « شاتب آلى هاماد أو أليسيك في اليم » فلا يزيد هذا إلا صواعداً . كلفني على حمد بأن أرسل له نقوداً من كراتشي إلى قريته

فِي فِيافِي السُّوْدَان ، وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَتَكَلَّمُ  
الْأَنْجِلِيزِيَّةَ أَنْ يَقُولَ بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَى — وَأَنَا  
أَتَكَلَّمُ الْأَنْجِلِيزِيَّةَ — أَنْ أَؤْدِي لَهُ هَذِهِ الْخَدْمَةَ بِسَبَبِ غَيَّابِ مَوْظِفِ  
الْبَرِيد — وَيَقِينِي أَنَّ نَمَادِجَ النَّذَاكَاءِ الْهَنْدِيِّ مَعْدُومَةٌ فِي الْوَظَائِفِ  
الصَّغِيرَةِ ، وَالْفَضْلُ فِي ذَلِكَ لِلْأَمَةِ الْحَاكِمَةِ الَّتِي لَا تَقِيمُ وَزْنًا  
كَبِيرًا مَا اصْطَلَحْنَا عَلَيْهِ فِي حَوْضِ الْبَحْرِ الْأَيْضُونِيِّ الْمُوَسَّطِ  
بِكَلْمَةِ النَّبَاهَةِ — وَلَأَنَّ قَرْيَةَ عَلَى حَمْدٍ لَمْ يَرِدْ لَهَا ذَكْرٌ فِي سِجْلَاتِ  
الْبَرِيدِ. وَعُدَتْ إِلَى السُّفِينَةِ — أَوِ الْمَرْكَبِ بِضْمِنِ الْمَيْمِ كَمَا يَنْطَقُ  
بِهَا عَلَى حَمْدٍ — أَسْأَلَ صَاحِبَ النَّقْوَدِ عَنْ أَقْرَبِ مَرْكَزٍ ، وَعَنْ  
اسْمِ الْمَدِيرِيَّةِ الَّتِي أَنْجَبَتْهُ . وَقَدْ دَهَشَ عَلَى حَمْدٍ أَلَا يَعْرِفُ  
الْخَاقَانُ بِخَبْرِ قَرْيَتِهِ الْعَامِرَةِ ، وَكَانَ يَحْسَبُ أَنَّ مَرَاجِعَ الْبَرِيدِ  
لَا تَنْصُ عَلَى قَرْيَتِهِ خَسْبٌ . بَلْ عَلَى نَخْلَتِيهِ وَبَيْتِهِ الَّذِي أُرْسَلَ  
النَّقْوَدُ خَصِيصًا لِاَصْلَاحِ سَقْفِهِ الْمَتَدَاعِيِّ وَشَرَاءِ نَخْلَةِ ثَالِثَةٍ  
تَطَلُّ عَلَيْهِ ... أَوْ يَطَلُّ عَلَيْهَا .

ثُمَّ مَضَتِ الْأَيَّامُ فَالْشَّهُورُ وَعَلَى حَمْدٍ لَا يَتَلْقَى خَبْرًا عَنْ  
وَصْوَلِ نَقْوَدِهِ . وَأَخِيرًا وَصَلَ مَعَ بَرِيدِ السُّفِينَةِ فِي إِحدِي  
لَمَوَانِي خَطَابِ عَنْوَانِهِ :

« يَوْصِلُ وَيَسْلِمُ لِيَدِ ابْنِ عَمِّنَا الْمَعْزُوزِ عَلَى حَمْدِ الْهَمَامِ »

يالمركب . . . بالمحيط الهندى في خير وسلام »  
وكان وصول هذا الخطاب إلى سفيتنا أبجوبة الأعاجيب ،  
وشهادة للبريد الهندى بالدقة ، ولبريطانيا بصدق حكمها إذ  
لا تعتبر النهاة شرطا من شروط الكفاية في تأدية الأعمال  
العامة .

واطمأن على حمد إلى وصول نقوذه واعتزام أهله شراء  
النخلة وإصلاح سقف المنزل العامر . ولكن البحارة أولاد  
عفاريت ، وعلى حمد لا يعرف القراءة ، وقد أفهموه وأشاعوا  
فيها بينهم - حتى لقد بلغتنا الاشاعة نحن الذين نسكن خلف  
الصارى الكبير - بأن الخطاب كان معنونا هكذا :  
« يسلم ليد على حمد بالمحيط الهندى »

وهذا آخر ما كان سفر جينا الطروب يتنتظره . فقد كان  
يرى من الطبيعي أن تتحلى دلائل البريد باسم قريته وكوخه  
ونخلتيه . أما أن يكتب له ابن عمه بعنوان « على حمد بالمحيط  
الهندي » ويصله الخطاب ، فهذا أقوى مما يحتمله تفكيره .  
ومهما كان جهل على حمد بالجغرافيا ، فقد شهد بعينيه تراخيه  
أطراف ذلك المحيط ، ونزل بالبلدان القائمة على شواطئه ،  
وسمع فيها اللغات الغريبة ، وعرف بأمر الأديان المتعددة ،

فكيف يمكن للبريد أن يستدل عليه هو « على حمد » وسط ذلك المحيط ، وللخطاب أن يتعقبه من ميناء إلى ميناء حتى يدركه . وقد جاءني يستفسر في جلية الخبر فقلت له :

— شوف يا على حمد ، أنت دلوقت راجل مشهور وكل الناس في البوسته تعرف أن فيه مركب اسمه ... يشتغل في المحيط الهندي ، وأن عليه سفرجي اسمه على حمد . وأدیني أهوه إن ما كانش الناس ياخدولك مثل في السينما بعد ما ترجع مصر بس لازم يقصصوا شنبك شويه علشان تبقى عليك القيمة .

فأجابني :

— ياسلام يا فندم ! ليه ياهدوني في السينما ويقصصوا شنبى كان ، هو أنا مسهره ؟

وقد أدرك على حمد أنى أداعبه ، ولكننى لم يفهم بعد كيف وصله الخطاب بعنوان المحيط الهندي ، ومن يدرى كيف يقص على مواطنيه في الاسكندرية قصة وصول الكتاب إليه . فربما لعبت البوطة برأسه فقال مفاحرا :

— دا الجواب جامن السودان مكتوب أوليه بس « ألى همد »  
ما فيش كلام . أما أجايب والله يناس !

## مشمسة

كليا ابتي الانسان لنفسه سفينة أقيانوسية كبرى دارت  
بخليدى مقارنة عقيمه بين سفينة نوح وبينها . عقيمه لأن كل  
مانعرفه عن سفينة نوح أنها صنعت من خشب ، بينما نعرف  
عن جباررة البحار في عصرنا كل شيء . فعرفتنا بسفينة نوح  
أقل قليلا من معرفة آبائنا وأجدادنا بزوجاتهم قبل العرس .  
فقد كانوا - إلى أئهن من لحم ودم - يسمون مثلًا بأن  
وجوههن كالقمر ولو هن شيء بين لون القمح والقشدة . ومعرفتنا  
بالسفان الأقيانوسية اليوم أكثر قليلا من معرفتنا بعرايس  
هوليوود طولا وعرضًا وزنا وحركة وسرعة . ولو لا أن  
شركات الملاحة تطلعنا على الدقائق المستترة لعلاقة البحار  
لتتساوى علينا بنجوم لوس انجلليس والبوادر الكبيرة .  
ولم أصل في مقارنتي إلى نتيجة حتى الآن . فاني بين أن  
أجعل من سفينة نوح مركبا في حجم المراكب التي تنقل

البطيخ بين البرلس والأسكندرية ، أو في حجم السكونيات  
التي تحمل تجارة بسيطة بين بر الشام ومصر ، وبين أن أتخيل  
« التورماندي » و « السكوني ماري » إلى جانبها فلا يكفي نجاة  
ليس غير . فإذا أدت معارف الأيدياحية إلى استحالة تصور  
سفينة نوح بهذه الصخامة — إذ أن صناعة السفن في عهد أبي  
ياافث كانت ولا شك في مدها — فان عقائدى الراسخة ،  
وإيمانى الذى لا ريبة فيه ، تقض مضجعى حين تصورنى  
واقفا بأسكلة قوم نوح أتناول جوازات سفر المؤمنين  
والمؤمنات ، وأتسلم شهادات النولون عن كل زوج من دواب  
الأرض وهوامها ، وطيور السماء ، ووحش البرية . ويتواضع  
خيالى فأتصورها مائة ضعف ما يملا حديقة الحيوانات بالجزء  
فأقع في مأزق لا مخرج منه إلا أن تكون سفينه نوح أكبر  
من كل ما أنشأته وتنشهئ يد الإنسان الذى نعرفه اليوم قصير  
العمر والهامه ، إلى جانب أقوام كانت تذرع قاماتهم بالمائة  
والألف ، وتبكي النادبات شبابهم المقصوف حين تقبض  
أرواحهم في سن العشرين بعد الثلاثمائة .

وقد لازمتى هذه المقارنة الجوفاء ملازمة سمححة حتى  
ركبت البآخرة العلية الصغيرة التى انطلقت بي في غير وعي

شطر المحيط الهندي ، تحمل جماعة مختلطة من عشيرة بريطانوس وأفخاذ مصر ايم اعتزموا أن يركبوا الطوفان قبل أن يركبهم .  
وإذ احتوت السفينة أربعين منا ، مع أن طولها لا يتعدي الأربعين مترا ، وتكدس على سطحها وفي بطونها زادنا وزوادنا ، والفحم والماء والزيت والشحم والثلج والشباك وآلات رصد البر والبحر والجو ، وزجاجات الحبر وصناديق الدخان وعلب السجائر والكتب والأوراق والأسلحة وأدوات الزينة والنظافة ، وملابس التشريفة وأسمال العمل وسترات المدينة ، ومئات البرطمانات والصناديق والأحواض والأجزاء الخانة وأدوات الجراحة ودمجات الكحول والقولوماليين ، أقول حينما احتوت سفينتنا كل هؤلاء وكل هذا آمنت بأن سفينه نوح لم تكن أكبر منها بكثير ، وأن السر في صناعة الصانع وتدبر المدبر . فهؤلاء مهرة الخطاطين يعرضون لعيوننا المشدوهه حبة من الأرز كتبوا عليها ألفية من الألفيات أو سيرة من السير .

كانت باخرتنا العلية نوعا من سفينه نوح . غير أنها لم تحتو من الإنسان غير الذكور . أما من الصراصير والقيران والهوام فقد يكفي أن ترى تزايد عددها يوما عن يوم لتعلم

أَنَّهَا لَمْ تُجْعِي إِلَى مَرْكُبَنَا خَالِصَةً لِوَجْهِ الْكَشْفِ الْعَلَمِيِّ مُثْلَنَا ،  
مُتَجَرِّدَةً مُتَبَلَّةً وَلَوْ إِلَى حِينٍ . وَلَقَدْ شَارَ كَتَنَا مَا كُنَّا وَمَشَرَّبَنَا  
وَفَرَّاشَنَا . فَلَمْ أَرْ أَصْفَقَ وَجْهًا مِنْ فِيرَانَ هَذِهِ السَّفِينَةِ ، تَجْيِئُكَ  
لِيلًا لِتَعْبُرَ جَسْدَكَ النَّائِمَ عَنْ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَرْوَقُ لَهُ ، مَعَ  
تَفْضِيلِ خَاصٍ لِجَيْنِكَ الْوَضَاحِ ، وَكَانَهَا تَحْمِيكَ مِنْ شَرِّ  
النَّفَاثَاتِ فِي الْعَقْدِ ، وَتَرْقِيكَ مِنْ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ .

أَمَا صِرَاطِيَّهُذِهِ الْمَرْكَبِ فَكَانَتْ سَكِيرَةً عَرِيفَةً ، أَدْمَنْتُ  
عَلَى شَرْبِ الْقَيْرَمَوْتِ الْأَيْطَالِيِّ إِلَى درَجَةِ أُورْدَتَهَا مَوْرَدَ الرَّدِيِّ  
حِينَ وَجَدْنَا فِي هَذَا الشَّرَابِ خَيْرًا مُصِيدَةً لَهُ .

فَإِذَا اسْتَنَنَا فِيرَانَ وَالْهَوَامَ وَالصِّرَاطِيَّرِ فِي الْمَرْكَبِ  
باعتِبَارِ أَنَّهَا كَدُودُ الْمَشِّ مِنْهُ فِيهِ ، وَاسْتَنَنَا رَحْلَةً مِنَ الرَّحْلَاتِ  
اضْطَرَرْنَا فِيهَا إِلَى حَلْ عَشَرِينَ رَأْسًا حِيَا مِنْ غَنْمٍ بَرْبَرٍ ، وَبَضْعَةٍ  
أَزْوَاجٍ مِنَ الدَّجَاجِ الْيَمِنِيِّ ، نَجَدْ أَنْ رَكَابَ سَفِينَتَنَا الْأَرْبَعينَ  
كَانُوكُلُّهُمْ ذَكُورًا إِلَّا «مَشْمَشَةً» .

وَمَعَ أَنْ مَشْمَشَةً لَمْ تَكُنْ إِلَّا قَطْةً يُمْكِنُ أَنْ تَضَافَ إِلَى  
حَسَابِ الْحَيَّانَاتِ السَّالِفَةِ الذِّكْرِ ، إِلَّا أَنْ شَخْصِيَّتَهَا الْفَذَةُ .  
وَخَلَقَهَا السَّيِّدُ الْقَلْبُ ، وَحَبَّنَا جَمِيعًا لَهَا ، وَاشْتَرَأْكُمْ فِي نَشَاطِنَا  
الْعَلَمِيِّ ، وَمَشَاطِرَتُهَا لَنَا أَفْرَاحَنَا وَأَتْرَاحَنَا وَأَمْرَاضَنَا ، وَحَصَوْلَهَا

على أكلها لا غدرا ولا قسرا ، بل اقتدارا وحقا من حقوقها  
تعدنا مضطرين إلى أدائه ، وأخيرا فلة حيلتها في صيد الفيران ،  
جعلت مشمشة واحدة منا .

ولم نختلف في شأنها إلا على أمر واحد ، هو اشتراكها  
في نشاطنا العلمي . فقد لاحظنا أن مشمشة لا تقرب الأسماك  
التي تصيدها شباكنا . وقال العلماء منا : إنها تحترم بحوثنا ،  
وتعرف ما لهذه الأنواع الغريبة من قيمة علمية فلا تقر بها .  
وقال المأذون بعلمنا : بل هي تعاف نماذجكم العلمية . إذ  
تعرف بسلبيتها أنها لا تسمن ولا تغنى من جوع . فهي أسماك  
عجاف تعيش في أعماق البحر السحرية . ولو لم تتمسها بأيدينا  
لحسبناها أرواح أسماك تهيم في هيولى خيالكم .

ولعل الحق في جانب الساخرة . فقد رأى الجميع مشمشة  
تتخلى عن وقارها العلمي فتموه وتموه ، وتدور حول الشباك  
لتسطو على ما بها ، وهذا في كل مرة ألقينا الشباك في الأعمق  
الغريبة ، وحصلنا على مثل الأسماك التي تنجدى بها .

وانخذلت مشمشة محلا مختارا في الليل أو في القيلولة  
يرطوز البحري . وهي فيه واضحة الميل نحو فراش واحد أو  
اثنين من البحارة عنينا بها عنابة خاصة . ومشمشة خلوفة



الريكسو — سيلان (أنظر صفة ٧)



حجاج « راميشفارام » — جنوب الهند (أنظر صفة ١١٧)

6

تعرف قدر نفسها . فليس من ذوى الفخة الكذابة ، ولا  
هي من أهل التواضع إلى حد الذلة . فهى تتجسّط في بروز  
البحرية بنفس الكبriاء الذى يحول بينها وبين أن تزجّ بنفسها  
في قمراتنا خلف الصارى الكبير ، مع ما نظيره لها من حب  
وما نمحضها من عطف . ولا أذكر أنّها جاءتنا ناحيتنا راضية  
إلا في فرصتين : الأولى حين ألم بها مرض فحملها الضابط  
الأول إلى ل تعالج . وقد جاءنى مكفر وجه يقول « القطة  
عيانه يا فندم » . وحينما لحظت أنّي احتسىت في فصّرها — ولا عهد  
لي بعلاج المهررة — أضاف مشجعا « موت قطة المركب  
قال وحش يادكتور ». وكانت مشمسة مسجاة على مكتبي  
ترتحف بين الآونة والأخرى وقد سخنت أربنة أنفها وجفت .  
وأمرت بذهني سراعا ذكريات عهدنا الأولى بهذه القطة :  
ولأدتها على طوافة راسمية عند السويس ، من أم عجم البحر  
عودها إذ تربت وسط ضباط بحريين كانوا يلقون بها يوميا  
في اليم لتعود سابحة إلى السفينة . ومرورنا بالسويس متوجهين  
إلى البحر الأحمر فالخليط الهندي ، وإهداه الضباط رفقاءهم  
هذه المهريرة وكانت في لون الحناه خططت بالبياض .  
أما الفرصة الثانية التي جاءت فيها مشمسة تجوس خلال

قمراتنا فكانت عندما أوفت على البلوغ ، ودارت تملأ أرجاء السفينة مواء وهي مدفوعة بغريرة تتنبه فيها لأول مرة . وقد وجدت في سلو��ها هذا موضوعاً لحديث على المائدة من تلك الأحاديث التي يترم بها إخواننا الانجليز :

— هذه الهرة أيها السادة تفضل عندي بنى الإنسان ، وهي تذكرني بأوضاعنا الاجتماعية التي تضطرنا إلى كبت واحدة من أهم غرائزنا ، وأسوأ من كبتها الإمعان في تحثير مظاهرها حتى لتنظر إلى المرأة التي تعمل لها مخلصة نظرنا إلى المجرمين . هذه القطة التي تتأففون من موائهما ليلاً نهاراً أشجع من ابن آدم . فهي حينما طلبت الأليف أعلنت ذلك على رؤوس الأشهاد بلا هوادة وفي غير خجل ولا وجع .

ويفتح حديثي هذا مجال معركة حامية تسدد إلى فيها سهام الوقار البريطاني ، وأعمال كضحية من ضحايا « إباحية القارة » . فامعن أنا في استحقاق لقب الإباحي . فاذا جمعتنا المائدة يوم خروجنا إلى البحر بعد أيام قضيناها في البر ، وجعل كل منهم يتكلم عن الكلوب الذي احتواه أثناءها ، وعن ما تشن الكريكيت الذي شاهده ، أو لعبه التنس التي اشتراك فيها ، انتظرت حتى أسأل : وأنت أين اختفيت ؟

فأجيب : « كنت أتابع لعبى المحبوبة : مطاردة الغوانى ، حتى  
ولو كنت في زيارة معبد « إيليفاتا » أو « بركه » التماسيح إلى  
جانب ولى الله « مانجوپير » .

ومقام مشمشة معروفة خارج بربوز البحارة . فهى  
بياب وجاقهم (مطبخهم) ساعة تسلم الطباخ اللحم من رئيس  
السفرجية ، أو ساعة تسلم كل منهم غذاءه . وهى مقنبرة فى  
أحضان « العم » على رأس « الكبانة » منامة هذا الوقاد الفيلسوف  
فى حصة العصر . فإذا لم تجدها هنا أو هناك فتأمل على ظهر  
السفينة مواضع الخطر ، لترى مشمشة تحت شبكة معلقة تزن  
نيفا وخمسائة أقة . أو إلى جانب سلك الآلات تسحبها  
السفينة على قاع البحر ، وإنه لقادر إذا انقطع جاؤه أن يقضم  
الرجل قضيا . أو تحت ميزان الضغط الذى ينذر بخطر اشتباك  
الآلات بالقاع الصخرى . أو تحت « الكباش » الكبير يزن  
ألف كيلوجرام وترفعه الونشات لتعود به آمنا إلى ظهر  
السفينة ، وهو محمل بخيرات قاع البحر من كل هردومة صخر  
زوجان . أو بين أرجل البحارة الأشداء يشتراكون في رفع  
الشباك من الماء في اللحظة الأخيرة .

أى أن مشمشة مثل حى لفاف خرى شعراً العرب الذين

يدعون بأنك لا تلقاء إلا حيث يشتد الضرر والطعan (كذا)  
وحيث ترخص النفس في سوق المنايا (كذا). وإذا لم يقم  
لدينا دليل على صدق هذا الادعاء أكثر من أشعار فاقت حد  
الروعة في البلاغة ، فإني قد رأيت بعيني رأس مشمشة تخوض  
وادي الردى بقلب ثابت ، وجنان غير واجف . وتنظر  
شواربها بلا اكتئاث وسط حلقات شبكة على وشك أن  
ترسل إلى عمق أربعة آلاف متر في المحيط ، أو تغفو قاعدة  
القرفصاء على شفا سفينة يلعب بها العباب لعبا .

وعادت مشمشة إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد أن  
طفت معهم تسعة أشهر في طول المحيط الهندي وعرضه ،  
ونشرت صورتها على صفحات الجرائد فلم تزدها الشهرة  
خيلاه على خيلاء . ولم تزدها رؤية الأنصار ثروة أو خبرة .  
بل ولم تكنها هذه الحياة الرحيل من انتقام عريض صالح بين  
هررة سيلان أو قطط زنجبار أو سناين الهند . عادت إلى  
مسقط رأسها في السويس عذراء ذهبية الشعر أوفت على سن  
الزواج ، وقد غادرتها طفلة في لون الحناء .

# المِطْرَ الْمُتَقْسِفُ

اسمه «داديكانا» عاشت الاسامي . قدم إلى من أعلى صخرة  
«ماها بالي پورام» التي نقش عليها الفنانون «كفاراة أرجونا»  
وقيل بل مثلوا على سطحها الفليديسياتي قصة نهر السنج ينبع  
من السماء في صورة الحياة «ناجا». سأعود إليها في وقت  
آخر . إنما أنا الآن بقصد السيدالستد «داديكانا». وهو سنور  
قيل عنه في ملحمة «المهابهاراتا» إنه من «عباد شيشا» الصالحين  
وقد رأيت صورته البارزة على صخرة «ماها بالي پورام» في  
حركة نساك الهند كأشد ما يكون عليه القط الورع . فهو  
واقف على طرف واحد من طرفيه الخلفيتين في حركة الفقير  
الهندي يعبد جسمه الزائل بوقوفه على رجل واحدة ، كأن فعل  
الصبية في لعبه الحجلة . والتقطف الهنودسي يصطحبه تعذيب  
الجسد إما بالنوم على صفوف من أسنة مسامير قائمة ، أو على  
مصنع زجاج محطم ، أو بالجوع أشهرا ، أو أن يدفن النساك

نفسه تحت الثرى يتنفس من أنبوة بير يسكونيه (بير يبنو ماتيكية)  
أولاً يتنفس — هو و شأنه — أو لأن يقف خائعاً على أم رأسه  
زرع بصل ، ضارعاً إلى الآلة برجليه ممتدة إلى أعلى.

وقد تخير صاحبى «داديكارنا» وقفه لاشك بأنها أكثر ما  
يطلب من هرأن يؤديه في ناحية تعذيب الجسد . فلعبة الحجلة  
هي آخر ما يفكر به أمراء السنانيين البهلوانية . كما أنه اتقى من  
الأغذية أقلها صلاحية لخوولته وأسباطه : جبة واحدة من  
الأرز كانت وجنته اليومية الوحيدة . فلا عجب أن يصوره  
الحفار على صخرة «ماها بالى پورام» بادى الأضلاع ضامر  
البطن . حتى ليخيل لي أنه قد يمر من خرم إبرة . أما عن  
سبب هذا العناء في المأكل والمقام ، فهو سر القداسة المودعة  
في نفس هذا السنور التقى من بين الآتقىاء كتبت لهم النيرفانا  
وقد وصلوا في التناصح إلى أرقى الدرجات البرهانية .

ذاع صيت القط «داديكارنا» وملا «الاسماع». فكان حديث  
الجرذان في كل صوب وحدب . وقد رأى شيوخ الجرزدان  
في هذا القط علامات علامات اقتراب الساعة . أما شبابهم  
فكانوا أقل تفكيراً بالأخرة حين نزعوا عن قلوبهم الخوف  
من المهرة . وقد بلغ الأمر بالفار منهم أن تلعب الخنزير برأسه

فيخرج من جحره ويعترض الطريق العام صائحاً، يلعن ...  
أحسن قط في الحلة !

و تبلغ مسامع السيد «داديكارنا» أمثال هذه الاستفزازات فلا ينصرف آناه الليل وأطراف النهار عن عبادته ووقفته البهلوانية الشاقة . ولا يتبلغ في يومه بغير حبة أرز واحدة . وأنست الجرذان بالشيخ الورع ، فكانت تقترب منه وئدا يصدها الرعب التقليدي ويدفعها الفضول لتأمل هذا العابد الصوام . فإذا النورانية تضفي على وجهه الجليل ، وتشع من شواربه البيضاء الملبية .

والفيران — كأبناء آدم — تخضع للعادة . وقد اعتادت أن تؤنس إلى القبط «داديكارنا» فجعلت تقرب منه و تخاطبه فلا تسمع إلا موادر قيقا ينطق بالحكم البالغات ويفيض بالرأفة واكتسب «داديكارنا» إعجاب إناث الفيران بنوع خاص ، فـكـن يـفـدـنـ عـلـيـهـ جـمـاعـاتـ مـحـشـودـةـ ،ـ يـبـثـنـ إـلـيـهـ شـكـوـاهـنـ منـ اـرـتفـاعـ أـسـعـارـ الجـبـنـ إـلـىـ نـدـرـةـ الـخـبـزـ المـقـدـدـ ،ـ وـمـنـ قـلـةـ نـسـلـهـنـ (ـكـذاـ)ـ إـلـىـ بـصـبـصـةـ أـزـوـاجـهـنـ لـفـأـرـاتـ الـقـرـيـةـ الـمـجاـوـرـةـ .ـ وـلـاـ يـنـسـيـنـ ثـلـبـ اـعـرـاضـ الـجـمـيـلـاتـ مـنـهـنـ بـالـبـاطـلـ وـالـحـقـ سـوـيـاـ .ـ فـكـانـ مجـلسـ القـطـ صـوـاءـ وـعـوـيـلاـ وـضـحـكاـوـزـ قـزـقةـ وـشـقـشـقةـ ،ـ فـيـ غـنـيـ وـأـنـاقـةـ

ودلال ورشاقة كأحسن ما يكون عليه صالون مدام لاماركين  
حين يتوسطه المونسيور رئيس الأساقفة .  
وهرنا «داديكارنا» يرفع مخلبيه متحجاً أو متعجباً أو ضارعاً  
أو مباركاً . فإذا ماه فانما يموم بالوعظ والارشاد ، وإذا  
سكت مواؤه عاد إلى تلاوته التي لا يغفل عنها «پر . . . ر . . .  
پر . . . ر . . . ر . . .» فتتبادل إناث الجرذان نظرات الاعجاب  
وترهف آذانها لهذا الترتيل بلغة بجهولة ، ينزل على قلوبهن بردا  
وسلاماً ، حتى ليأخذن الاعجاب في آخر كل مقطع «پر . . .  
ر . . . پر . . . ر . . .» فيرددن بصوت واحد « يسلام  
ياسى الشیخ ! »

وبلغ من دخول الجرذان على «داديكارنا» وألفهن له  
واعتيادهن عليه أن شكون إليه بنى جنسه من الهررة الطالحة ،  
وكيف تسقطوا على صغارهن فلا تبقي ولا تذر ، وذلك حينما  
يسعى في طلب الرزق فتخرج الصغار من الأجحاج رغم  
تحذيرهن لها من السنور وفتكته . فيرفع «داديكارنا» مخلبيه طالباً  
الرحمة لبني جنسه ثم يقول :  
— ولكن كفيل أيتها المسكينات بأن أقوم على حراسة  
صغاركم .

وهنا يتغير الخبر إلى جميع القرى والدساكر بأن مولانا السنور الصالح قوام على صغار الفيران . فنؤمه الأمهات من كل صوب تسوق قطعاناً من السيسيات تعهد إليه بحراستها ريثما يعدن من ارتياح كارات المنازل المجاورة ، يحملن منها البندق واللوز وأفراص الجبن وكسرات الخبز . ومرت الأيام والشيخ «داديكارنا» محاط بالآلاف المؤلفة من صغار الجرذان . إلا أنه مما يؤسف له أشد الأسف أن تتلى كل المجتمعات بأناس لا يؤمنون بفضيلة ، ويتشككون في برامة الغرض المقصود بصالح الأعمال . وهم شديدو الريبة بالذات من يتغالي في الورع ويمنع في التقوى . وقد قال قائل من هذه الفتنة الكريمة :

— لو أنتي صدقـت كل مفضـال ورع فـإنه لا سـيل إـلى الثـقة  
بهـذا السنـور . من لـى بـتصـديـق هـذه الأنـيـاب تـلـمع كـالـأـسـنة ؟  
وـهـذه الشـواـرـب تـرـقـصـ شـرـها ، وـالـعيـون تـبرـقـ شـرـاـ مـسـطـيرـاـ

وعـبـثـاـ أـجـابـتـهـ الإـنـاثـ عـلـىـ هـذـاـ :

— أـنـظـرـ إـلـيـهـ بـادـيـ التـرـائـبـ وـالـأـضـلاـعـ ، وـاقـفـاـ عـلـىـ مـخـلـبـ  
وـاحـدـمـنـ مـخـالـبـهـ الـخـلـفـيـةـ . . .

— آـهـ مـنـ مـخـالـبـهـ هـذـهـ !

— أما ترى كيف بطنها بوسائل الحرير والزغب؟

— بلى، وأعرفها مخاً لأظافل كأنها كلابات الزبانية!

— أما بلغك أمره وهو يتغدى بحبة واحدة من الأرز

بين نهاره وليله؟

— لألغين عقلي قبل أن أصدق بأن قطا تبلغ به القناعة

هذا المبلغ!

— ألم تسمعه وهو يموه مردداً «القناعة كنز لا يفني»!

— سمعته، وكأني بصغار كن هي التي أصبحت لديه كنزاً

لا يفني!

قتل الفأر ما أكفره! وهكذا ابتلى المجتمع بكل متحذلق  
متشكك لا يؤمن بفضيلة ولا يقيم وزنا للتقى. ومن عجيب  
أمرهؤلاء أنهم لا يستنبطون للأفكار الموضوعة ولا يتقبلون  
الحكم المألوقة. فهم لغير أفهمهم لا ينصلون وبغير تحقيقاتهم  
الشخصية لا يؤمنون. مخالفو إجماع الآكثريه وخميرة  
عكتنة الرأي العام.

ذهب الفأر المتشكك يتلمس العجقة التي تثبت له حقيقة  
اهر «داديكارنا». فاختباً ذات يوم يراقبه وهو مقيم على حراسة  
الآلاف المؤلفة من صغار الجرذان... ويالهول مارأى!

شهد بعيني رأسه القبط الورع يتبلغ بجرذ واحدلا أكثر  
فالخير كثير والحمد لله . والعقل الرجيح قد دله على أن جرذا  
واحدا ينقص من فيران في عدد الرمل والمحصى لا يوقف  
الشبهات . فن لى بهذه الفارة التي تلاحظ نقصا في عدد  
صغرها ( «والعد في الليمون » واحد من التعويذات الهامة  
التي يستعملها شعب الفيران لاققاء شر العين ! ) ومن لى وسط  
آلاف الأمهات من يمكن أن تسأل عن صحة سلامتها إذا  
ما حذثهن بنقص سيسى من فلذات كبدها .

وهكذا استعراض القبط «داديكارنا» عن حبة الأرض فأرأ  
طرياً رطب العود ... والعظام ، يكسر به صيامه اليومى من  
غير أن يكون مثاراً للشبهات ، ودون أن يضطر إلى السعي  
الشاق وراء الرزق متصيداً ، وقد رأى في التقوى والورع  
ما يبلغه قوت يومه هادئاً وادعاً مشيناً بمدح جميرة الفارات  
المهدبات .

ومنذ قدم إلى الهر «داديكارنا» من أعلى صخرة «ماهابالى  
بورام» وأنا أعد «الشيخ متلوف» جلفاً سوقياً إلى جانب هذا  
السنور الظريف .

# مِلِكُ الزَّانِ

سمعت عن أحد قضايانا الظرفاء أنه تزحلق وهو يتفهقر  
منسجباً من حضرة ملكية . وحين سأله أصحابه عن النطق  
السامي الذي صدر عقب المدر أجاب « قال يا سياف خد  
راسه » .

وهذه النكتة في رأي من أرفع النكات ، لأنها من النوع  
الذى توحى به قوة التصور لا القدرة على التلاعيب بالألفاظ .  
فهذا القاضى يعلم تمام العلم ما هي الشخصية الملكية في العصور  
الحديثة وفي البلاد المتحضرة . ولكن عليه لا يجد فيه شيئاً أمام  
صور الطفولة التي طبعتها جدته فى خياله عن الملك والمملكة  
ووزير الميمنة ووزير الميسرة والسياف والنديم . وهو رجل  
نكتة بارعة يأتى أن يحب أصحابه إلا بما يوحى إليه خياله  
الخصب . لذا حول موقف الملك الدستورى العصرى يسرع  
إلى قاضيه فيأخذ يده وينادى على الطيب أو الأجزاجى

النوبچى ليعنى برضوته ، إلى موقف ملك الحدوته « بالزيت  
ملتوته » ، يغضب بسبب ولغير سبب . لا يعجبه قوام القاضى  
ولا لحته . فإذا تعثر فى فرجياته وانتفأً يفترش أرض الأيوان  
وهو منصرف من حضرة الملك ، نادى هذا على سياقه قائلاً  
بكل بساطة « يا سياف خدراسه » .

ولقد حادثت ملوكاً عصريين وتناولت الطعام على مايذتهم .  
ولكن ذلك لم يمح من خيالى صورة « ملك الزمان » صاحب  
العرش والأيوان ، والحشم والأعوان ، وجزائر الخالدان .  
كما أن رغبتي في رؤية الملوك والسلطانين لم تهدأ إلا حين  
استقبلنا حضرة صاحب السمو السلطان . . . ملك البر والبحر .  
صاحب الأمر والنوى في آلاف من الجزر المسكونة وغير  
المسكونة . فقد عشت في تلك اللحظة كل طفولى وخياطها  
الواسع تتعهد جدى . وعادت إلى ذهني صورة ملك الأفراح  
أو « ملك السعادة » كما كنا ندعوه ، يركب جواده المزركش  
المبرقش ، ويلبس قاوق ماليك بحرية أو بريمة ، يحيط به  
غلمان اتشحوا بأردية بدوية ، واعتقلوا بحدائق القصب ،  
وامتشقوا سيفاً راحوا يضربون بها تروساً عمولة السمكري  
أو الحداد .

كنا نحب هذا الملك الذى ينزل إلينا من علیاء سنين الحسين،  
ولحيته الكثة اختلط ملحها بقلقلا ، فيحيينا بالابتسام وترقص  
حواجبه الكشيفه ، ثم هو يخرج من جعبته مساريين كبيرين  
فيغىيهمما في أنفه حتى تغطى رأساهما طاقى عرنيه الضخم .  
ويخرجهما لينحنى يمنة ويسرة لتصفيقنا وتهليلنا الذى يكاد  
يغطى على موسيقى حسب الله ، لو لا صوت البوّاق الكبير  
يسطع في شمس الصيف كأنه أشعّتها النحاسية انعقدت لزفير  
موسيقار عتل عملاق ، مكتنز مكترش ، ضاق بحجم البوّاق  
ذرعا فتمنطق به والتحف وتجلب . ولو لا هزيم الطلبلالى  
فوق الجمال وقد تمكّن من القضاة على كل الأصوات ما عدا  
صوت البوّاق الكبير .

وتوالت أماني صور مراهقى وأنا أشاهد أشكالا وألوانا  
من ملوك بيت التمثيل تنشد :

«إن لم أصن بمهندى ويمينى

ملکي فلست إذن صلاح الدين »  
قيل « الخير على قدوم الواردين ». وقد تحقق هذا  
القول المأثور بعد أن استقبل صاحب السمو جماعتنا . فلم  
يمض على مغادرتنا جزيرته الكبرى عام أو بعض عام حتى

كانت سفينه شراعية تحمله إلى المنفي وقد تنازل عن سلطنته  
مكرها . ولو كانت الآلهة القديمة اختارتنى بوقا لنبوتها  
لرأيت في اهتزاز عمامة سموه يوم استقبالنا ، وحرصه على  
توطيد دعائهما بيديه ، نذيرأ بطيرانها يوما عن رأسه . ولكنني  
اتفاقت مع قومنا الاسكتلندي على أن قلق السلطان على  
عمامته كان بسبب ضيق مقاسها وأنه كان أولى بنمرة أعلى .

لا شك أنني أستبق الحوادث حين أتكلم عن عمامة هذا  
السلطان المسكين ، كما أستبق الحوادث إذا قلت بأنني مساء  
يوم الاستقبال تبعني في معابر الجزيرة رجل حاف القدمين  
نصف عار وقال لي بلغة إنجلزية عسيرة «رأيتم اليوم وأتم  
صاعدون لمقابلة سمو السلطان » ، وحين سأله عن نفسه أجابني  
بما استطعت أن أفهم منه أنه سكرتير عام الحكومة . فاتهertzها  
فرصة أستطلع أخبار هذه الدولة الليليپوتية بعد أن تشرفت  
بمقابلة سلطانها في ذلك الصباح ، وتعرفت إلى وزرائها في اليوم  
السابق . وسألته عن عدد موظفي رئاسة الوزراء والوزارات  
الأخرى فكانت إجابته غير المتضرة «إيت » . فسألته دهشًا  
«ثمانية أم ثمانون ؟ » وأصر على قوله «إيت سير » .  
ولكنني أتبع سياق الحوادث إذا ذكرت مقابلتي في شارع

العاصمة الوحيد لرئيس الحكومة ووزير الحرية يتزلج عن دراجته فيطير شيشيه وهو يسعى إلى مسلماً . يأتزز بشكير على غرار ياع العرقسوس والحمامى عندنا ، وتغطى نصفه الأعلى چاكتة عسكرية ، وعلى رأسه « قلب » رمادى أماله على وجهه الأمير الوسيم ، ويختطفنى بلغة إنجليزية سليمة تقرب هى وصغر سنها الشبه يذنه وبين طالب نجيب حصل حدثاً على بكالوريوس فى آداب اللغة الإنجليزية ، ثم يقدمى إلى أخيه وزير الخارجية والتجارة فيحدثنى بلغة فرنسية رائقة عن مدرسة العلوم السياسية بباريس ومدرسة الاقتصاديات بلوندرة ، وأوپراه كرول » بيرلين وصالة « پليل » بباريس . عجب عجب منظر هذه الوزارة الشابه تسعى في شارع العاصمه الوحيد بمازراها وشباشبها ودراجاتها . وأعجب منه حين يطلعونك على معرقهم بالعواصم الكبرى وما بهما من موسيقات سمفونية ومتاحف . وعلى ما قاموا به من إصلاحات في جزرهم ، ينشئون فيها الكتاتيب بإشراف بعض الأهلين من تلقوا علومهم بالأزهر . ويشقون الطرقات الواسعة المظللة . ويغيرون سقوف المنازل من قش النارجيل إلى الصاج المقوس ، مضحين بمظهر الجمال الريف الأصيل في

سبيل النظافة العامة والطمأنينة من الحريق. ويترجمون كتب  
الملاحة البريطانية إلى لغتهم ليواصلوا تخريج مهرة الملاحين  
على أحدث قواعد الفن مما يساعدهم على الاحتفاظ بتقاليدهم  
البحرية القديمة التي جعلتهم في طليعة رواد البحار.

أما السلطان فقد بقى تحفه قديمه يعيش على هامش هذا  
الاجتهد العصرى . دخلنا قصره عابرين مرات وغرفاً ودهاليز  
كل زيتها الترس واليقطجان وبعض الطنافس الفارسية إلى  
جانب حصير من ليف النار جيل المجدول ، حتى بلغنا قاعة  
الاستقبال الكبرى فإذا بنا في شبه «أودة المسافرين»  
لموظف من صغار الموظفين . في ركن منها ييانو (كذا)  
وفونوغراف (كذا) من ذوات البوق .

وجلسـت جـماعـتـا وـكـلـهـمـ مـاعـدـاـيـ مـختـالـ بـيـزـةـ عـسـكـرـيـةـ  
بـحـرـيـةـ يـيـضـاءـ مـشـغـولـةـ بـشـرـانـطـ القـصـبـ وـمـشـرقـةـ بـالـأـزـرـارـ  
الـبـرـاقـةـ وـالـنـجـومـ وـالـتـيـجـانـ الـذـهـبـيـةـ ، يـسـجـبـونـ سـيـوـفـاـ تـلـمعـ  
كـبـارـقـ ثـغـرـ عـبـلـةـ الـمـبـسـمـ . أـمـاـ رـئـيـسـنـاـ فـقـدـ وـضـعـ فـوـقـ رـأـسـهـ  
قـبـعـةـ يـيـضـاءـ عـرـيـضـةـ الـأـطـرـافـ ، تـعلـوـهـاـ قـطـعـةـ مـعـدـنـيـةـ مـدـيـةـ  
الـطـرـفـ كـالـسـهـمـ ، اـتـفـقـنـاـ جـيـعـاـ وـوـافـقـنـاـ صـاحـبـهاـ عـلـىـ أـنـهـاـ  
تـؤـدـيـ فـيـ جـسـدـهـ عـمـلـ مـانـعـ الصـوـاعـقـ فـيـ رـأـسـ أـبـرـاجـ

الكنائس . أما أنا فكنت بينهم في سترى البنية لوحتها  
الشمس ، والطربوش الذى استعرتة من السفر جى على حمد ،  
كفار الميضة تاه فى مصنع كسب وخرج منه فى لون العسل  
والطحينة .

جلستنا فى قاعة العرش أو أودة المسافرين حول كرسى  
يمتاز عن كراسينا بكثرة التذهيب وبنصبة ارتفع بها عن دنيانا  
الوضيعة . وكانت أنظارنا متوجهة إلى باب غير الباب الذى  
دخلنا منه ، أسدلت عليه ستارة حمراء من الباستا ، كثرا خلفها  
الهمس واللمس ، والغمز واللمز ، ذكرتى بالستارة التي  
تسدل على باب تياترو الأراجوز أو ما إليه « قبل ما يلعب » .  
ثم رفع الستار ودخل رئيس التشريفات معلنا :  
سمو السلطان !

ودخل علينا رجل أسمه زائف العينين يتعرى فى فرجية  
موشأة ذات أهداب وأذياں طويلة يحملها خلفه واحد من  
الحشم .

وما إن حيانا السلطان وارتقى فوق منصته ، وينينا نحن  
في انتظار إشارته إلينا بالجلوس ، حتى رأيناه يرفع يديه إلى  
عمامة هائلة رجراجة كأنها فوق بحر لجي ، تعلوها مأدنة ذهبية

تنتهي بما يشبه جذع شجرة موز شذبت أفرعها ، أو فجلة مقلوبة قام مزين بقصقصة أوراقها . وأدت حركة السلطان إلى توطيد العامة فوق رأس سموه ... ولو إلى حين . فقد كانت هذه العامة المركبة تركيا مزجيا مصدر قلق سلطان طول المقابلة . وكانت يداه في حركة مستمرة نحو رأسه ، كما يفعل مانولي بقعته حين يخشى أن تطير بها الشمال لتهوى بها تحت عجلات ترام أو أوتوبيوس لا يترافق بالخشب والحديد به الخوص .

جلس السلطان على أريكته وأشار علينا بالجلوس ، فجلسنا ونحن نلاحظ شعره الفاحم اللامع يتدلّى من عمامته طويلا كشعر الأرست ، وتنفس في وجهه وهو يدير فينا عيونا باسمة تشف عن طبع دمث . وقد أدركت لأول وهلة أني أمّا رجل حالم ينظر إلى العالم من وراء خيالاته . ويخلو إلى شياطين هو ياته الفنيه ، يقرض الشعر أو يسمع الموسيقى في أوقات الفراغ الطويله التي تتركها له مهام السلطنة . عندئذ فهمت سر وجود البيانو والفنونغراف في غرفة التشريفه الكبيرى .

وبعد أن أجالفينا بصره المتعدد الماير و كان الحياة ألم

لسانه ، رفع يديه إلى عمamaته ثم نطق بجملة واحدة قصيرة بلغته المحمولة التي كان رنينها في أذني كايلى :  
— منم منم منم .

وقام السكرتير الخاص بأعمال الترجمة في أمانة واضحة إذ نطق بانجليزية فصحى :

— إن حضرة صاحب السمو السلطان يود أن يعبر لكم عما يخالج نفس سموه من سرور باستقبالكم في مملكته ، ويتمنى لكم النجاح في مهمتكم الخطيرة ، ويدعو الله أن يبارك لكم فيها .

فأجاب رئيسنا :

— قل لسموه إننا نشكرون على تفضله بالسماح لنا بالعمل في مياهه ، وباعتارتنا سفينة شراعية برجاتها ليشتعل عليها فريق هنا .

السكرتير الخاص : منم منم منم (بقدر)  
السلطان : منم منم منم بروفسور ... منم منم كامبردج  
منم منم .

السكرتير الخاص : إن سمو السلطان يذكر بالخير  
البروفسور... الذي كتب من له كامبردج يوصى سموه بكم خيرا .

رئيسنا : ( قال كلاماً كثيراً )  
السكرتير الخاص : منم منم منم ( ثلاث مرات لارابع لها )  
السلطان : منم .

السكرتير الخاص : حضرة صاحب السمو السلطان يكرر  
لكم أحسن تمنياته ويدعوا الله أن يبارككم . وسموه على استعداد  
لت تقديم كل المساعدات التي تطلبونها .

ثم انقضت فترة هدوء قطعوا علينا قلق السلطان الدائم  
على عمامته ، فرفع يديه إلى أعلى إيقافاً لها عما لا تحمد عقباه .  
وبعد حديث عن الأزهر وفضله على العالم الإسلامي وعن  
بعض أفراد الرعية يتلقون العلم على حساب السلطان ، شعرت  
كأن سموه سُئِّلَ مهام الدولة وهذا الحديث الرسمي المتصنع .  
فقد تعلم بما معناه أنه سمع عن المصريين أنهم موسيقيون  
بارعون . وأطرقـت برأسـي متسائلاً عـما إذا كان سموه قد  
حسبـنا تـحتـا مـتنـقـلاـ . ولكن القـوـمنـدانـ وهوـأـسـكتـلنـدـىـ لاـيـعـرـفـ  
المـزـاحـ أـجـابـ عـنـنـاـ نـحـنـ الـمـصـرـيـنـ :

— الدكتور فوزي موسيقى

السلطان : ( يخاطبني ) منم منم منم ( وأشار إلى البيانو )  
أنا ( للسكرتير ) : أخبر سموه أنه لا دراية لي بالعزف

على البيـانو ( ولو أطعـت نفـيـ الأـمـارـة لـأـضـفتـ ، وإنـما  
أـجـيدـ العـزـفـ عـلـىـ الفـونـوـغـرافـ ) .

كـلاـ ! يـقـيـنـاـ إـنـ سـمـوـهـ مـصـرـ عـلـىـ اـعـتـبـارـ نـاـ جـوـقةـ مـنـ الـمـهـرجـينـ  
فـقـدـ سـأـلـ عـنـ نـوـعـ العـزـفـ الذـىـ أـمـارـسـهـ . وـتـولـىـ عـنـ  
الـاسـكـتـلنـدـىـ الـمـلـعـونـ القـوـلـ بـأـنـهـ عـزـفـ الـكـمـنـجـةـ . وـحـمـدـتـ اللهـ  
وـأـثـيـتـ عـلـيـهـ أـلـاـ تـوـجـدـ عـلـىـ حـيـطـانـ الـمـرـاتـ وـالـدـهـالـيـزـ غـيرـ  
الـتـرـوـسـ وـالـيـطـجـانـاتـ ، وـفـيـ «ـأـوـدـةـ الـمـسـافـرـينـ»ـ غـيرـ يـانـوـ  
وـفـونـوـغـرافـ .

وـىـ ! لـقـدـ تـمـمـ السـلـطـانـ وـاهـتـزـتـ سـتـارـةـ الـأـرـاجـوزـ ،  
وـدـخـلـ الخـدـمـ وـخـرـجـواـ ، وـلـبـثـنـاـ بـضـعـ ثـوـانـ كـانـ دـهـورـاـ ،  
أـوـ لـمـ أـسـمـعـ السـلـطـانـ يـقـولـ «ـمـنـ مـنـ سـارـوـنـجـيـ مـنـ مـنـ»ـ ،  
وـالـسـارـوـنـجـيـ أـلـيـسـ هـوـ الـكـمـنـجـةـ ؟

وـرـفـعـتـ الـسـتـارـةـ الـبـاتـسـتاـ الـحـمـراءـ وـدـخـلـ رـئـيـسـ التـشـريـفاتـ  
يـحـمـلـ . . . اللـهـمـ اـرـأـفـ بـعـبـادـكـ الـمـوـسـيـقـيـنـ وـلـاـ تـوـقـعـهـمـ فـيـهاـ  
أـوـقـعـنـيـ فـيـهـ الـقـوـمـدـانـ الـاسـكـتـلنـدـىـ !

كـانـ رـئـيـسـ التـشـريـفاتـ يـحـمـلـ نـفـيـراـ فـضـيـاـ كـنـفـيرـ  
الـسـاـكـسـوـفـونـ ، وـمـبـتـاـ فـيـ هـيـكـلـ كـمـنـجـةـ . أـجـلـ ، كـانـ يـحـمـلـ تـلـكـ  
الـآـلـةـ الـبـزـرـمـيـطـ الـتـىـ اـخـرـعـهـ أـهـلـ الـچـازـبـانـدـ فـيـ أـمـرـيـكاـ

فاستعاضا عن صندوق الرنين الخشبي في الكمنجة بهذا النفير الساكسوفوني . كيف أفسر للسلطان « منم منم » بأن هذه ليست كمنجة وقد شدت عليها أو تار الكمنجة الأربع ؟ وركبت لها حالة الدفن كما في الكمنجة ؟ وسلبني رئيس التشريفات قوسا غير الشرع مهضوط الشدة . ولكن كيف أوقع على أداء لم أحملها على كتفي يوما ولم أسمع صوتها ؟

أخذت هذا المسلح الموسيقي ، هذا النص سمكة والنصل بني آدم ، وطفقت أصلاح أو تاره وقد تصيب العرق على جبيني خجلا وحيرة . ثم وضعته على كتفى وبدأت أمر بالقوس حذرا لا عرف نوع الصوت الذى سوف يخرج . فهن يدرى ربما خرجت من هذه الآلة أصوات الصفير والتزمير ، وقرقة شخصيات وصاجات وجلاجل ؟ هؤلاء الأمريكان ، أليسوا قد يرين أن يجعلو امن هذه الكمنجة چاز باند بأكمله ؟ فواأسفاه على حياة قضيتها أتهجى سوناتات بهوفن وموزار特 وهندل وشومان تنتهى بأن أشتغل چاز باند أمام حضرة صاحب السمو سلطان . . . ملك البر والبحر والأربعة  
آلاف جزيرة !

لم يكن كل هذا ، ولكن الصوت كان غريبا على أذنى ، فهو

كمجة ما فيش كلام ، ولكنها كمنجة أصيل بتضخم في اللوزتين  
فكانت تنعر نعيرا بدل أن تغنى ، والأمر لله !

أجريت القوس يمد مرتعشة كما يبعث الطفل بالآلة  
موسيقية . فخرج النعير مذبوحا مسلوخا ، وتحول حفيقا  
وأزيزاً وشحيراً ونفيراً ، وضرب الفارابي لحننا فناموا ،  
وضرب لحننا فقاموا وصلوا وصاموا . أما أنا فقد وقعت لحننا  
وكدت أقع من الخجل والارتباك .  
أنا (للسكر تير مستجدا) : أرجو الاعتذار لسموه فلست  
مستريحا إلى هذه ... الكمنجة .

السلطان : منم منم .

السكر تير الخاص : لقد لاحظ سموه ذلك .

وخرجنا من الحضرة السلطانية لنعود من تلك الدهاليز  
والمعابر والمرات التي تشبه سكة أبو زيد ، حتى وصلنا إلى  
باب السرای وإذا برئيسنا الانجليزى يقهقه ضاحكا ،  
ويقول لي :

— يجب أن تطبع على كارت مند الآن يفوزى « والموسيقى  
الخاص بسمو سلطان ... »

— لقد ظفرت اليوم بخبر من أظرف الأخبار أكتبه

للبروفسور....

؟ —

— «أثناء التشرية طلب السلطان... كمنجة ليو قع عليها  
الدكتور فوزى الحاناً مصرية. فجئه له بمولود عجيب نجع  
من زواج كمنجة بساكسوفون !»

ولم يكذب رئيسنا خبراً . فقد سمعته قبيل منتصف الليل  
يوقع على الآلة الكاتبة رسالته المعتادة إلى البروفسور . و كنت  
مددأً على سريري أستسلم للنوم و صوت الآلة الكاتبة يقرع  
في قمرة الرئيس المجاورة لقمرتي ، و يختلط في رأسي بأصوات  
تمتم « منم منم منم » هكذا :

« تك تك تك ... تك ... تك ... تك تك ... زى ...  
... منم منم ... تك تك تك ... منم تك ... تك  
... زى ... »

وفي تلك اللحظة السعيدة بين النوم واليقظة ، حين  
يغفو عقلنا ويصحو خيالنا ليمرح طليقاً في أجواء الأحلام ،  
خلت الآلة الكاتبة تقول في بيان انجلزي فتصبح :

— تك تك تك ... تك ... تك ... وقد أنعم

عليه السلطان بلقب الموسيقى الخاص بسموه ، زىء .  
حين وقع على آلة موسيقية عجيبة ، تقول للساكسوفون  
يا أبي ، وللكمنجة يا أمى ... تك تك تك ... تك تك  
زىء ...

---

# حكاية المزوف

الذى أفلت من حرم ابرة

لم تكد الباخرة... تغادر سعابر عدن إلى عرض البحر  
في رحلتها الثانية حتى توقفت غرفة التبريد عن العمل . وفسد  
كل ما على السفينة من زاد طازج . فألقينا إلى البحر بما يساوى  
خمسين جنيها من الأغذية طعاما سائعا للقروش الجائعة . ومع  
ذلك لم يفكّر أولو الأمر بالعودة إلى الميناء . وللإنجليز في  
أمثال هذه الحن طابع خاص هو أحد عناصر القوة في هذا  
الشعب الغريب . ولقد عجبت في أول دخولنا البحر الأحمر  
من أن أرى رئيسنا وزملاءنا منهم سريعا القلق ، كثيرى  
التبرم ، حفازين إلى نقد رجالنا ، خلاقين من الحبة قبة .  
فأظهرت واحدا منهم على ما بنفسى من الدهشة لسلوكهم هذا  
وأنا أعرف من الانجليز رباطة الجأش وضبط النفس ، قال

لـ : إننا في بدء الرحلة وليس في كل ما لاقينا أمر جلل . فلا  
تكن سريع العتب علينا في هذه الخطوات الأولى وخلال  
الأحداث التافهة . إنما تعرف الانجليز في الملامات ، إذا  
ما حزب الأمر وتواتت الشدائـد .

ولست على يقين من تقدير زميلي البريطاني لفقد زادنا  
الطاраж أعدادناه لرحلة يطول أمدها في عرض البحر إلى ثلاثة  
والأربعة أسابيع ، أي عده إحدى المهمات ، أم هو أمر تافه ؟ .  
كل ما أعرفه أن رئيسنا لم يفكر بالعودة إلى الميناء  
لاصلاح غرفة التبريد وإعداد أغذية جديدة ، بل كان الأمر  
أن نواصل سيرنا تبعاً للبرنامج المرسوم ... والفعل أن  
نجلس حول الخرائط نوقع مواضع محطاتنا العلمية فيما بين  
الشاطئ الأفريقي والشاطئ الآسيوي خليج عدن والبحر  
العربي ، وأن يصدر القومندان أوامره إلى السفرجي الأول ،  
يلخرج «التعيينات الناشفة» ، واعلب المحفوظة من مخازنها .  
والبركة في «البولييف» و«الكارب» ، واعلب التونة والسردين ،  
وأكياس الدقيق وأفراد الرز وحزمات المكرونة ، وهراديم  
الجبنة الشستر . نعود إلى عدن وتتأخر عن البرنامج وعندهنا  
كل هذا مع الماء والملح واللفلف ؟ كلا وألف مرّة كلا !

حقاً إنه لشظف من العيش أن تبلغ كل يوم بالأرز والكاري والجبن واللحوم المحفوظة ، زهاء عشرين أو خمسة وعشرين يوماً . ويقيناً إنه لبلاء أن نشرب الماء دافئاً في جو من أشد أجواء العالم حرارة ، مع ما للماء من مذاق مقرف اكتسبه في خزانات السفينة . ولكتنا لم نركب هذا المركب في نزهة بحرية ، بل كتب علينا الجهاد و « سوف تعرف الانجليز في الملبات إذا حزب الأمر و توالت الشدائد » .  
ولقد عرقهم أول المتبرمين بالتجذية السيئة والماء الساخن الآسن . ولكتهم رجال الشعب المجيد القوى ، كيف ثنى عزماتهم سفاسف الأمور ؟ وهذا الرئيس ينادي « إلى المحطة رقم ٥٣ يا أولادي ، أعد الشبكة « أجاسي » يام . أصدر الأمر باخراج جرافة « أوتار » يا فوزى ، ركب محاليلك يات ..  
ولكن فوزى موحوس أكبر وحسة مع باشمهندس السفينة . فهذا الشاب اللوندرى الرقيق الوسيم ، الذى تنتهي آماله إلى عمل ثابت على الأرض اليابسة ، ومنزل ريفي بضواحي لندرة ، وزوجة تعنى بالهوم ، يتحمل مسؤولية كبرى أمام القومدان الأسكنلندي الحاد الطباع . وهو المتكفل بآلات غرفة التبريد ، وقد حاول جهده إصلاحها

ونحن مرابطون في عدن . فأصلحها أو ظن أنه أصلحها فخاب  
ظنه قبيل الرحيل . وخرجنا إلى عرض البحر في ميعادنا  
والباشمندس ملبوخ بين آلات التبريد وصنایير غاز كلورور  
الميتييل الذي يمدها بالبرودة . وقد بلغ من إخلاصه لواجبه  
أن عرض نفسه لتأثير هذا الغاز المخدر حتى تشبعت به  
أنسجته وأجهزته . وهو اليوم صريح على ظهر السفينة عند  
مؤخرتها لا ينفع فيه دواء ، وعلاجه الراحة والتهوية  
والسوائل والمسهلات التي تساعد جسده على التخلص من  
غاز كلورور الميتييل . وإذا لم يكن الهواء نادراً في عرض  
البحر ، ولا المسهلات نادرة في الأجزاء الخانة ، فقد خلت السفينة  
من مأوى يستريح فيه المريض المبنج .

كان واجي الأول كطبيب السفينة أن أشير بالعودة إلى  
الميناء لنقل مريضي إلى المستشفى ، حيث يبقى بضعة أيام تحت  
عناية الممرضات أكثر من تطبيب الأطباء . ولكن رئيسنا  
طبيب أيضا ، يقع لعينيه ما يقع لعيني ، فلماذا لا يشير هو  
بالعودة ويده الأمر ؟ إنه إنجليزي وسوف تعرف الانجليز  
في اللمات إذا حرب الأمر وتوالت الشدائـد . فعلـم ما يـدوـ  
لعينـي كـشـدة وـمـلـمة لـم يـدـ كذلك لـعينـي ، أـفـاذـبـ وأـشـيرـ

بالعودة ليحسب على ذلك ضعفا واستسلاما للنافه من الأمور؟  
فلنحاول علاج الرجل بما في استطاعتنا .

ولكنه ينحدر منا سريعا إلى غفوة قد لا يفيق منها ولا  
تجدى وسائلنا في إيقاظه . لذا عولت أن أتحمل مسؤولية  
عودة السفينة والتأخر عن البرنامج ، فإن واجبي الانساني  
يتقدم واجبي العلمي .

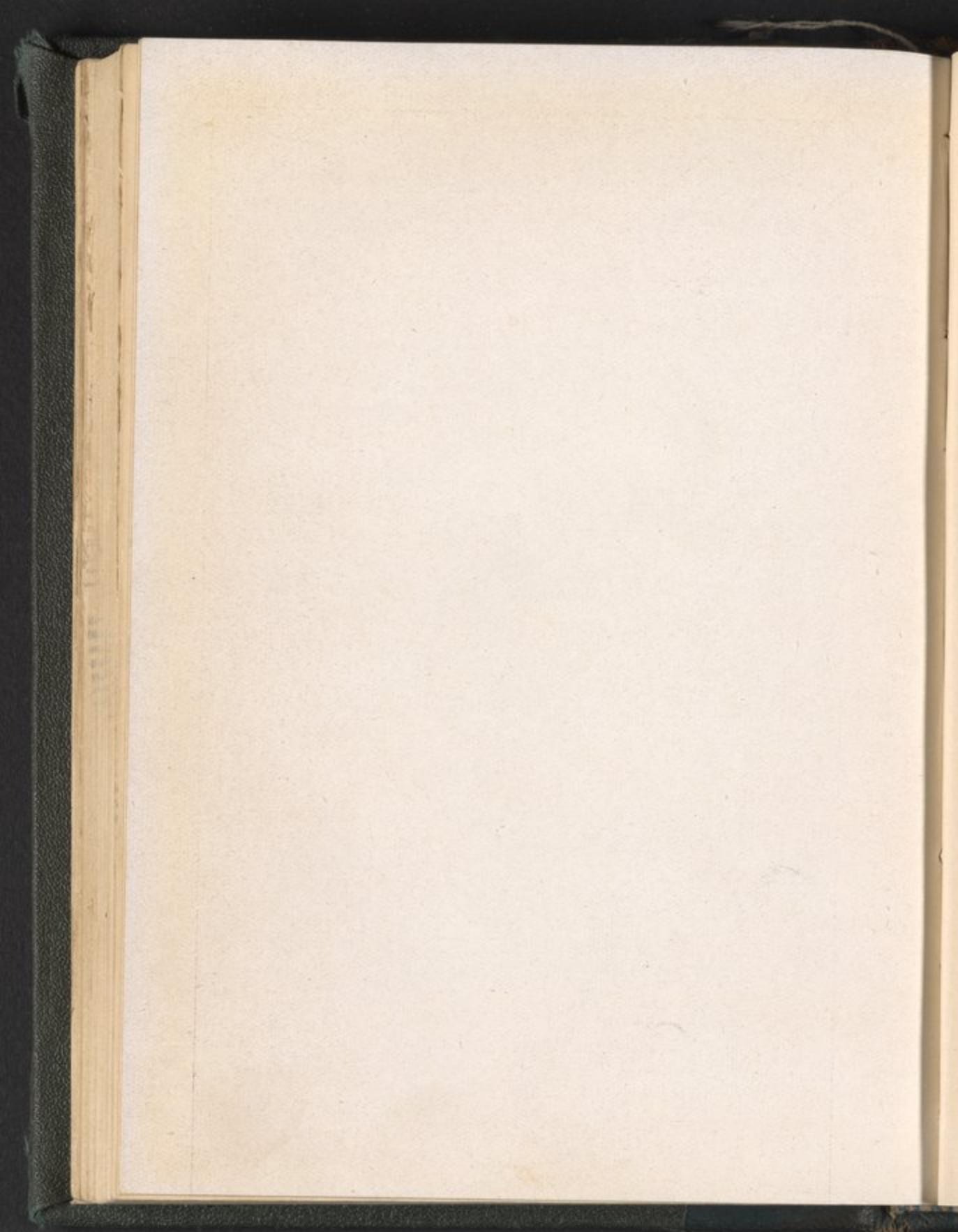
ذهبت إلى القومندان وأشارت عليه بالعودة ، فجمعنى  
ورئيس البعثة . ومع أنني على يقين من أن ما أشير به هو  
ما يريد الجميع على ظهر الباحرة إن لم يكن لعلاج الباشمهندس  
فللتخلص من الأرز والكارى ولبخات البولييف ، فان جنتنا  
الثلاثية لم تقرر العودة إلا بعد أن استوثقت مني « بصفتي  
المسؤول مباشرة في هذه الحالة » بأن ما أشير به هو السبيل  
الوحيد لإنقاذ حياة الرجل .

وحولت السفينة اتجاهها نحو عدن والكل فرح بهذا  
الحل ، ولو أن الكل يخفى شعوره تحت ظاهر من الجد ، وكأننا  
نقول « إنما نعود لنقل المريض إلى المستشفى » . وإذا كانت  
هذه هي الحقيقة فإنها لم تكن كل الحقيقة . والشهيد على ما أقول  
علب البولييف والأرز والكارى في الصباح كا في المساء .

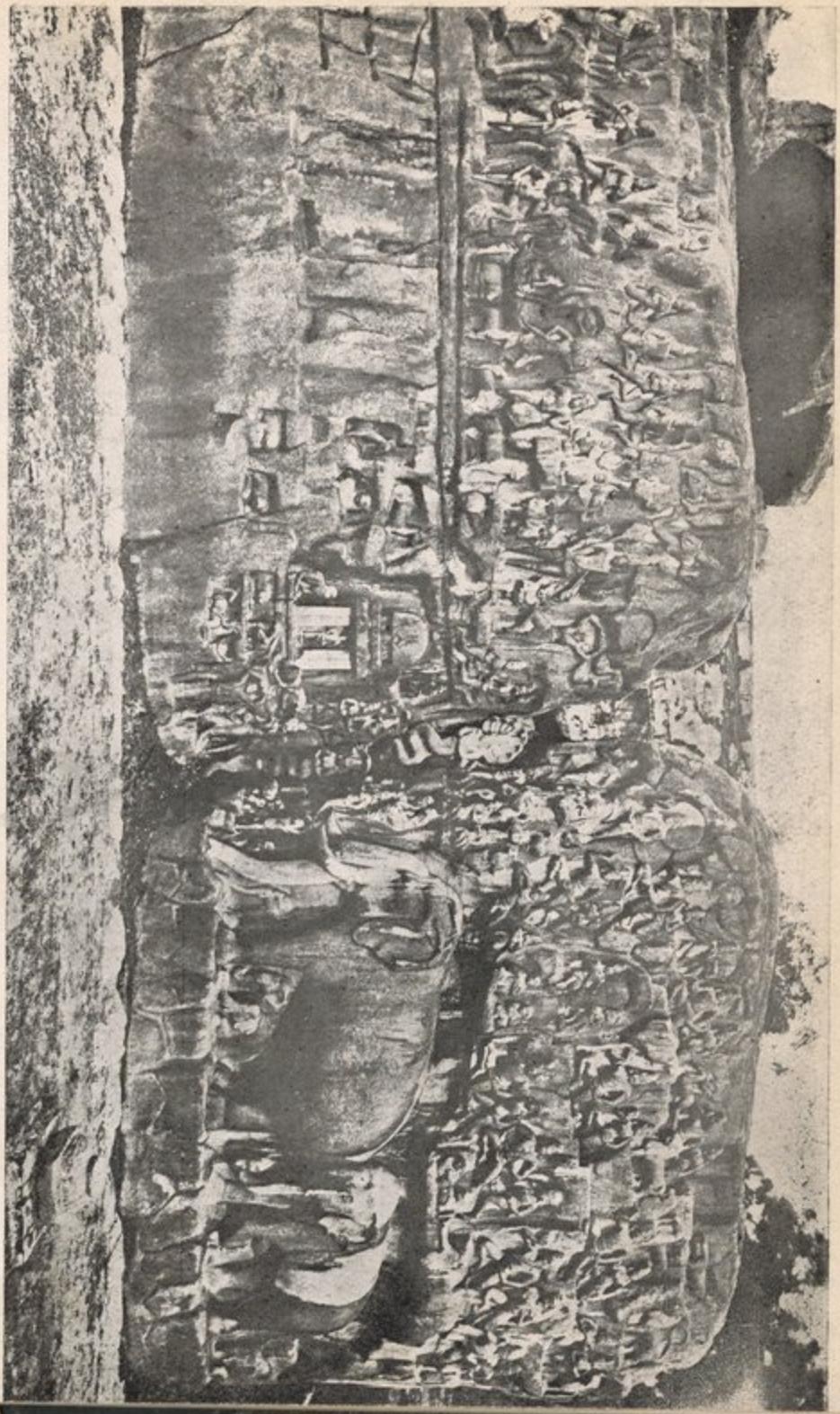
وبعد أيام قلائل عاد إلينا مريضنا في دور النقاوه  
وخرجنا إلى البحر دون أن تتمكن من إصلاح الثلاجة .  
ولكانتنا في هذه المرة استضفنا أزواجا من الدجاج اليمني  
تاككي في أقفاصها ، وقطيعا من غنم ببر شغى وتمامىء في  
زريمة أقامها النجار لنا إلى جانب من مقدمة السفينة .

وكان السفرجي يذبح من الخراف واحدا كل يومين  
فيكاد يكفى إطعام الأربعين فما . ولست أنسى خراف ببر  
في زريتها البحريه المرتجلة ، ولا منظر السفرجي الأول  
وهو يعلفها . إنما كنت أتجنب منظر ذبحها ما استطعت .  
ولست أنسى تبرم البحارة بلحهم اليابس وقلة ما يصيدهم  
منه يوميا ، وشكواهم إلى ساعة الغذاه وهم يمرون في حاملين  
صحافهم الألومنيوم تسحب فيها بضع قطع من البطاطس  
يتصدرون لي من بينها بعد عناء قطعة من العظم علقت بها  
فتائل من لحم كأنه نثارة الخيش .

يالروح المزاح عند بحارتنا ! فقد استطاعوا بهذه الروح  
أن يتساموا فوق المحن . ولقد شهد لهم بهذا رجال البعثة ،  
ورددت الصحافة البريطانية شهادتهم . ذكر البحارة حكاية  
المطعم البلدى ، والزبون الذى عثر على « نحلة لعب » في طبق



صخرة د ملها بال پورام ، — جنوب الهند ( انظر صفحه ٧٨ )



« المبرومة » فنادى على صاحب المطعم بين حلله . « يا أسطى  
هات واحد قطان ». فكانت كلتهم السائرة طول هذه الرحلة  
وهم يحملون صحافتهم وبها كلاكيع العظام الآنفة الذكر  
« يا أسطى هات واحد قطان ! »

وذات يوم أحد — وكان يوم التفتيش الأسبوعي —  
نفح البروجى فى صوره نوبة الاستعداد للتفتيش . ولبسـت  
چاكتـى الـبـحـرـية وقلنسـوى لأـصـطـحـبـ القـوـمنـدانـ أـثـنـاءـ دـورـتهـ  
كـالـعـادـةـ . وـمـرـنـاـ بـالـزـرـيـةـ نـسـأـلـ عـنـ صـحـةـ سـلـامـةـ ضـيـوفـهاـ  
الـعـجـافـ ذـوـيـ الـأـنـوـفـ السـامـيـةـ المـعـقـوـفـةـ . وـالـقـوـمنـدانـ رـجـلـ  
دـقـيقـ الحـسـابـ وـقـدـ ضـرـبـ أـخـمـاسـهـ فـيـ أـسـدـاسـهـ فـلـاحـظـ أـنـ  
خـرـوفـاـ مـنـهـاـ قـدـ نـقـصـ . فـأـجـابـهـ المـوـكـلـ بـالـزـرـيـةـ «ـ الـخـرـوفـ  
وـقـعـ فـيـ الـبـحـرـ » . وـدـرـتـ يـصـرـىـ أـلـمـسـ المـوـضـعـ الذـىـ يـمـكـنـ  
لـلـخـرـوفـ أـنـ يـفـوتـ مـنـهـ فـلـمـ أـهـتـدـ إـلـيـهـ ، وـقـلـتـ فـيـ نـفـسـ دـوـنـ  
اقـتـاعـ «ـ رـبـماـ ! وـمـاـ دـامـ المـوـكـلـ بـالـزـرـيـةـ يـقـولـ بـهـذـاـ فـلـاـ مـفـرـ  
مـنـ آـنـ يـكـونـ الـخـرـوفـ قـدـ وـقـعـ فـيـ الـبـحـرـ بـطـرـيـقـةـ مـجـهـوـلـةـ لـىـ .  
مـاـ شـانـىـ وـذـلـكـ ؟ فـلـيـحـقـقـ الـقـوـمنـدانـ إـذـاـ رـاقـ لـهـ التـحـقـيقـ » .  
وـلـكـنـىـ أـعـدـتـ النـظـرـ إـلـىـ الـخـرـافـ الـبـاقـيـةـ وـإـلـىـ الـفـرـجـاتـ بـيـنـ  
تـخـشـيـةـ الـزـرـيـةـ وـدـرـابـزـونـ السـفـيـنـةـ ثـمـ ضـحـكـتـ فـيـ سـرـيرـتـىـ

وأنا أقول « لا كتبن يوماً حكاية الخروف الذى أفلت من  
خرم إبرة » .

ولم يعر القومدان الأمر اهتماماً، فكل ما يهمه من أمر  
هذه الخراف أن تكفيانا حتى نصل إلى المينا ، وهى كافية  
فلا خوف علينا ولا نحن حزينون .

ولكنى ذهبت أقصى الأمر سراً ، معتمداً على ثقة  
البحارة بي ، فلم أوفق إلى الاهتداء . وذهبت أسأل «الكنجي»  
أى المهندس الثاني ، وهو رجل اسكندرانى بارع النكتة ،  
حسن السمر ، محب للغناء والطرب . له طريقة في الاحتجاج  
على ما لا يرضيه كانت كفيلة بان ترفه عنا تعب أيام . وحفاً  
إن خير الكلام وأفضل أنواع الاحتجاج ما قل ودل ..  
واحتجاج الكنجي كان شخرة اسكندرانية هائلة ، يشهد المحيط  
الهندى بأنها كانت الأولى من أنواع الأصوات الآدمية تدوى  
بأصدائها مياهه .رأيته ذات مساء جالساً عند مؤخرة السفينة  
وقد أولى الجميع ظهره ، وسرح بصره في الأفق . وكان ذلك  
عقب مشاجنة له مع أحد الضباط جاء يشكو إليه انطفاء بعض  
أنوار الملاحة ، فلما أن قابل شكوكه بالشخر اللازム ، وقام  
يصلاح الأنوار ، عاد إليه الضابط ينهره ، فولاه ظهره ..

، ومررت به في تلك اللحظة فجعل يتكلّم كالمخاطب نفسه  
، «أنوار الملاحة» (شخّرة) . إحنا فين هنا ، إحنا في وسط البحر  
يا عالم ، في وسط المحيط الهندي . هيء هيء يا أنوار الملاحة ،  
ما تقولش احنا راكبين أوتوموبيل في شارع الكورنيش  
، (شخّرة) ..

هذا الكنجي يأنس إليه البحارة . يوافيته من في «الراحة»  
منهم إلى مجلسه المختار كل صباح عقب وردّيته الليلية . و محله  
المختار هو باب الوجاق (المطبخ) من ناحية «السقالة» ،  
حيث يبدأ حديثه مع الطباخ والسفرجي الأول بالسؤال عما  
يعدونه للغذاء في ذلك اليوم ، ويتحرق شوقاً إلى الملوخية  
والبامية والفول المدمس ، ويستخط على الدنيا وما فيها لأن  
نظام الطهى والإكل على السفينة نظام انجليزي تلعب فيه  
أكواام البطاطس وهراديم اللحم المسلوق دوراً كبيراً .

التجأت إليه لعل أجد عنده الخبر اليقين عن الخروف  
المسكين ، الذي قيل بأنه مات غرقاً . ولكن الكنجي ضحك  
لقولي «إن الخروف لا بد أفلت من خرم إبرة» ولم يزد .  
إلى أن عدنا إلى مصر ورجوته أن يكشف لي عن الحقيقة  
، لطمئن نفسي ، وهذا ملخص حكايته :

ضاقت نفوس البحارة — ومعداتهم — ذرعاً بقلة تعينهم  
من اللحم ، وتواطأوا فيما بينهم على اختطاف خروف تحت  
جنهن الظلام دون أن يعلم بأمرهم رئيس السفر جية الذى ينام  
ملء جفونه طول الليل . وتكلف « الواد ... » بذبح الخروف  
وتوصيه: « أصل الواد الـ ... جزار ابن جزارين » . وتقاسم  
البحارة خروف برب المذبوح تحت جنهن الظلام . ولعلهم  
بأمانة الكنجى على سرهم أرسلوا يعرضون عليه « الكبدة  
والكلاؤى » .

وفي رأى أن الدافع على المؤامرة لم يكن الجوع وحده  
بل روح الشيطنة أيضاً . فالبحارة كما قلت في موضع آخر  
أولاد عفاريت . وفي تواطئهم ليلاً على حياة خروف « فصل »  
لم يكسّبهم قسطاً إضافياً من اللحم فحسب ، بل أدخل على  
نفوسهم المرحة سروراً صياناً ربما كانوا يتحدثون بأمره  
إلى اليوم .

هذا ما كان من أمر رحلة حافلة بالحوادث ، مليئة بالمشاكل ،  
نتيجة وقوف آلات التبريد عن عملها .

وما كان من أمر الخروف الذى أفلت من خرم إبرة ..

II

## صَوْر

فِينُوسٌ مِنَ الْأُبْنُوس

ابنة النجاح

ماهابالي بورام

المدرسة المدروفة

شجرة البورى المقدسة

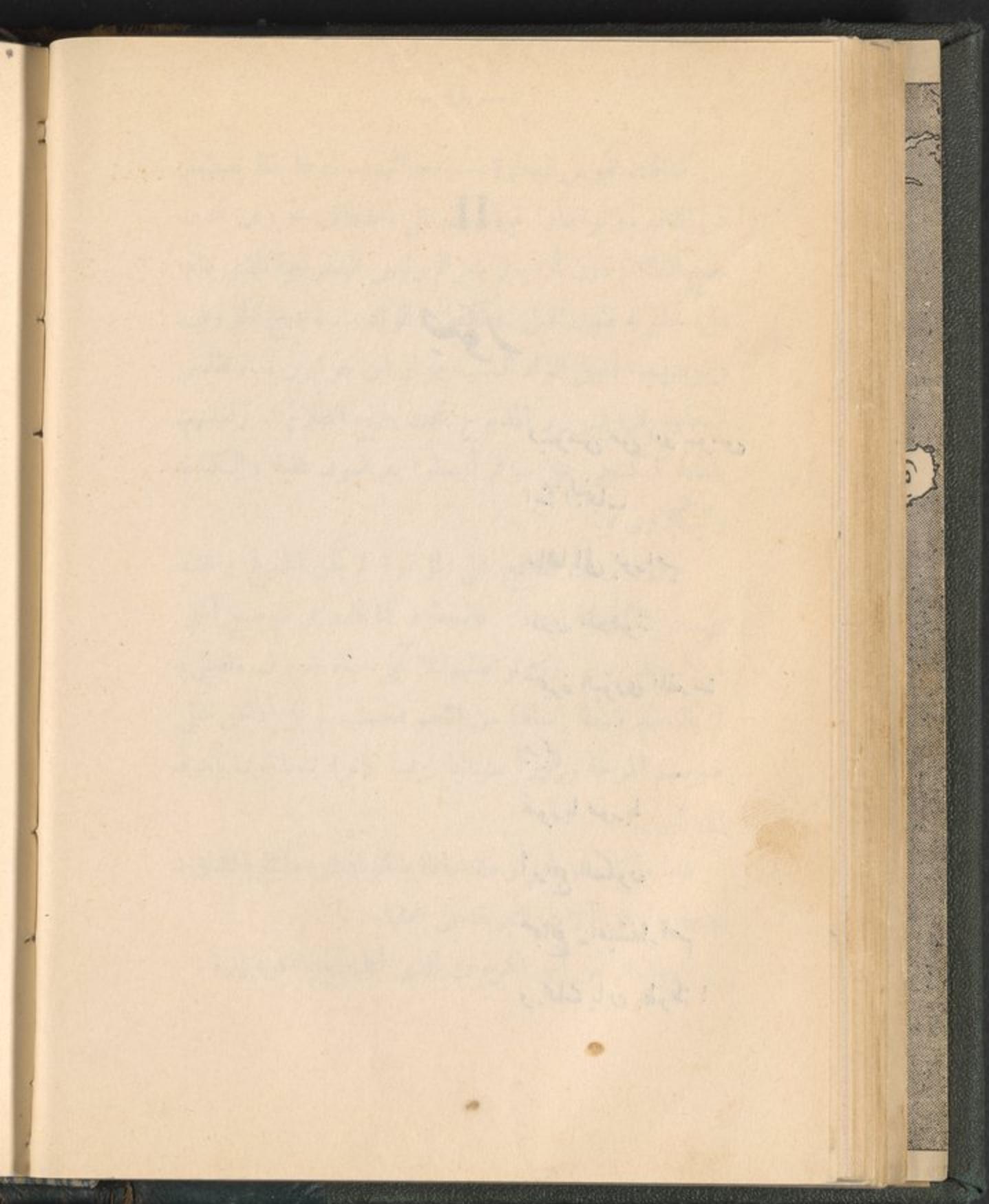
سِرِّيَا

خوربا صوريا

أبراج السكون

مجاج راصي شفارام

وبحلك يابن بعلوطه !



## قينوسٌ من الأبوس

مسلمة هذه البربرية كما تقول . ولكن يغاب على ظني أن إسلامها قشرة تشقت في كل موضع ، لا لأنها تشرب الخمر في رمضان — فالله غفور رحيم — ولا لأنها تخترف الدعارة — فهو الوعد — ولا لأنها وقفت عارية أمام جماعتنا — وقد اعتدنا ذلك من المسلمات في غير موضع من أرض الله الواسعة — بل لأن في حركة خلعها لردانها سهولة مقلقة . خلعته تبعاً لسليقتها ، ورجعوا إلى طبيعتها وحياتها الأولى في الحرج الإفريقي . والمرأة المتحضرة إذ تتعرى تعود هي أيضاً إلى فطرتها . ولكنها في حركة التجرد تتخبط أجيالاً وآباء من المدينة لتتصل بأمها الأولى طريدة الفردوس . أما هذه البربرية فلا تفصلها عن حرجها في الزمان والمكان سوى فترات وخطوات معدودة . جلبابها وضع من الأوضاع لم تفهم ضرورته بعد . وربما كان شعورها فيه قلقاً كشعور

المتحضرة حين تتجرد . ولا عبرة بالمحضرة إذا اعتادت  
العرى في تأدية حرقه معينة . فالتجرد هنا نتيجة الاعتياد  
وليس عودة إلى الفطرة . ولن أنسى اللحظة التي رأيت فيها  
واحدة من هؤلاء ألقى بها المقادير في أول درك من دركات  
الشقاوة النسائية ، وطلبت منها أن تخلع كل ما عليها من ثياب  
خضوعاً لإجراءات رسمية مخصوصة . وقد أطربت برأسها إلى  
الأرض وتراحت مفاصيلها ، واحتفظت بقميصها معلقاً بيديها  
تحاول أن تستر به جسدها ما استطاعت أن تستره . أما هذه  
البربرية فما إن رغبنا إليها أن ترقص حتى نزعت رداءها كأنه  
قشرة الموز ، وظهر أنه كان كل ما احتوى جسمها من غطاء  
وأن كل ما قد نتسامح فنسميه غطاء للعورة هو . . . عقد من  
الخرز الأبيض حزم وسطها ثم انحدر على تيجان فخذلها .  
 واستحالـت تلك المرأة السوقية التي كانت تتعرّى في فستان من  
الحرير الياباني إلى حسام أسود يلمع في ضوء سراج من البتول  
إلى جسد نابض بالحياة يتحرك طليقة ، وقد أحـال الحجرة  
المحيرة إلى حرج أفريقي لا تكاد الشمس تنفذ من بين  
أغصانه الملتوية المتعانقة ، وأوراقه العريضة تصبـب ندى  
ورطوبة لزجة . جسم لا عيب فيه سوى دقة أطراـفه . أما

استقامة الجيد واستدارة الاكتاف ، ورحابة الظهر ، واتظام  
الصدر ، وتقرب البطن ، واستدقاق الخصر ينفرج أقواسا  
تنحدر في ميل خفيف إلى حيث الركبتين ، فقد كانت نموذجا  
لأكمل ما يكون عليه جسم الأنثى .

ورقصت البربرية على توقيع غناء صاحبة لها ، وهو غناء  
كله حنين إلى فطرة بهيمية ، يختلط في خيالنا بقصة جداًتنا عن  
جارية من «نیام نیام» ارتدت إلى وحشيتها في بيت واحد من  
أسلافنا بالقاهرة . دخل عليها أهل البيت فوجدوها تتعنى  
وترقص عارية ، حول مأدبة مرتجلة قوامها طفل من أممانتنا  
الأولين .

كلا ، لا يمكن أن تكون تلك البربرية مسلمة . فرقصها  
وغناء صاحبتها صلاة وحشية إلى صنم الحرج في صحبة العشيرة  
تدور حول قربان آدمي ، على وقع طبول مفرزة وتحت  
الأنظار المغناطيسية لساحر القبيلة جلاب الغيث .

## ابنہ الپنجاب

نسیت اسمها . ربما كان «جليلة» أو ما شابه ذلك . ولكنني  
أذكر أنها فتاة مسلمة من الپنجاب . دخلنا في كراتشى إلى  
الطابق الذى تغنى وترقص فيه ، وجلسنا على بساط قدر ، أو  
هو خرقة ما . واتكأنا على وسادات مرتكنة إلى جدران  
الغرفة ، وسادات لا تندر بخیر ، مظهرها وملبسها ومخبرها  
تبعد فيك رغبة ملحة على الهرش دون سبب أو سبب .  
وكات جليلة جالسة أمامنا على البساط مثلنا ، وسط تختها  
المكون من لاعب «السارونجى» وهو الكنمنجه الهندية يوقع  
عليها أصحابها واقفة كالرباب ، وضارب النقارية ، وهى طبلات  
صغراء من طبل النقرزان . وربما كان هناك لاعب ناي وضارب  
دف ، ولكنني لا أذكر جيدا سوى «السارونجى» والشيخ  
المهوب الملتحى الذى كان يوقع عليه ، والنقارية وصاحبها  
العصبي النحيف الذى ذكرنى بعض القهوجية عندنا من

يسرون في الموبقات وينتهون إلى سرای المجاذيب أو محكمة المخدرات . والنقارية في الموسيقى الهندية كالدف أو الرق عندنا . فهى سيدة « الواحدة » وضابطة التوقيع ، صاحبها هو الرئيس الفعلى للخت . ويكتفى أن تراه في اللازمات أو الفواصل يضرب بعضيه جلد الطلبة آنا وخشبها آنا آخر ، وأن تنصت إليه ينتقل من توقيع إلى توقيع ، لتعرف أنه المتحكم في الراقصة ورجال التخت ، وتوقن أن « التم والتك » هي أهم ما في الموسيقى الهندية كما أنها أهم عناصر الموسيقى الشرقية — وفي رأي أنها إحدى مميزاتها التي تستحق الذكر .

وقدمت إلينا أوراق « التنبول » مع « الفوفل ». ولست أعرف ما هو التنبول ولا ما هو الفوفل أ كثـر من أن الأول أوراق شجر ( وهو معروف ) والثانـي حبوب نبات ( وهو معروف أيضا ) كحبوب الفلفل الأسود ولكنـها رمادية اللون . وأن التنبول والفوـفل نباتـات يمضـغـها الـهـنـود ، ويـقدـمـونـ لـكـ مـنـهاـ وـرـقةـ وبـضـعـ حـبـاتـ ، كـماـ تـقـدـمـ القـهـوةـ فـيـ بـلـادـنـاـ .ـ وـالـوـيلـ لـكـ إـنـ مضـغـتـ أورـاقـ التـنـبـولـ ، فـهـىـ كـالـحـنـاءـ تـحـولـ شـفـيـكـ وـلـسانـكـ وـلـثـيـكـ إـلـىـ لـوـنـ أحـمـرـ قـانـ ، رـبـماـ رـاقـ لـمـنـ يـهمـمـ الـأـمـرـ .ـ

ولكن جماعتنا كانت على حذر ، فقبلت هدية أصحاب المكان  
ولم تذقها .

وكان فتاة البنچاب متربيعة وسط التخت الذى جعل  
يطرز حوالها من النغمات والتوقعات ما ركز النغم فى أذنها  
ثم بدأت تغنى غناه الهند الشمالية (السندي والبنچاب وراجپوتانا  
وكشمير) وقد بداى أن هذه الموسيقى خليط من الفارسية  
والعراقية والسورية مع شيء من موسيقى أواسط آسيا .

ثم اتصبت قائمتها وجعلت ترقص رقصاً توقيعاً لا فن  
فيه ، يعتمد على دقات قدميها وقد أحاطت ساقيها بخلالين  
من الجلاجل ، وعلى حركات ذراعيها إلى أعلى وخلف رأسها .  
أما الجسم فيغلب عليه الثبات ، ولا تقاد الرقصة تحرك في  
أكثر من موقع قدميها . ثم هي تغنى وهي ترقص ، ولا يتضرر  
لمثل هذا الاشتراك أن يكون الرقص عويضاً والغناء صعباً .

«جليلة» هي هذا الشرق الطويل العريض الفارغ ، هي تلك  
الشعوب التي مازالت تفكرون وتحسون بإحساس القرون الوسطى ،  
وتصر على حسبان بوائق حضاراتها البائدة لا ملكاً للتاريخ  
ومتحف ، بل أداء للحياة حتى في القرن العشرين .

لم تشر في قتادة البنچاب ولا موسيقى السندي أكثر من

إحساس بتدور الشرق وخيبته الثقيلة . وقد ذكرت ، وأنا  
أشاهد هذه الپنجاية ونختها وجمهورها ، ليلة لى في باريس ،  
حملتني فيها قدمائى لا إلى كونسيرات الموسيقى السمعونية ،  
ولا إلى حفلات إيزادورا وبافلوفا وأرچنتينا ، ولا إلى  
أوپيرات فاجنر ومسور جسکى وريشارد شتراوس ، بل إلى  
مقهى عربى جوار جامعها المشهور . وأجلت بصرى فيما حولى  
فوجدت الشرق كله مثلا في الجمهور وقد تعدد أفراده على  
مقاعد منخفضة ، يدخنون نارجيلاتهم أو سجائرهم في أفانم  
من القهرمان ، وينصتون إلى تخت يغنى « يا منعشة يا بتاعة  
اللوز » ومن ولو جست يلقى « شم الكوكايين خلاف مسكنين »  
وكمنجاتى مشهور يوقع « تقاسيم » .  
أدرت بصرى مرات كثيرة ، فلم تك عيناي تلتقي إلا  
بوجوه مفعمة حيوانية .

في تلك الليلة ملت على صديقى وزميل جولانى الفنية في  
باريس وقت له : « روحانية الشرق » .

فأجابنى : « يغور الشرق يا سيدى إذا كان كده » .

وفي الهند رأيته كده وأسوأ من كده !

# ماهابالى پورام

كانت «كنجا»، ابنة الشمس وهيمالايا تعيش في السماء  
وود «باجيراتا» لو نزلت إلى الأرض لتعسل مياهاها القدسية  
رماد أجداده . وسافر «باجيراتا» إلى الهيمالايا حيث انقطع  
للعبادة متقدشفاً . ودعا «براهما» حتى استجواب دعاءه ورضي  
أن تهبط «كنجا» من السماء . إلا أن مياهاها سوف تكتسح  
العالم إذا لم يتلقها « شيئاً » أولاً . فاتجه «باجيراتا» في عبادته نحو  
« شيئاً » حتى استماله وتلقى «كنجا» فوق رأسه ، ولكن مياهاها  
كادت تضيع في شعره الكث دون ابتهالات «باجيراتا» .  
وانحدرت «كنجا» إلى الأرض يصاحبها «باجيراتا» حتى  
مياه المحيط . وجاء القاصي والدانى يشاهدون في خشوع ذلك  
النهر الرائع (الكنج) ، ويغتسلون في مياهاه المقدسه .  
جهد الفنان المجهول أن ينحت على صفحه صخرة سمراء .  
في وادى «ماهابالى پورام» ما أوحت به إليه تلك القصة الاهية .

، وليس لعقرية أقل بذخا من عقرية «ميكييل أنجيلا» أن تستطيع ذلك . وصخرة «ماها بالى پورام» قد حملتني على التفكير بأكبر فنانى الرينسانس ، ولعله أعظم من أنجحبته أوروبا من رجال الفن . والفنان المجهول الذى نحت صخرة «ماها بالى پورام» ربما كان أكبر من ظهر فى آسيا من رجال الفن . فقد حول هذه الصخرة الصماء غير المستوية إلى سفونية منظورة ، إلى عالم مزدحم بتنايل آلهة وآدميين وحيوانات تتوجه جميعها إلى شق فى منتصف الصخرة مثل فيه الفنان «كانجا» فى صورة حيات ( ناجا ) ذات رؤوس وصدور آدمية .

أنظر إلى هذه الفيلة تيم شطر النبع الالهى حولها صغارها وإلى السباع والغزلان والقردة تجري لتشاهد «كنجا» ابنة هيمالايا والشمس تغدق نعاءها على الأرض . أنظر إلى صاحبى «داديكارنا» الهر المتكشف وقد انتصب قائمًا على قدمه الخلفية ورفع الأخرى وطرفيه الإمامين إلى أعلى في حرفة نساك الهندود ، وإلى الإله «شيشا» والإلهة «دورجا» ، وإلى النساء وقد بدت ضلوعهم تقشفاً وanhنت رؤسهم خشوعاً . أنظر إلى الملوك والأمراء يهرونون نحو النهر المقدس يتمثل في الحيات الآدمية «ناجا» .

لو أن نحاتاً إغريقياً أعمل أزميله في هذه الصخرة تحت  
شمس «أتيكا» ! ويحيى لقد أفسدت الصورة التي طبعتها في ذاك رتني  
صخرة «ماها بالي بورام» وأفقدتها كل معانٍ لها في نفسي . فلم يكن  
الإغريقي ليصور نبعاً مقدساً . بل كان في الأغلب مثلاً  
«أرفيوس» في الشق الأوسط وهو يوقع على قيثاره المعجب ،  
وحوله الإنسان والجن خاشعة ، والأوابد مستكنة ، تنصلت  
إلى موسيقى «أرفيوس» الحزين يبكي ويستبكي زوجته الرقيقة  
«بوريديس» . ولم يكن الفنان الإغريقي ليحمل تنسيق تلك  
الجماعات في وضع تراث له العين وتهداً إليه النفس .

أتيكا ! ليس غيرك مستطيعاً تهدئه الطياع وإسلامها . ومهما  
ارتفع هذا الفنان الهندوسي بخياله وإحساسه وفنه فهو عاجز  
إلا عن إثاره القلق في نفوسنا . وهو مطبق على أنفاسنا ،  
مشوش مشاعرنا بذلك «الفريسك» الصخري يُنْهَى لففة وخشوعاً  
لتلك الآلة القاسية نزلت على البشرية نسمة ، وأحاطتها بحلقة  
التناصح ، تذكرها بأن لأخلاص هامن ذنبها وذنب أسلافها  
أسلافها حتى ولا بالموت ، وبأن كل جهودها في الجوع والعرى  
والعذاب الجثماني على مر الدهور لن تصل بها في أحسن ما  
تنظره من ثواب إلا إلى الفناء النهائي ، نقطة ماء تعود إلى  
المحيط ، نير قانا !

## المدن المدفونة

تموت المدائن كالناس موتاً طبيعياً أو أثر حادث . ومع  
أننا نعرف كثيراً من التفاصيل عن موت المدن العنيف نتيجة  
لزلزال وهياج البراكين واجتياح الموجات المدية للشواطئ  
فإِنَّا لا نعرف تاريخاً يفصل الموت الطبيعي للبلاد ، حينما  
يغادرها الناس نهائياً ليستروا أو يستقرُّوا في مدينة أخرى تبعاً  
لتطور طبيعي في العمران . نعم إن المؤرخين يدرسون  
عوامل انحلال المدن العاصرة ، ولكننا لا نسأل هنا عن  
المؤرخ بل عن الكاتب الذي يصف لنا اللحظات الأخيرة  
في أجل المدن المهجورة . ويقيني أن كتاباً من الكتاب لابد  
 وأن يكون قد عنى بمعالجة هذا الموضوع المحزن ، ولم أوفق  
بعد إلى مطالعة وصف من هذا القبيل .

وللطبيعة والناس طرائق شتى في حشو آثار المدن المهجورة .  
فالرياح والرماد والأمطار تنجح بنجاحاً كاملاً أو ناقصاً في

القضاء على بقائها . والناس يهدمون القائم من مبانها لينتفعوا  
بموادها البناءية في إنشاء معابدهم ومنازلهم الجديدة . وقد  
بلغت اللعنة على آلهة مصر القديمة حدا كان المصريون فيه  
يهيلون على البلد الدارس كل قاذوراتهم ، بينما هم يتتوّنون قرائح  
الجديدة من اللبن . فكان من ذلك تلك التلال العفنة التي  
تقوم دليلا على إنكار الشعب لماضيه المجيد ، ورمزا على  
حالة التدهور ووهدة الانحطاط التي انحدر إليها هذا الشعب  
في حقبة كبرى من تاريخه العجيب .

وفي سيلان الممطرة المشجرة ذات الجو الرطب والتربة  
الكريمة يستولي الحرج الاستوائي على بوافق مدتها فيغيبها  
تحت طبقات من الأغصان المشتبكة ، والشجيرات والأعشاب  
الكثيفة . هكذا عفت آثار بعض البلاد الكبرى الواقعة  
وسط الجزيرة أمثال «پولاناروا» و«أنوراداپورا» حتى كشف  
عنها المنقبون البريطانيون في أواخر القرن الماضي .

ولقد وقفت بـ«أنوراداپورا» في عودتى من الهند ، وقضيت  
صباحاً أجوب وسط ما كشف عنه الآثريون من عاصمة  
سيلان القديمة ؛ وأشرف على منظر ذلك الصراع الدائم بين  
الطبيعة المجنحة وبين جهد الإنسان . فهنا أنشأ «الستهاليون»

عاصمتهم قبل أن تقوم لروما قائمته . وهنا كان مهد التبشير بالبوذية في الجزيرة منذ أو فد الإمبراطور البوذى العظيم « آزوكا » ابنه « ماهيندا » في القرن الثالث قبل الميلاد يحمل رسالة « جوتاما » الروحية إلى الملك حبيب الألهة « ديفاناميتابيسا » .

ومنذ ذلك العصر الذهبي للبوذية طفق ملوك سيلان البوذيون يقيمون في « آنورادابورا » القصور والمعابد . فكان هنا القصر النحاسى العظيم والمعبد الكبير « ماهاستوبا » وغيرهما من المنشآت مما التفت عليه الأغصان والأعشاب . كأدزرة الخطوط ، وامتصته امتصاصا .

وما أنقذه الآثريون أقل من أن يرسم صورة لتلك الحاضرة الكبيرة ، ولو أن فيما نراه اليوم من عمد ودرج وأرkan دليلا على ما وصل إليه فن الزخرف والحرف من الرقة وسلامة الذوق .

وقد وصف « فان هين » الفقيه البوذى الصيني الذى زار « آنورادابورا » في القرن الرابع بعد الميلاد كيف كان يجئ إليها كل من استضاه بنور البوذا ليساعد فى تمهيد الطرق وزخرفة المنعطفات ونشر الأزهار وإطلاق البخور والأعطار في

مناسكها ومعابدها . وكيف رأى قاعات الوعظ الكبرى

تقوم عند تقاطع طرقها المستوية المستقيمة .

وأكثروا استرعى بصرى وسط الركام ، صناعة المثال في

تصوير الطيور والفيلة وإقامة الصور البارزة لحراس المعابد .

ولقد لمست روحه الصافية التي أوحى إليه بتمايل « البوذا »

جالسا القرفصاء وقد علت وجهه ابتسامة هادئه تضفي على

الطبيعة حوله سعادة ، وتفعم كيان الناظر هناه داخليا .

والحق أن هذه الابتسامة ، شعاع السريرة الآمنة

المطمئنة ، ووقفة « التمايل الحارسة » يباب المناسك أشرقت

أساريرها بابتسامات شبيهة ، وتلك المظلة الحجرية وسط

الخرج لا يعرف عنها إن كانت مأوى لناسك أو منبرا

لخطيب ، هي كل ما فزت به في تجوالي بآنوراداپورا . فالفن

البوذى غريب عنى ، والمدينة المدفونة لم يبق منها كثير .

ولكن ابتسامة البوذى وحراس معابده ومناسكه ومظلة

عباده — بل ومظهر الطفولة في رهبانه ذوى الإزارات

الصفراء والبرتقالية — كانت أكبر عون لى على فهم البوذية

وعطفي على تعاليمها . فهي حركة تحرير كبيرة من الإرهاق

الهندوسى كما كانت المسيحية حركة تحرير الطبقات المذولة

في الامبراطورية الرومانية .

وقد يعسر على من يزور المعابد البوذية الحديثة أن يحس ، خلال التعقيدات والإضافات والخليلات التي أغدقها البوذيون على معابدهم فيما بعد ، بذلك الصفاه والمهدوم الذي شعرت به حيال الفن البوذى في عصره الذهبي . هنا في « آنوراداپورا » رأيت الصلة واضحة بين جلسة البوذا وابتسامته وبين كل قوس من أقواس الزخرف وكل ركن من أركان المدينة المدفونة ولقد قرأت غير قليل عن مبادئ البوذية وحياة منشئها في ضوء زيارتي لآنوراداپورا . لذا اصطدمت نفسي بمعبد « السن المقدس » في كاندي ، وقد عادت إلى نقوشه الحائطية وتصاويره روح القلق والقسوة والتمديد بالعقاب . وكأنني بالروح الهندوسية ، التي انتهت بالتعصب على البوذية وطردتها من الهند ، وقد نجحت بعض النجاح في التأثير على الفن البوذى المتأخر في سيلان . ولكنه نجاح غير كبير برغم كل شيء . فإنى حينما دخلت أول معبد بوذى في كولومبو عقب مغادرتى الهند للمرة الأولى — وهو معبد حديث بعيد عن البساطة الاولى — وشاهدت تماثيل البوذا فائماً وقاعداً وممضطجعاً ، وتنشققت رائحة الياسمين الذى يقدمه الزوار قربانا

لـ «جوتاما» الحكيم، شعرت كأن نسيماً رقيقاً يهب على أرجاء  
روحى وقد تفتحت شرفاتها واستنارت بعد الظلمة والاختناق  
في المعابد الهندوسية.

أجل، كانت البوذية حركة تحرير روحى ربما استطاعت  
أن تجعل من الهند «يابان» أخرى في آسيا لو لم تتغلب الهندوسية  
من جديد على تلك البلاد التعسة. ومن رأى أن نجاح اليابان  
يعود في بعضه إلى بساطة الديانة البوذية، ومحافظة اليابانيين  
على تلك البساطة. فلست أتصور اليابان باللغة ما بلغت لو أن  
العقائد الهندوسية تنيح فيها على عقول الناس، وتختنق روح  
الحرية فيهم خنقاً.

## شجرة البوذي المقدسة

قادنى سائق الريکشو — أو حمارى الآدمى — إلى شجرة «البودى» المقدسة خاتمة لطوابي هذا الصباح بآثار المدينة المدفونه «أنوراداپورا». وترك فيتونه الصغير وتبغى إلى حرم الجمیزة التي تعد قدسا من «أقدس البوذية»، يحج إليها أتباع «ساکیامونى» كما يحجون إلى معبد «کاندى» حيث أودع سن البوذا، أو إلى قمة آدم في سيلان حيث موضع قدم «جو تاما» الحكيم ، الذى لم تطا قدماه فيما نعرف أرض الجزيرة ، ولكنهم البوذيون يعتقدون بأن الفرجة الظاهرة في إحدى صخور قمة آدم هي أثر من آثار أقدام البوذا . كما يصر المسلمون على اعتبارها موطن قدم آدم بعد طردہ من الفردوس . والهندوس على حسبانها مليس قدم «براھما» في إحدى تناسخاته الأرضية .  
وجمیزة «أنوراداپورا» نبت من فرع شجرة «البودى» التي

استئنار البوذا بضوء العرفان وهو يستفني ظلالها ، في يوم من أيام القرن الخامس قبل الميلاد وقد انتهى به المطاف إلى مدينة «جايا» من أعمال الهند الشمالية .

ومنذ أكثر من ألفى عام غادر الإمبراطور البوذى «آزوكا» عاصمته في «باتالیپورا» إلى منبت الشجرة المقدسة في «بوداجايا» وصعد على كرسى من ذهب ليرسم حول أعلى غصن من أغصانها دواير بالدهان الأحمر . وما إن انتهى من رسمه حتى انفصل الفرع عن الأصل ، وسقط الغصن في آنية ذهبية من صنع الفنان الإلهى «فيزماكارما» . الذى تقمص فى صورة إنسان ليعد عدة استقبال الغصن المقدس . وكانت الآنية ملأى بالطين مضمخة بالطيب .

وعهد الإمبراطور «آزوكا» بالآنية وفرع شجرة «البودى» إلى ابنته الأميرة الراهبة «سنجاميتا» فحملتها إلى جنوب الهند ، وعبرت بهما البحر إلى سيلان . وهناك هرع إليها الملك «تيسا» قبل أن تصل إلى الشاطئ ، وغاص في الماء حتى رقبته ، وحوله ستة عشر رجلاً يمثلون جميع الطبقات . فتلقوه الهدية العظمى من يدى الراهبة الملكية . وحملوها إلى «آورادابورا» . وهناك قام الملك بغرس الغصن المقدس في

الموضع الذى ذهبت لزيارته هذا الصباح .  
وأحنى سائق الريكسو رأسه خاشعاً عند الباب المقفل  
حول جذع الشجرة القديمة ولم ينبعس بكلمة . وقد شعرت  
فجأةً كأن يداً سحرية قد ضربت بيني وبين حماري الأدمى  
جبلاً وبسطت وهادا .

ما شجرة بين الأشجار لولا الروح التي تنفسها العقيدة  
البشرية فيها ؟ وما السماء والأرض ، والموج المزبد يتكسر  
على الشاطئ الرملي وبين جذور « المانجروف » ، وما القمر  
ينعكس في مرآة البركة الهدائة تحيطها أشجار الخيزران ، لولا  
النفس الحساسة تتصل اتصالاً غير مفهوم بما لا تفصح عنه  
الطبيعة بلسان ؟ فقد لا تكفي العين والأذن لإدراك روح  
الجمال . فهذا الزنجي يقف أمام تماثيل « برنى » أو تحت  
سقف « السيسيتينا » فلا يفهم ولا يحس بما تنتظوي عليه  
أعمال الفن الخالدة من جهاد البشرية نحو أعلى ما يطمح  
إليه الروح الإنساني . بل هذا الجلف ينظر في تبليم السائمة  
إلى لوحة « ريمبرانت » فإذا حاول أن يفهم تساؤل عن ثمنها .  
فإذا ما صفت أرقام الجنبيات أذنه راح يقدر ثمن الإطار ،  
ثم طفق يفترش في صفحة الصورة عن أحجار ومعادن ثمينة

تثاقل تلك الجنيهات العديدة .

لوحة «ريبرانت» هذه ، وشجرة «البودي» المقدسة ، هما قطبان الإحساس الإنسانية . فالعقائد للنفوس البسيطة والإنسانية الدنيا هي والإحساس الفني عند أهل الثقافة العليا طريق واحد لنتيجة واحدة : هز النفس البشرية هزا يرفعها عن الإحساسات المادية وطلاب الجسد إلى الذروات الفكرية التي هي ملك خاص لهذا الحيوان المفكر ، حضى بها دون رصقائه من الحيوانات الأخرى .

وأنا أمام شجرة «البودي» المقدسة شبيه بالزنجبلي أمام عذاري «رافائيل» . فماذا يهمني أن تكون هذه الشجرة المحاطة بكل مراسيم التقديس ، الشجرة التي يدخل البودي إلى حرمها خافض الرأس إذ يشعر دون تفكير بأنها مهبط الحكمة ، وبأن أغصانها تحتفظ بالناموس الذي نزل ذات يوم من أيام القرن الخامس قبل الميلاد على البوذا وهو مضطجع تحتها ، ماذما يهمني أن تكون في أصلها غصنًا من أغصان الشجرة الأولى ذاتها حملته الراهبة «سانجاميتا» لتغرسه في هذه البقعة من سيلان منذ أكثر من ألفي عام ، هذه البقعة التي وطأتها قدماء في هذا اليوم من أيام فبراير ١٩٣٤ بدون

تخرج ؟ ماذَا تهمى الشجرة الأصلية أو فرعها ؟ وماذَا عسَى  
فاعل بِنفْسِي الباردة أُمَّامَ أَقْدَمَ أَشْجَارَ الْعَالَمِ وَرَبِّما كَانَتْ  
أَعْظَمُهَا تَقْدِيسًا ؟ أَنَا إِلَى السَّاقِ الْبُودِي الْيَوْمَ فِي ظَلَالِ هَذِهِ  
الشجرة الشامخة الفارعة ، كَالْزَّنجِي يَصْعُدُ أَكْمَةً «الْأَكْرُوبُول»  
إِلَى جَانِبِ إِرْنَسْتِ رِينَانَ . هُوَ — سَاقِ الْبُودِي — نَفْسٌ  
رَفِيعَةٌ تَنْسِى فِي ظَلَالِ الشَّجَرَةِ الْمَقْدَسَةِ الْجَهَانِ وَاحْتِياجَاتِهِ  
الْمَادِيَةِ . وَأَنَا بِهِمْ يَشْكُو هَجِير سَيْلَانَ وَتَعْبَ التَّجَوَّالِ ،  
وَيَفْكِرُ بِمَيَادِ القَطَارِ الَّذِي يَعُودُ بِهِ إِلَى كُولُومِبِي ، وَبِالوقْتِ  
الَّذِي سَوْفَ يَسْتَغْرِقُهُ فِي الْغَدَاءِ وَدَفْعَ حَسَابِ الْفَنْدَقِ . هُوَ  
— إِرْنَسْتِ رِينَانَ — نَفْسٌ رَفِيعَةٌ تَسْجُدُ لِلرُّوحِ الَّذِي أَوْحَى  
إِلَى الْفَنَانِ بِإِقَامَةِ «الْبَارْتِينُونَ» مَعْبُداً لِلْحُكْمَةِ وَالْجَمَالِ ، وَرَمْزاً  
لِلْأَجْلِ عَصُورِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَسْلَمَهَا تَفْكِيرَآ وَأَقْلَمَهَا عَبُودِيَّةً . يَنْبَأُ  
الْزَّنجِيُّ يَنْفَضُ بِرَاغِيَّهُ وَهُوَ يَقْرُضُ رَغِيفَ خَبْزِهِ ، وَيَلْتَهِمُ  
بَنْظَرِهِ الشَّهْوَانِيِّ امْرَأَةٌ يَضْنَاهُ تَسْلُقُ الصَّخْرَ فَتَكْشُفُ عَنْ  
بعْضِ فَخْذِيهَا . ضَعُّ هَذَا الزَّنجِيُّ أُمَّامَ إِلَهِ الْصَّلْصَالِ أَوِ الْخَشْبِيِّ  
فَاغْرَفَ الْفَاهِ زَاغِرًا بَعْيُونَ مَطْلِيَّةً بِالْأَيْضِنِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ ،  
وَإِلَى جَانِبِهِ رِينَانَ يَتَأْفِفُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ الْاِسْتَوَائِيَّةِ  
وَلَدْغِ الْهَوَامِ . يَرْتَفَعُ الزَّنجِيُّ فِي درَجَاتِ الْبَشَرِيَّةِ تَبَعًا لِتَجْرِيدِهِ

أمام إلهه ، بينما يكاد يهبط رينان إلى مرتبة الحيوان لو لم يدرك  
عقله الكبير معنى خشوع البربرى أمام صنمه .

يختفي من يقصر وظيفة العقائد على الإصلاح الاجتماعى  
بحكم ما تتطوى عليه من عقاب وثواب . يختفي من يقصرها  
على نوع من الحياة يلوذ بها المرزوه والملهوف . هي ذلك  
بلا شك ، ولكن دورها الأكبر هو الارتفاع بالحيوان  
الإنسانى — حتى في أحرق وأوضع ممثليه — إلى عالم كله سمو  
وتجرد عن طبيعته الحيوانية في لحظات معدودات من حياته  
البهيمية . ربما كانت للحيوانات لغة للتفاهم ، والحيوان يتقوت  
ويتنفس ويتناصل ، ويستطيع ضربا من التفكير الغريزى  
ربما كان له في وساطته أهمية تفكير الإنسان الفطري .  
ولكن ما اختص به الإنسان ، هو إمكان نفسه أن تهتز  
هزات خاصة لا علاقه لها بالتفكير ولا بالاحتياجات المادية  
المؤمن في حضرة إلهه ، والملحد أمام مظاهر الفن العليا .

لذا نعرف لأحط الأجناس البشرية ديانة ما . وليس ينتظر  
أن نكتشف يوما حتى لأرقى أنواع القردة معبداً أو صننا  
وابتعدت عن الشجرة المقدسة عائداً إلى الفندق في فيتون .  
بحره حمار آدمى ، ولكنى كنت أقل غلواء وأكثر حكمة

# پریم

محطة فحم عند مدخل باب المندب ، مرفاً طبيعى على  
المضيق بين جزيرة «پريم» وشاطئ شبه جزيرة العرب . جزيرة  
بركانية سوداء اللون ، متوجهة كأغلب الجزائر في جنوب  
البحر الأحمر . أما قرية «پريم» فهي أكواخ أو زرائب آدمية  
قرب الشاطئ ، وبضعة «بنجالوات» في أعلى الموقع ، تحاول  
أن تمت إلى الأنافة بأسباب لم تكن ظاهرة لى على الأقل .

أول ما أضع قدمي على الأرض منذ تسعة أيام حين  
غادرت السفينة شاطئ مصر في الغردقة . وقد غدت السفينة  
مسكني و محل عملي في الإسماعيلية حيث ركتها منذ عشرين  
يوماً ، وبقيت كذلك حتى غادرتها في الأسكندرية بعد تسعة  
أشهر . ومع ذلك كانت التسعة أيام أصعب وأشد أيام التسعة  
أشهر .

أحاط بالسفينة «عموطة» من الصومال والعرب ، ونشروا

بضاعتهم على ظهر «هورياتهم»: مأكولات محفوظة، وعلب سجائر إنجليزية، وفانلات وأحذية، وأسماك وبنطونات، وقطع من شعاب مرجانية، والظام الفكية لوحوش البحر بأسنانها. وعصى صنعت من سلاسلها الفقيرية.

اللغة العربية التي يتكلماها الناس هنا أقرب فهما إلى من لغة تونس أو الجزائر على الأخص. والصومال قوم يحملون رؤوسهم على هامات مرتفعة في كبريات، كأنهم قياصرة سود اضطروا إلى امتحان حرف وضعية مثلما حدث فعلًا لأمراء روسيا القيصرية.

أما الهندو فعلى خلاف ذلك، يسيرون منكسين الرؤوس، ويتقدمون إليك في حركات كلها ذلة تتقرز منها النفس، وتزيد في تقرزها ملابسهم. في بينما الصومالي يلبسون الجلاييف البيضاء، ترى الهندي يلبس قميصاً أفرنجياً بلا ياقة، ويترك أذياله طليقة خارج البنطون أو المئزر، فتظهر في جوانبها تلك المثلثات المقطوعة التي تجعل منظر القميص الأفرنجي مرسل الأذيال من أسفخ وأقبح المناظر.

وقد أضاف صاحب البار الذي دخلنا إليه على هذا اللباس طربوشًا بنينا دا كنا. أما الطربوش فيدل على أن الرجل غير

هندوسى . أما اللون البنى فلم أفهمه حتى سألت الرجل عن دياناته وعرفت بأنه مجوسى ( من أتباع زرادشت ) . فاللون البنى الغامق يميزه عن المسلم ذى الطربوش الأحمر .

البار مقفر إلا من جماعتنا وجماعات الذباب جاء يشاركنا شرابنا وكان بيرة ساخنة قدمها لنا ذو القميص المرسل . واضطربنا إلى وضع قطع من الثلج فيها فأفسدت طعمها . وقد كنا نحمل أثناء الأيام التسع ، الشاقة في رطوبتها المرهقة وحرارتها المميتة ، بشوب من البيرة العنبرية المشاجة ، تعلوها ياقه يضاء كالشهد . وبيرة هذا المجوسى على غراره .. لا ياقه لها . ومع ذلك تقبلناها وشربناها ، فشيء أفضل من لاشيء ، وهذه بريم الموحشة ظهرت لنا في ذلك المساء كأنها جنة الميعاد .

كل شيء نسي ولا ريب ! بعض الناس إذا قال هذه الجملة حاول أن يفهمنا أنه تلمذ على أينشتين ، وأنه واحد من عشرة على الكورة الأرضية فهموا نظريته . نصيحتي لا إخوانه أن يشجعواه على اعتقاده ، فهذا ضرب من الإحسان لا يكلفنا كثيرا . أنا في هذا نوع من روّوكفلر .

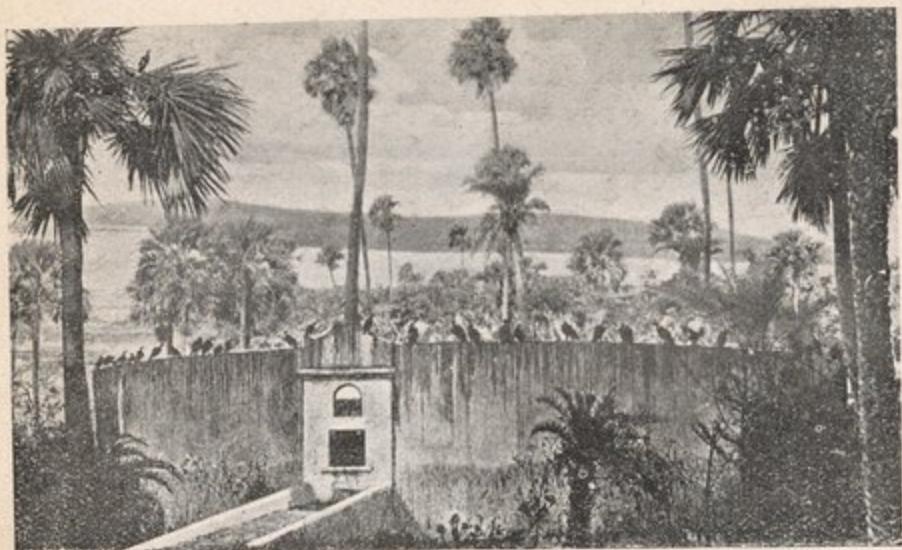
كل شيء نسي ولا ريب ، فلو أني رأيت قاعة البلياردو

بالكلوب البريطاني هنا في ظروف أخرى لضحك من برامة  
الصور التي تزين الجدران : رجل أصحابه دوار البحر أثناء  
معازلته فتاة . سيدة تلبس مودة ١٩٠٠ يحتضنها كولونيل على  
المعاش أصلع الرأس . مناظر غزل ربما بدت جريئة في وقتها  
ولكنها تبدو لنا الآن بريئة إلى درجة يسخر منها المراهقون !  
ونحن هنا في كلوب انجليزى . أى في ندوة السرور  
والمرح البريطاني ، وبيت النكات والشاشة الموقفة على

الأعضاء For Members Only

ولقد كان لي الشرف الرفيع بزيارة بعض هذه النوادي  
الأنجليزية في رحلاتي ورأيت أقرب المجتمعات شبهها بها عندنا  
هي ... المآتم !

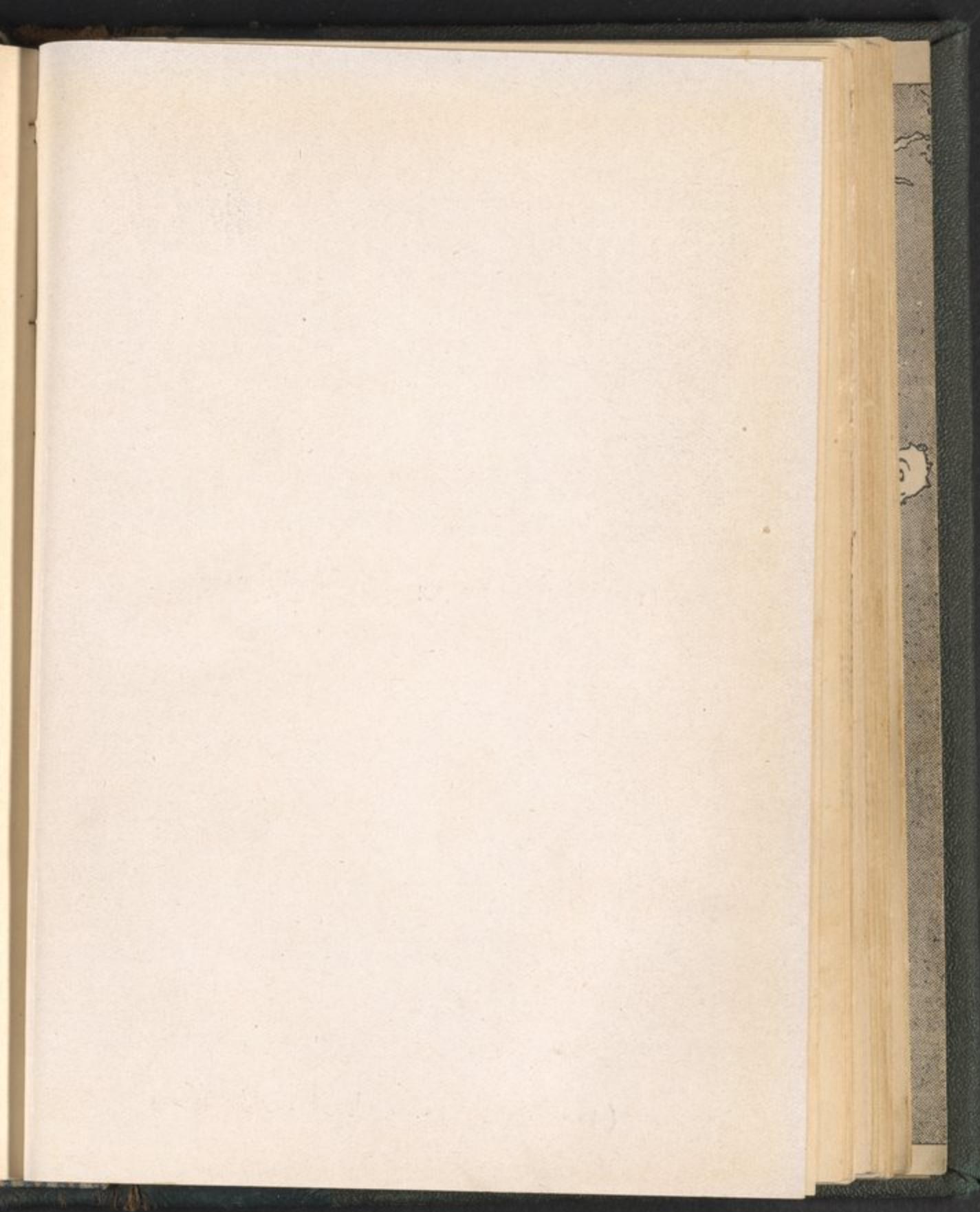
ثم إن عيني وقعت على هذه الصور « الخليعة » لأول مرة  
وأنا في ركن من قاعة الكلوب تحول إلى كنيسة مؤقتة . فلقد  
كان الخبر الهام الذي أسر به حاكم الموقع إلى رئيسنا هو أن  
طيارة عسكرية حملت من عدن قسيساً انجليكانياً ليقيم الصلاة  
في النادى البريطاني بپريم ويعود في اليوم الثاني . وقد ألقى  
الخبر إلى رئيسنا في هجهة من يقول : إننا نترقب الليلة هجوماً  
عنيفاً من بعض القبائل الثائرة .



برج من أبراج السكون — بومبای (أنظر صفحة ١٠٧)



سكن جزائر « خوریا موریا » (أنظر صفحة ١٠٠ )



وأخفى الرئيس عنا الخبر حتى الشوب الثالث . ثم أبرقت  
أساريره وأعلنتها به خلال غمام الذباب قائلاً :  
— هيا بنا يا أولاد ، فقد حانت ساعة الصلوة .

دخلت القاعة واتخذت مقعدي في الصف الثاني . وجعلت  
أهمهم وأخني رأسى بحاملة لا خوانى . وزوّدت علينا كتب  
الترتيب ، وهى ما أستريح له فى هذه الحفلات ، لأنى بعد  
شطرين من الأنشودة أستطيع أن أشتراك فى الغناء مع شىء  
من النشاز لآخر منه على متانة الأبنية .

ويينا أنا في خشوعى إذ لاحت مني التفاته إلى حائط  
المكان فوقعت عيناي على تلك الصور الخليعة مودة ١٩٠٠ .  
ومع أنها خلاعة بريئة باردة إلا أن وقعاها في تلك اللحظة  
كان كا لو أخرج لنا أستاذ الديانة صورة راقصة تلبس  
ملابس حواء في الفردوس .

ولقد تصورت رئيس النادى يفكر في تجديد زينة  
المكان فيرفع هذه الصور ليضع بدلاً لها لوحات منتخبة من  
مجلات «سكس أپيل» و«بارى پليزير» . ماذا يكون موقف حيئن  
في حفلة الصلوة التي طار لها الأنجلوكانى خصيصاً من عدن ؟  
وانتهت الصلوة بالدعاء للملك والأسرة الملكية البريطانية

ثم رفعت المقاعد وعاد الكلوب كلوبا . وقدم لنا الوسكي  
بالصودا وتسامرنا حتى منتصف الليل مع جميع أفراد الجالية  
البريطانية في «بريم» ... وعددها عشرة !

هذه هي «بريم» إحدى حلقات التوين الهاامة في سلسلة  
المواصلات الامبرطورية .

ويحكى لك الانجليز ، على سبيل الدعاية وبشىء من  
الفاخر ، كيف احتلها آباؤهم في حقبة من التاريخ لا أعرفها :

عرف أميرال فرنسي بأهمية هذا الموقع — وكان يعرف  
باسم «ميون» في ذلك الوقت — فاتجه بسفينته شطره ، ومر في  
طريقه بعدن فدخلها . واحتقى به الحاكم البريطاني فأقام له  
حفلة ساهرة . وفيها انفك عقال الألسن ، وعرف الحاكم  
بهوية الضابط الفرنسي ، فأرسل أوامره سرا إلى رجاله  
ليسافروا حالا ويحتلوا الموقع .

ولما أن وصل الأميرال الفرنسي إلى «بريم» ، بعد أن ودعه  
حاكم عدن وداعا شائقا ... وجد «اليونيون چاك» يرفرف  
فوق الرایة السوداء !

قال السير تشارلس ناپير — الرجل الذي كسب مقاطعة

السند لبريطانيا وضمتها إلى إمبراطورية الهند ، وكان أول  
مندوب سام لها :

« لا حق لنا في الاستيلاء على السند ، ومع ذلك سوف  
نستولى عليها مع ما في هذا من سفالة ولكنها سفالة إنسانية  
نافعة ومفيدة جداً »

ذهب المعز وسيقه ! وقساوسته الأنجلستان أيضاً  
يا ، أليون ، !

## خوريا موريما

أكتب هذه الكلمات وقد انقضى بعض زمن على زيارتي  
جزر «خوريا موريما»، ولا أكاد أصدق ناظري. وكأنني  
يتصيرت تتجاوز حقوقها وتطغى على الروية المادية. مجموعة  
من الجزر على مقربة من شاطئ حضرموت. المسكون منها  
واحدة هي جزيرة «الحلانية». بمجموع سكانها نساء. ورجالاً  
لا يتعدي منصر «على بابا». يعيشون في بعض عشرة كوخات من  
حجارة رص بعضها فوق بعض بغير خرسانة، وغطيت  
سطوحها بأعشاب البحر المجففة. لا زرع ولا ضرع. عين  
ماء آسن لا ثانٍ لها تروى ظماءً عرب الحلانية. وبضعة  
حجارة تخيط مصلاتهم وأخرى تدل على موتاهم. لاثم في طريق  
قوافل أو بواخر، ولا هم مستطيون التجوال في «هورياتهم»  
خارج الجنونات المحمية حيث يصيدون السمك بالحراب.  
يinهم وبين العمار — وأى عمار أفضل منه الخراب! — سفر

أيام وليال تقل وتكثر بنا لاريح تملأ شراع الملاحين  
الغرباء يمرون بأعراب «الحلانية» فيقايضونهم على أسماء كهم  
الجافة بخنز وأرز.

دخلنا ذات عصر بين جزر «خور يا موريما» وألقينا مرسانا  
أمام «الحلانية». و كنت أرقب الشاطئ بمنظارى فرأيت راية  
حمراء وقف جوارها رجل. وركبنا اللنش لننزل بأرض  
الجزيرة. ولم تكن الراية سرى شال عمامة شيخ «الحلانية»،  
نشره فوق عكازه. واجتمع حوله بضعة أفراد حفاة نصف  
عراة واسعى المحاجر هابطى الوجنات، تبرق عيونهم جواع.  
كانوا رجال حكومة «الحلانية». فهذا الكبير الرأس المقطوع  
الأذن هو وزير الحرية ولا ريب، فهو قلق يكسر عن أنيابه  
بلا سبب واضح. أما هذا الربعة الحديد البصريحمل حربة  
الصيد فلعله وزير الاقتصاد. ويظهر أن الشيخ يجمع إلى  
رئاسة الحكومة وزارة الأديان والصحة والمعارف والخارجية  
وقد اجتمعت حكومة «الحلانية»، في أصليل هذا اليوم على  
شاطئ ثغره المبنى لفاوضنة هامة مع قبطان سفينتنا موضعها  
«رغيف عيش تتعشى به!»، وقت أنابيمهم الترجمة بين شيخ  
العرب وبين القومندان الاسكتلندي. ولعل الذكاء المصرى

— وهو الذى اعتدنا أن نصفه بالمشهود دون أن نوضح  
بصراحة أتنا شهد به لأنفسنا — كان عونى على أعمال  
الترجمة أكثر من لغى العربية . فهذا الشيخ — أو هذا  
الرئيس حكومة — يتكلم العربية بلهجه قحطانية أو حميرية  
أو حضرمية . ولما كنت ضعيفاً نوعاً في فهم اللهجات —  
وهذا ب رغم معرفتى المشهودة باللغة العربية ! — فقد اعتمدت  
على نظرى أكثر من سمعى في فهم ما يقوله شيخ «الحلانية» .  
ويقيناً كان يطلب منا رغيف عيش يتعشى به ، فالحركات التي  
تصاحب أشباه قول «عشاناً عليك يارب» هي نوع من  
«إيسيراتو» ، أبكم سهل على مهمة توصيل رغبات الشيخ إلى  
القومدان . واتفقنا على أن نزور مملكته أولاً ثم نعود به  
إلى سفيتتنا لنعطيه مما أعطانا الله ، وهو أقل من القليل في  
ما خر العباب المسماة ... التي تشارك المعيدى في صفتة  
المشهورة .

أما وقد وصفت المملكة ووزراء المملكة ، فلا أرى  
بـ حاجة إلى وصف بقية الأربعين نفساً الذين يتكون منهم  
شعب «الحلانية» سوى أن النساء محجبات مقنعات . وهي حالة  
تقر بها أعين أهل التقاليـد عندنا ، أو هي تثير أشجانهم إذ

تدَّكِرُهُم بعهود مصر السعيدة حين كانت حالة نساتنا على غرار حالة نساء «الخلانية» من الرق التقليدي. ولقد رغبت رغبة صادقة أن يكون أنصار تقاليدنا المجيدة معن في جزيرة «الخلانية». فهي فرصة لايجدونها إلا إذا استطعت أن أحشد جموعهم في هذه الجزيرة القاحلة ليقيموا فيها بلا رجعة، كما فعل الأتراك بحيوانات معروفة ضاقت بها شوارع استانبول فحملوها إلى جزيرة غير مسكونة!

مضى على آخر سفينة وقفوا بجزيرتهم خمسون يوماً. وقد فرغ خبزهم وأرزهم فهم لا يأكلون منذ أسبوعين سوى السمك المشوى. وإذا قدر لهم أن ينضب معين بناتهم الوحيد فهم واجدون في رحمة الله الواسعة وجنت نعيمه، ما يعوضهم خيراً عن دنيا «الخلانية» الاقفرة المرذولة. كما وجد قبلهم سكان جزيرة «السوداء» من جزرهم حين ماتوا عطشاً في حقبة من أحقاب تاریخهم.

قلت إنـي وإنـا أكتـب هـذا تـركـت جـزـرـه خـورـيـاـمـورـيـاـ، وـرـائـيـ ولا أـكـاد أـصـدقـ نـاظـرـيـ وـكـأنـ بـصـيرـتـيـ تـطـغـيـ عـلـيـ روـيـيـ المـادـيـةـ لـلـجـزـيـرـةـ. فـالـخـلـانـيـةـ وـسـكـانـهـ الـأـرـبعـونـ تـرـكـواـ فـيـ ذـاـ كـرـتـيـ مـاـيـتـرـ كـهـ الـحـلـمـ المـفـزـعـ. لـآنـ كـلـمـاـ اـسـتـعـرـضـتـ ذـكـراـمـ

في نفسي خيل إلى أن عين الماء الوحيدة غاضت ولم يبق من سكان «الخلانية» سوى أربعين هيكلًا عظميًّا مبعثرة على الشاطئ الرملي، حول رأيه حمراء هي عمامه الشيخ كان قد نشرها تستجدى الأفق سفينة عابرة.

وهو إحساس شيفه بهذا يتولاني كلما ذكرت زيارتى لجزيرة «سان»، أمام ساحل فرنسا الشمالى الغربى. فقد رأيت هناك جزيرة منخفضة يعيش بضعة آلاف من أهلها تحت رحمة موجة مدية تجترفهم وترك جزيرتهم لا أثرا ولا عينا. وهناك إحساس ضيق يتولاني غير مسبب عن هذا الفزع الخيالى. وهو ناشئ عن عدم توصلى إلى فهم الدافع لهذه البشرية أن تصر على العيش تحت سيف «داموقليس». تلك القرى يحتضنها «سترومبولى» و«كاراكاتوا»، وهى آمنة إلى ضمة البركان الغادر بعد أن عرفت بأمر تدميره المرة بعد المرة، لماذا تعود إلى الإنشاء والبناء حيث فجرت الأرض فاها وصبت البراكين حممها، وأطلق الأقيانوس طوفانه؟ فلا أحير جوابا. ثم تدق كلمة «الحياة» على باب فهمى تستأذننى أن تكون جوابا على سؤالى فلا آذن لها. وكيف تكون الحياة وقوه الحياة قصيرة النظر إلى حد أن تورق في

ميدان الموت الدورى ؟ ثم يتراجع الانسان العاقل أمام هذا الخاطر : الحياة قوة شاملة جامدة . وما العقل إلا من بعض مظاهرها . فهى ليست مضطربة إلى التفكير ، وإنما هي مجبرة على أن تختل فراغ الموت . وأكثر المواقع احتياجا لها بالذات هى المواقع التي يتنازعها الفناء والعدم .

إلا أنه وقد نفسر عودة الإناسى إلى «سان فرنسيسكو» و«ميينا» و«نابولى» و«جواتيمالا» بما يجدونه في هذه البقاع من أسباب الثروة ، وهم في ذلك مدفوعون بذات الجبرية التى كانت الأساس فى إنشاء هذه المدن ، أى لى أن أفهم سر وجود منصر «على بابا» فوق جزيرة منسية من الآلهة والبشر فى جنوب شبه الجزيرة القاحلة الفقيرة التى اندثرت فى رمالها وكهوفها المخيفة عاد وثُمود وغيرهم من العمالقة .

سألت الشيخ عن البلد الذى جاء منه . قال «من مربط على شاطئ شبه الجزيرة» ، وعما إذا كان يسافر من أهل كثير إليها . فأجابنى «أى نعم ، يسافر الشاب ليتزوج منها ويعود بعروسه إلى هنا فتبقى حتى تموت» سأله «وملأذا لا تسافرون جميعا إلى مربط ولا تعودون ؟» وأنا أفكر فى نفسي : ليست مربط باريس ثانية ولا ريب . ول يكن عدد أهلها بضعة آلاف

يعيشون في فقر مدقع . ماذا يضيرهم أن يزيد تعدادهم  
أربعين نفسا ؟

وهنا قد يكون الشيخ أجابني ولم أفهم . أو أنه هو نفسه  
لم يفهم فلم يجربني . وكل ما ذكره هو أنه صوب بصره نحو  
السماء ، ورفع يده في حرارة مبهمة عريضة ضمت أرجاء السماء  
والأرض . ماذا قال أو أراد أن يقول ؟ أهي فطرة خاصة  
لا يستطيع التعبير عنها وإنما أنا المتحذلق أترجمها له هكذا  
« نحن فلاسفة نحب الفضاء والحرية » ؟

ماذا يقول هذا الشيخ المحب للحرية لو أنه تعلم بعض العلم  
طالع الأطلس الجغرافية ؟ لعله آخر من يفكر بأن يرى  
جزر « خورياموريا » - وسكانها الأربعين - وقد لونت بلون  
الإمبراطورية التي لا تغرب الشمس عن أملاكم . ليتني  
أخبرته بهذه الحقيقة ، وعرفته بأن في مصر أناسا مهتمم  
المراجعات العلمية على صفحات الجرائد ، وأنه ليكفيه أن  
يرسل خطابا إلى إحداها فيتلقى وابلا من التصحيحات  
الجغرافية ، لو أن كل كلمة منها جندى مسلح لا استطاع شيخ  
« الحلانية » لا أن يصحح لون جزيرته على الخريطة فحسب ،  
بل أن يحرر جزءا هاما منشعوب الأرض .

## أبراج السکون

«بومبای» حاضرة کیری اجتمع لها من ضروب القبح  
المعاری ما يکفى أن يطمس على جمال فلورنسا وروما  
وباريس وفيينا . ولو أن طيرآ آبایيل تکفلت بعملية توزيع  
بعض مبانی بومبای فحملتها وألقتها على هذه المدن فإنه  
يمکنك أن تقول يا رحمن يا رحيم على فن العمارة في حواضر  
الجمال . طراز عماراتها أثر من آثار العهد «الفيكتوري» امترج  
أقبح امتراج بالفن الإسلامي الہندی . فكانت القباب والأعمدة  
التي تقدى العين بصلفها وغطرستها ولا منطقيتها . وفندق  
«تاج محل» المعدود من أفحشم فنادق العالم هو سيد القباحة  
.... وتاج راسها في مدينة بومبای عاصمة القبح في العالم .  
وفي بهو الفندق أسرت عيني فتاة مجوسية . والمجوس أتباع  
«زرادشت» خرجوا من إيران بعد الفتح الإسلامي واستقرروا  
في بعض مدن الہند . وهم أهل جاه وثراء ، يمتلكون المصانع

والمصارف والمتاجر في بومبای ، و تتكون منهم أرستقراطية  
مالية في بلد المال . يرض الوجه رقيقو الحاشية ، تمتاز  
نساؤهم بحسن الذوق في ملبيسهن ، فلا يتخيرون تلك الألوان  
الفاقة التي تكالب هي والأعطار والبخور لتوقعك في شبهه  
إغواء مزمن طول إقامتك في الهند . والمجوسيات برغم ارتفاع  
ثقافهن احتفظن « بالصارى » (أو الملاعة الهندية ) ، وهو  
عرض من القماش يأتزرن به مبتدئات بالساقيين ثم يرتفعن  
به في دورات حلزونية حتى ينتهي به إلى ما فوق الخصر  
ويتناولن طرفه ليكون غطاء للرأس مارا بالكتف والذراع .  
الأيسر ، بينما يبرز الكتف والذراع الأيمن ، فيبدو  
النحر والصدر خارج صديرية موشاة . كذا كان هندام  
الغادة المجوسية التي رأيتها تدخل بهو « تاج محل » في تلك  
الليلة ، رافعة الرأس ، مشوقة القد فوق حذاء من الطراز  
الأوربى على الكعب ، سوداء الشعر بضة الأعطاف ،  
يضاء الوجه واسعة العينين ، تشرق فيها حدقات عسلية جريئة  
ضريحية غير رجراجة . هذه « المادونا » عبادة النار كانت كفيلة  
وحدها بأن تنسى قبح الفن المعماري في بومبای ، لو لم تختلط  
ذكرها في مخيلتي بعـادة الدفن عند الم Gors اختلاطاً

بسيكوباتولوجيا يجعل الطبيب النفسي أولى بقراءة صفحاتي  
هذه من أى شخص آخر . وكلمة الدفن هنا استعملت في  
أوسع معاناتها إذا كان لها أن تعنى « التصرف بأجساد الموتى »  
فالمحوس لا يدفون موتاهم ولا يحرقونهم .... وإنما  
يتركونهم للعقبان تنظف عظامهم تنظيفا .

أما كيف اختلطت ذكرى الحسناء المحسنة في مخيلتي  
بعادة الدفن عند أتباع « زرادشت » فذلك عائد إلى أنتي ، كسائر  
من السائرين ، ارتقيت ذروة تل « ملبار » وسط الرياض  
البساطة لاري « أبراج السكون » تتوح أعلى موضع في  
بومباي . والكتاب الدليل يوصيني بهذه النزهة عند الأصيل  
لأنمتع بـ « پانوراما » المدينة ، ولأنه الوقت الذي ينقل فيه المحسوس  
موتاهم إلى « أبراج السكون » .

وبعد الصعوبات المعتادة عند باب المدافن — وعقدتها في  
جميع بقاع الأرض ليس لها سوى حل واحد ، هو قطعة من  
معدن ثمين أو رخيض نقش عليها وجه ملك أو رمز سلطان —  
استطعت أن أدخل في حرم « أبراج السكون » ، لا في  
الأبراج ذاتها حيث لا يسمح بدخول إنسان سوى الحانوتية .  
وقادني واحد من سدنته « معبد النار » إلى بهو أقيم في جانب منه

نموذج مصغر للأبراج .

— يدخل حاملو الجسد من هذا الباب . أما أهل الميت فلا يلمسون قيدهم خشية الدنس ، ولا هم يحتازون باب البرج إلى داخله . ويقفل حلة الجثمان الباب خلفهم ، ويتوجهون نحو واحد من هذه التوابيت المحفورة .

— لست أرى توأيمك .

— ألا ترى هذه الصفوف الثلاثة من حفرات تحيط البئر المستدير وسط البرج ؟ هنا يوضع الجثمان . فإذا كان لرجل وضع في الصفال الأول من ناحية السور ، وإذا كان لامرأة وضع في الصف المتوسط ، وإذا كان طفلاً وضع في صف الحفر الصغيرة التي تحيط البئر المتوسط . وبعد أن يرفع الحمالون الكفن الأبيض عن الجسد العاري يخرجون من حيث جاءوا ويوصدون وراءهم الباب الحديدى . وهنا تنقض العقبان من فوق أسوار البرج ومن فوق الأغصان . ويتولى أمر عها العيون فيفقأها ، والمحاجر والمحدود فيفرغها ، بينما تشتعل العقبان الأخرى بتجريد بقية اللحم عن العظم . وفي وقت يتراوح بين ربع ونصف ساعة — حسب شهية الطيور وتباع للإيراد اليومى — يعود العقبان إلى الأسوار والأغصان

تار كين هيكلة نظيفاً . وتعمل الشمس والهواء والأمطار عملها في المياكل المكشدة طول العام ففتشتها وتجرفاها إلى البئر الوسطى حيث يحيلها الزمن تراباً . أما الماء فينصرف من أربع قنوات تخرج من قاع البئر في الجهات الأربع . ويمز فيها خلال مرشحات من الفحم البلدى والرمال الناعمة .

— لست أجد لهذه المرشحات فائدة تذكر بعد أن قامت الطيور الجارحة ب مهمتها خير قيام . . . . من الوجهة الصحيحة

— فيديتنا أن الجسد هو دنس «أحرى مان»، عنصر الشر أما الروح فهي العنصر الظاهر ارتفع عن الجسد ليتصل به «أرموزد». وطريقة التصرف بالموتي عندنا - إلى أنها تقوم على أدق قواعد الصحة العامة - ترمى إلى تطهير أمنا الأرض من اللواثة التي تحل بها لو أن قذرة من الماء الذى غسل المياكل العظمية تصرف إليها دون ترشيح .

وخرجنا إلى الحدائق الخلابة التى تتوج هامة تل «ملا بار» فأشار دليلي إلى برج منعزل وقال :

— هنا توضع أجساد المترحرين ولكن بصرى كان زائغاً بين أغصان أشجار اللبخ والجميز

و«البنيان» والجهنمية من ناحية ، وبين أسوار الأبراج من ناحية أخرى . فلم أنس أنني التقيت حين قدومي بأهل الموتى يتشحون بملابسهم الأبيض الناصع ، وعلى رؤوسهم طراطير ذكرتني بخوذات حرس «فريديريك» الپروسی ، إلا أنها أقصر منها كثيراً . وسمعت تصايم العقابان وهي تنقض من كل صوب على الفضاء الواقع فوق الأسوار لتخفي وراء هذه ثم رأيتها تعود إلى مستكناها فوق الأشجار أو تخلق لحظة لحط فوق الأسوار متسلقة ، وكانتها ضيوف الوليمة يخرجون من قاعة المائدة في طلاب المقاعد الوثيرة والقهوة والسيجار.

ولمحت رجلاً نائماً تحت شجرة فسألت قلقاً :

— أطمئن إلى نوم هذا الرجل هنا بين سمع هذه العقابان

وبصرها ؟

— لا خوف عليه .

— كيف لا خوف عليه ؟ وإذا أخطأت التقدير فحسبه

من نوع الرجل الذي تغدت به توا ؟

— هذه الجوارح أيها السيد لا تختلي بين الجيفه والإنسان

الحي . ثم أرجوك أن تلاحظ بأن الميت الذي ترى أهله هناك

لم يكن رجلاً بل امرأة .

— لعلك عرفت هذا من السرعة التي عادت بها الطيور  
إلى أسوارها وأشجارها؟

— أنت واسع الخيال أهيا السيد. ولقد أخبرتك بأن  
الوقت الذي تستغرقه في « عملها » يتوقف على شهية الطيور  
في الغالب.

— حسبت الطيور الجارحة على شيء من « الجمال نترى »  
فقال دليلي وهو لا يحاول إخفاء تأقه من نكتة الباردة  
التي لا موضع لها :

— إنها ياسيدى جنازة فتاة من أجمل فتيات بومبای ،  
ابنة المستر « خوادينشاه » المالى الكبير ، ماتت في ريعان الصبا  
ردنى دليلى إلى الجد بقسوة لم يكن ليشك فى أثرها ،  
فقد تجهمت أساريرى لا اتباعا لقواعد اللياقة أو احتراما  
للموت ، بل لهذا التفصيل في الخبر . ومهما حصلت قلبي  
بالفلسفة والتشكك ، وأيا كان فعل السنين في إحساسى ،  
فسأظل حتى الشيخوخة المتقدمة ضعيف الأعصاب أمام  
حادثين : امرأة جميلة أو غير جميلة ، شابة أو غير شابة ، تبكي  
بكاء هادئا ، مخلصة في بكاؤها . وموت الشابة الجميلة في بتولتها  
ولا أذكر جيدا إذا كنت رأيت الم Gorsiea الحسنة .

في بهو « تاج محل » مساء ذلك اليوم بالذات أو مساء اليوم التالي . وقد لبست أتطلع إليها طول السهرة بلا تحفظ مأخوذا بجماليها وحسن هندامها ، وكانت تلبس إزاراً سماوياً اللون موشى الأطراف بالذهب فوق شريط أسود . ولكن صفتين بارزتين تملكتا على حواسى في ذلك المساء ، وعوضتاني خيرا عن منظر بنات « أليون » العجاف ، اللائى كن يملأن بـهـو الفندق ( لماذا أفكـر بالبسـكـلـيـتـ كـلـاـ رـأـيـتـ انـجـلـيـزـيـةـ قـبـحـةـ ؟ ) : القوام الأهيف ، والرأس المرفوع كأنـهـ مـلـكـ فـوقـ عـرـشـهـ .

وإـذـ أـثـقـلـتـ ذاتـ مـرـةـ بـأـ كـلـةـ هـنـدـيـةـ ، وـلـمـ أـشـفـقـ عـلـىـ نـفـسـيـ بـمـاـ التـهـمـتـهـ مـنـ توـابلـ ( يـظـهـرـ أـنـ الـهـنـدـوـنـ يـرـوـضـونـ أـجـسـامـهـمـ عـلـىـ النـارـ مـقـدـمـاـ ! ) أـصـبـتـ بـتـخـمـةـ جـعـلـتـنـيـ أـقـضـىـ لـيـلـةـ تـعـرـفـ عـنـدـىـ باـسـمـ « لـيـلـةـ الـكـوـاـيـسـ »ـ لـكـثـرـةـ ماـ رـأـيـتـ فـيـهـاـ مـنـ « بـغـلـاتـ العـشـرـ »ـ وـذـوـيـ الـأـرـجـلـ الـمـسـلـوـخـةـ وـالـعـيـونـ الـمـشـقـوـقةـ بـالـنـكـوـسـيـ .ـ وـلـكـنـ كـابـوسـاـ وـاحـداـ ضـرـبـ مقـايـيسـ الفـزعـ الـذـىـ قـدـ تـشـيرـهـ كـلـ هـذـهـ الـبـاعـيـعـ .ـ قـدـ رـأـيـتـ كـأـنـ أـرـقـ تـلـ « مـلـاـبـارـ »ـ فـيـ أـصـيـلـ يـوـمـ ،ـ وـأـعـادـ الـحـلـمـ فـيـ ذـهـنـيـ بـعـضـ أـدـوـارـ زـيـارـتـيـ الـمـاـدـيـةـ لـأـبـرـاجـ السـكـونـ بـدـقـهـ جـعـلـتـهـ كـالـحـقـيـقـةـ .ـ ثـمـ رـأـيـتـنـيـ أـشـيعـ نـعـشاـ مـجـوـسـيـاـ وـسـطـ رـجـالـ مـتـشـحـينـ بـالـبـياـضـ وـعـلـىـ رـمـوسـهـمـ

طراطير ذكرتني بخوذات «فرديريك» البروسى . وأخرج حمالة العرش الجثمان فى كفنه الآييض . وفتحوا باب البرج . وتنحى أهل المائة — ألقى الحلم فى روعى عن طريق غير جلى بأن الميت أثى — ولكنى واصلت السير حتى دخلت البرج مع الحمالة ورأيتهم يضعون الجثمان فى حفرة من حفرات الصف الثاني صف الاناث ! — ويجردونه من كفنه . . . وإذا بها ذات الوجه الصبور والقد المشووق ، الغادة التى استأسرت بلي ليلة « تاج محل » . هي بذاتها وإن كانت مقللة العينين كالنائمة ولكن صفتين تملكتا على حواسى فى ذلك الحلم : القوام الأهيف ، والرأس المرفوع كأنه ملك فوق عرشه !

وهنا أذكر أنى صرخت وارتيميت مغشيا على . والغريب فى الأحلام ازدواج الشخصية والحواس . فقد كنت عارفاً تماماً المعرفة أنى مغمى على ، وكأن هناك عينين وبصيرة تجردت عنى وجعلت تنظر إلى على هذا الحال كأنى شخص آخر . وأذكر وأنا فاقد الوعى أنى نسيت فتاني ولم أعد أفكرا إلا بالعقبان الكاسرة وبأنهـا سوف تنقض علىـ من بين الأشجار وأعلى السور تحسبني « إيراداً » . ومع إدراكى خطورة الوضع الذى أنا فيه، ومحاولتى النهوض قبل أن تخطىـ

العقبان مخبرى، فـإِن قوة خارقة، كـأنها بضم صخور وضعت  
على صدرى، كانت تحول بيني وبين القيام .  
وصحوت تلك الليلة أتصبـعـرـقاـ. وكان البحر مضطرباـ  
بعضـالـاضـطـرـابـ، والأـمـوجـ تـصـدـمـ نـافـذـىـ الزـاجـاجـيةـ المـسـتـدـيرـةـ  
فيـشـءـ منـالـعـنـفـ، حتىـلـقـدـ رـأـيـتـ أنـأـوـمـنـ عـلـىـ قـلـلـهـ بـذـلـكـ  
الـغـطـاءـ المـعـدـنـىـ المـسـمـىـ بـالـأـنـجـلـيـزـيـةـ «ـالـأـضـوـاءـ الـمـائـةـ»ـ  
ولـمـ أـسـطـعـ مـنـذـ لـيـلـةـ «ـالـكـواـيـسـ»ـ، أـنـ أـفـصلـ فـيـ مـخـيـلـتـيـ  
غـادـةـ «ـتـاجـ محلـ»ـ عنـ تـلـ «ـمـلـابـارـ»ـ وـ«ـأـبرـاجـ السـكـونـ»ـ

# جاج الشفرا

هل تذكر حديث «مية الحياة»؟ فقد احتج من ذكريات طفولتي حكاية عين الماء التي يصل إليها «الشاطر حسن» بعد أهواه ليلاً منها جرته ويختمها ويعود بها إلى «ست الحسن والجمال». ونسىت فوائد تلك المياه وشكل الجرة . ولكن بغرقى آذنتين من نحاس كأنهما بقيتا لي من «الحدوة» . وإذا كان الأمر كذلك فهى أول مرة فيما أعرف تقصى جدة على حفيدها شتى «الحواديت» ولا تعذر إليني في آخرها بالجملة التقليدية «وأدیني كنت عندهم وجيت . ولو ما كاتش طاقىتي مخروفة ، لكنني جبت لك فيها فحة ومسلوبة» . بل هي تلقى إلى حجره بآنية من نحاس وتقول له «آدى الجرة اللي ملاها الشاطر حسن من مية الحياة ، جبته لك أمارة ، يابن الأمارة» . أقول لك إن اثنتين من هاته الأواني النحاسية بغرقى ، وقد وضعتهما على المكتب أمامي وأنا أكتب هذه الصفحة .

كلام يعد بهما نقطة من «نسمة الحياة»، الآن، ففي الواحدة  
كما ترى بعض الماء القدر، وأععقاب سجائر يوم عمل كامل  
كعذارى في الماء أظهرن بضا

سابحات به وأخفين بضا  
وفي الثانية وردة أكثر أحمراراً من وجنتيك يا جميلتي! <sup>١</sup>  
منقوش على جوانب الأولى ثلاثة طواويس أدارت  
رؤسها لتنظر الريش حول منابت رقبتها، أما الثانية فهي  
عطل إلا من خطوط متوازية في وسط جسمها المتflex كالقرعة،  
وتحول رقبتها الصاعدة نحو فوهتها كزهرة اللوتس.

لو أن هاتين الآنتين روحًا ولسانًا فصيحاً لتحدثتا إلى  
كل يوم عن طرائق الأقدار بأكثر مما يمكن أن تتحدث به  
المسلة المصرية في ميدان «الكونكورد».

فقد امتلأتا ذات مرة «نسمة الحياة». كل لست ساخرآ <sup>٢</sup>  
أرجو أن تصدقى إذا علمت بأن كلامنها تمثل الهندية المقدسة  
التي يحملها الهندوسى من «بنارس» على ضفاف «الكنج» في  
شمال الهند، حتى «راميششارام» في الطرف الجنوبي لتلك  
البلاد التي تقاد تعادل قارة من القارات بترامى أطراها  
وتعدد أجناسها ودياناتها وألسنتها.

طريق الحجيج الأكبر الذى يمر بالمعابد الكبرى في  
«بنارس» و«پورى» و«تانچور» و«مادورا» و«راميشفارام»  
وقد أكون نسيت معبداً أو معبدين .

وإذا كان الحاج يقضى في العصور الحديثة بضعة أيام في  
القطارات حتى ليبلغ غايته في «راميشفارام» ، فكم كان يقضى  
قبل مد السكك الحديدية ؟ كان الهندوسى يقتني الجرة النحاسية  
ويترعها من مياه «الكنج» المقدس عند «بنارس» بعد أن يكون  
ودع أهله . فقد يندر أن يعود إليهم من حجيجه الطويل ،  
ولإنما يعود ابنه الأصغر رجلاً حنكته التجارب ، وسمت  
نفسه في جيرة الآلة . أو هو أيضاً لا يعود إذا ما مسته  
القدس طويل الشعر والأظافر . يعيش بالقليل الذي يوجد به  
عليه الخiron ، ويقضى الأشهر صواماً متبعداً في كهوف  
الجبال أو منعطفات الطرق أو أبواب المعابد ، أنيس الأولاد  
والزواحف ، ومضيفة القمل والصيّان والهوام .

هذا إذا كانت الكولييرا وغيرها من الأوبئة لا تحصده  
ضمن من تحصد ، أو «الكобра» لا تصرعه في دقائق معدودة ،  
أو أنه لا يرتقى تحت عجلات الإله «ياجانات» فتسحقه سحقاً

وتلاشى روحه ، دون هوادة وبلا تنازع ، في تلافيف  
«النيرقانا» الموعودة

أما اليوم فقد تكفى الحاج أيام معدودات أو أسبوعين ،  
يحمل أثناءها جرته وقد أحكم ختمها بالقصدير حتى يصل إلى  
«راميششارام» ، ويتقدم داخل الهيكل في قدس الأقداس ،  
وينبسط على وجهه يتمتم تعاويذه وصلواته . ثم يقوم إلى  
الصنم فيفضح ختم الجرة النحاسية وينضجها بما فيها المقدس .  
وماذا يفعل البراهمة بآلاف الآلاف من هذه الأواني  
النحاسية أفضل من يعها لأمثالى من السائرين ؟ فأستعملها  
منفحة للسجائر أو زهرية ، وأضعها على مكتبي أستوحىها  
فصلا من كتاب رحلتى الهندية .

اشترىهما نحاساً بالرطل ، وقد احتفظت فوهتاهما بيقايا  
القصدير ، وسدت يد الحاج ثقباً في رقبة إحداهم بالرصاص  
الذى لا يزال أمامى أثراً من آثار الورع وتقديس الماء الذى  
احتواه هذه الآنية .

لمن الصنم في معبد «راميششارام» بطرف الهند الجنوبي ؟  
وأنى لي أن أعرف وقدس الأقداس حرام على غير الهندوسى ؟  
وإذا كنت في معبد «مادورا» قد استطعت أن أصل حتى

باب الإلهة « مينا كشى » ذات الثلاثة نهود وعيون السمكة ، وألمح في الظلمة بريق الذهب والنحاس وضياء الشموع ، وأشارت عبق البخور ، فإني هنا في معبد « راميششارام » لا يصرح لي بأكثر من ارتياض معابر المعبد وعرصاته ومراتبه ، وهى فدادين من الأرض تحيط بهاآلاف الأعمدة وآلاف الآلاف من التمايل القبيحة المفزعه ذات الألوان الصارخة . وتقوم عليها قباب هرمية ناقصة « جوپورام » ذات أربع قواعد ، ترتفع إلى أكثر من عشرين متراً فوق الأرض . يصييك الدوار وأنت تحاول أن تفحص بعض دمها وصورها وحلياتها وتماثيلها . ولقد عد أحد غلاة الاحصائيين التمايل الزخرفية والصور الحائطية وغيرها في معبد « مادورا » فكانت نيفا وثلاثين مليون دمية وصورة .

وإذا كنت قد تمكنت في « مادورا » من أن أصل حتى «الميضة» الداخلية التي تعادل عشرة أضعاف أكبر حوض سباحة شهدته ، ينحدر إليها الدرج من جوانبها الأربع في شكل أرصفة متعاقبة تسعى فوقها إنسانية ملحوقة ممزوجة مقشرة دامية ، ذات بثور ودمامل وجروح ، لتعقسل في الماء وتبلط فيه وتبقيق وتخبط ، فإنه لم يصرح لي في « راميششارام »

بالوصول إلى حوض مائة رحمة من سدنة المعبد ومنته ، فمن ذا  
الذى يرى ميضة المعبد الهندوسى مرة ويرغب أن يجدد  
التعرف بها و بالمعتسلين فيها ؟

لمن الصنم في معبد «راميشفارام» بطرف الهند الجنوبي ؟  
قيل هو للاِله «شيقا» وقيل بل للبطل «rama» فارس  
«الرامايانا» ومظهر من تناصح شيقا . والواقع أن الصنم  
الأَكْبَر في قدس أقدس معبد «راميشفارام» ليس لشيقا  
ولا لقمص من قمصانه . إنما هو لعضو من أعضاء شيقا يعد  
في الهند من أقدس أعضاء هذا الاِله ، بل هو أقدس مظهر  
يعبد فيه شيقا ، حتى لقد عرف عن هذا الاِله أن قال فيه  
«هو من شيقا ، وشيقا منه . من عبده فقد عبدي » .

ويحيى ! كأنني انحدر في وصفى على درج «ميضة» المعبد  
لأصل إلى تلك المياه الخضراء الآسنة حيث يعتزل من يتقرز  
البشر لمرآهم . مالى وقدس الأقداس ، وماى وشيقا ؟ أو ما  
علمت بأن بعض التماضيل التي تزين فرتونات وجوبورات  
معابد الهندوس مما قد يندى لمرآه جبين الفتيات ؟ أو ما ذكرت  
احمرار وجنات «الكويكر» الانجليزى وهو يحدثنى بما تصوره  
المناظر التي على أبواب المعابد ، ويصف لي حياة «الديقاداسى»

راقتات المعبد الموهوبات لضم الإِلَه أو ... لسدنته  
الأخاء بالأولى ؟

ويحيى إذا زل بي القلم فicketت كيف دخل بجمع الآلة  
على شيفا في خدر زوجته الجميلة بارفانى ! ويحيى إذا وصفت  
كيف صعر لهم خده وصعروا له خدهم وخرجوا غاضبين ،  
فقام بما سبقت الإِشارة إليه وكان الأصل في تلك العبادة  
الشائعة في الهند ، والتي ينتمي إليها أقوى المذاهب الهندوسية ،  
وهو المعروف بمذهب « النجاميين » .

ويحيى إذا أطبقت على هذه الأعمدة ، ونهشتني أنیاب  
الله يالى » بداعي المعبد ونزل « جانيشا » الإِلَه ذو رأس الفيل  
عن قاعدته فلف على خرطومه . قد لا أخاف الموت بقدر  
ما أخاف قذارة الزيت الذي نضح به الإِلَه الفيل في هذا  
الصبح ، وعفونة الماء الذي يغسل فيه الهندوسى تقرباً  
من الآلة .

وقد يكفى أن أذكر جولاتي في معابد بومبى  
وكراتشى ومدراس ومادورا وراميشفارام لتجسس أنفاسى  
هلعا ، وكأن صخرة « سيسيفوس » قد انحدرت من أعلى  
الجبل لتسقى على صدرى .

ويحيى من تلك النفوس الشقية ، سجينه حلقة التناصح  
تستغفر ذنو باً جنتها أجسادآلاف الإناسى والحيوان الذى  
تقمصت فيها .

فهذا رجل دخلت المعبد فرأيته منبطحاً بطوله فوق  
الارض المولحة ، أمام الثور « ناندى » ، لا حراك به كأنه  
الجثة الهاشمة . وعدت بعد ساعة من طوافي فرأيته في نفس  
موقعه لا ينبع ولا يتحرك . ومن يدرى كم يبقى منظرًا  
يستجدى رحمة « ناندى » بواب شيقاً وزوجته بارفاتى ؟  
وهذا برهمى غطى نفسه من أم رأسه حتى أخمص قدميه  
برماد نار اشتعلت تحت أقدام « جانيشا » أو « كالى » أو  
المخيفة « دورجا » .

ويحيى ماذا غرر بي فجئت أجوس خلال هذه الإنسانية  
الشقية تسعى حلقة الرأس إلا من ذؤابة شعر تتدلى ، وتأتزر  
بأقشة بيضاء مشكوك في ياضها ، وقد نقشت على جبينها رمز  
الإله شيقاً بالرماد أو بأصباغ حمراء وصفراء .

قليلاً من النور أيها السادة ! هذا ما قاله « جوته » عند  
احتضاره أقوله أنا أيضاً لمجرد أن زل بي القلم وأنا أكتب  
عن رحلتي من جزيرة « كروشادى » إلى معبد « راميشفارام »

في جنوب الهند.

وهذا النور يبدوا لي فجأة في فقرة رائعة من «الأوديسية» ذكرتى بها عبادة رمز من رموز شيئاً، وحكاية شيئاً حينما دخل عليه الآلهة في خدر زوجته.

ذلك حين يعلم «هيفستوس» إله النار الأعرج الصناع بما أصابه في زوجته، أفروديت، من إله الحرب «آريس». فينصب حبائله وشباكه حول خدر زوجته ربة العشق والجمال. ويجمع آلهة الأولمب يشهدهم على خطيبتها، أما الآلهات فيلزم من خدورهن احتشاماً.

يتضاحك الآلهة — وهكذا أراد القدر للبشرية أن يضحك الرجال من الرجال حين تخونهم زوجاتهم — من بلية «هيفستوس». ويسخر بعضهم من موقف إله الحرب في مخدع إلهة الحب. ولكن «أبوللون» الجميل، أبوللون رب القوس والقيثار والشعر، يميل على أذن «هرميسيس» ويسر إليه:

— لستمني على القدر أن يمددك في أحضان فينيوس حتى ولو دفعت الثمن غالياً هذه الأحبوارات تشد وثاقك، وسخرية الآلهة بزميلنا آريس.

فيومىء إليه هرميس قاتلا :

لَا كونن من أسعد الأرباب حتى لو وقعت في أضعاف  
هذه الأحابيل ، وفاجأنى في أحضان ثينوس كافة الآلهة  
والإلهات !

من قصة خدر شيفا وبارفاٰتى خرجت عبادة تناسلية  
مرذولة .

ومن خدر أفروديت وعشيقها خرجت عبادة الجمال للجمال  
من خدر شيفا خرجت العبودية والذلة .

ومن خدر أفروديت خرج الفكر الحر والإحساس  
الرقيق المطلق .

قليلا من النور أيها السادة ! فلم أك أقصد إلا وصف  
حجيجي الذى عدت منه بآنيتين من نحاس احتوتا مياه الكنج  
المقدس ذات مرة ، واستحالتا في غرقى <sup>إِلَّا</sup> الواحدة إلى زهرية ،  
والآخرى إلى منفضة سجائر .

بت ليلي على خوان معمل أحياه مائة بجزيرة « كروشادى »،  
وفي معدنى أكلة برهمانية قدمها لنا موظف بالمعمل ، ولم يتنازل  
أن يشاطرانا الأكل لأن مرتبته البرهمانية العليا لا تسمح له  
بمأكولة غير البراهمة حتى ولو نزلوا ضيوفا عليه . هى وجة

نباتية فرض فيها أن تعين على الورع والعبادة ، ولم أر أكلة  
أشد منها قدرة على إلهاب الحواس بما بث فيها من شطة  
وفلفل وبهار .

بت ليلي وأنا فزع من الحشرات والزواحف ، أستعرض  
في ذاكرتى جميع ما سمعت أو قرأت أو رأيت من ذوات  
الأربعة والأربعين والعقارب ، ومن ثعابين تقضى ، وحيات  
تلقم العيون من محاجرها ، وصلال ذات فحيح وقعقعة .

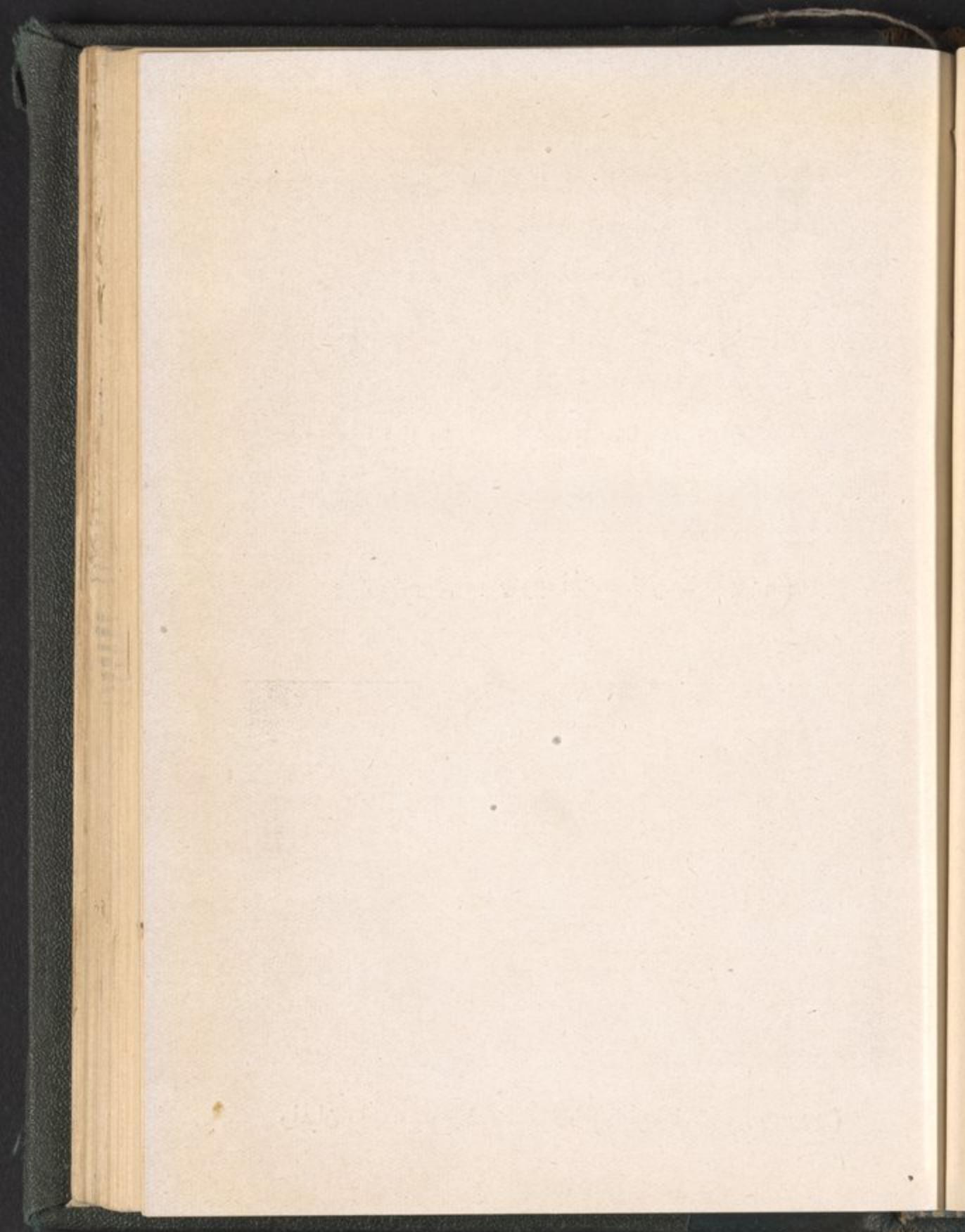
وفي الصباح عبرت ذراع البحر بين الجزيرة وأرض الهند  
في قارب يغترف الموج اغترافاً . وفي المحطة أخبرنا بأن القطار  
الذى أتينا لأجله لا وجود له إلا في مخيلة البرهمي الذى  
حدثنا بأمره . وقال صاحى الهندى : دعك وزيارة  
راميششارام .

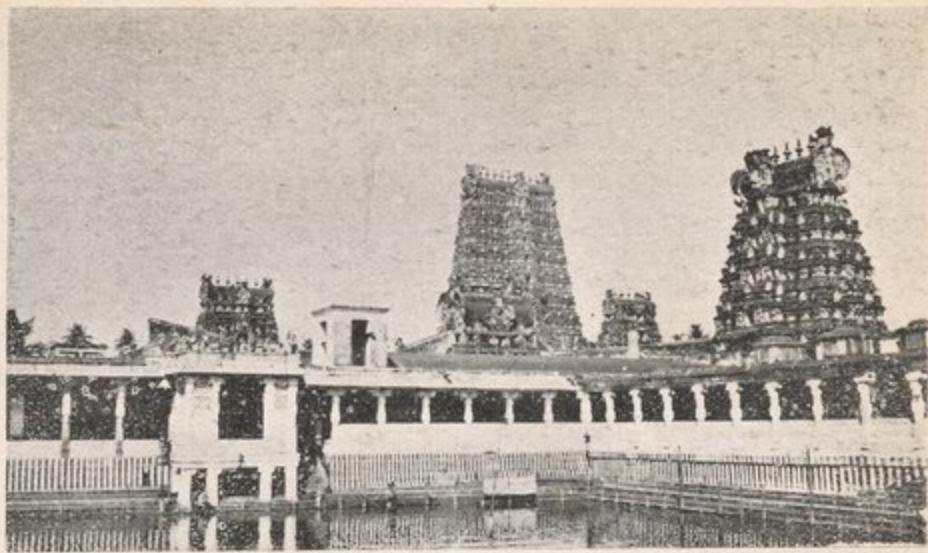
فأجبته فى عناد : أىكون معبد راميششارام آخر سلسلة  
المجيج الهندى على قيد سبعة أميال من هذه المحطة ولا  
أزوره ؟ إنك لا تعرقنى . لأسيرن إليه على قدمى إذا  
اقضى الأمر !

واستأجرنا « باندى » أى عربة هندية تجرها الثيران .  
لم تكن عربة فيكتوريا أو أى نوع من الخناطير . ولم تسكن

حتى عربة كارو . إنما هي هيكل عربة خرج علينا من مقابر العربات يسعى . أنت تعرف ولا ريب عربات الدبש ذات العجلات الكبيرة ، تلك التي ينقضم وسطها فينقلب صندوقها إلى الوراء بدبشه . انزع عنها صندوق الدبش فماذا يبقى ؟ تبقى « الباندي » الأنيقة التي ركبتها وصاحبى الهندى لنحج إلى راميشفارام ، وقد تدللت سيقانتنا بين عجلتيها الكبيرتين . وسار السائق يجذب إليه جبالاً ألمج بها ثوريه في خياشيمهما طريق الحج الأخير إلى راميشفارام ، في تلك الأرض الفانية وسط الركام والمعابد المهجورة . بين أشجار « البنيان » والقرهندى ونخيل « البالمير » ، وتحت أعين أصنام أقيمت على أبواب القرى للآلهة حتى تغدق على الأهلين خيراتها ، وللشياطين حتى تنعم عليهم بالبعد عنهم .

طريق الحج إلى راميشفارام . تحوطه المضائق أقامها الأغنياء إما لأنفسهم أو وقفاً على فقراء الحاجاج يا وون إليها هرباً من القيظ الاستوائي ، وراحة من عناء السفر الکعابي ، وهو خير عندي من ركوب هذه « الباندى » وكأنى بها آلة من آلات التعذيب في القرون الوسطى ، تلك الآلات التي كانت تفচص عظام الأبرياء كما يفصص الثوم ، وتغمز





معبد هندوسی — جنوب الهند (أُنظر صفحه ١١٧ )



راهبان بیاب معبد بوذی — سیلان (أُنظر صفحى ٨١ و ١٨٥ )

جوانهم كتعماز التين .

طريق الحج الأخير إلى راميششارام ! هذه معابد أعاد  
الصالحون بناءها . أو أصلحها من قصوا حياً لهم يتذرون أموال  
المساكين ، فاستعاضوا عن إصلاح أنفسهم بإصلاح المعابد  
المهجرة .

وى ! هذه بعض قبور أولياء المسلمين . جرداه قرعاء  
مسلوخ عوارضها ، كأنها في هذه الأرض الهندوسية مخلوقات  
يتيمة منسية ، تائهة حائرة .

وى ! وهذه صلبان خشبية برصاء كتعاء . مقبرة مسيحية  
ترمق المقابر الإسلامية بعيون جافة غائرة . و كأنها تقول  
لها «أى حظ عاشر رمى بك و بي في أرض لا تعرف الرحمة » ،  
**كلا !** ها هو ذا روح القديس « فرانسوا أكزافييه » ،  
يرعى حملانه الأحياء والأموات . فهذه كنيسته تلمع جدة  
وبياضا ، أقامها له أحفاد أتباعه . وهذا هو أسقفها الفرنسي  
يتقبلنا ب بشاشة في باحتها المترفة . ويقدم لنا « باندى » ملاكي  
نشد إليها ثورينا بدل الهيكل الخشبي الذي حملنا إليه .

قلت في مكان آخر « كل شيء نسي » ، حقا ! فهذه  
« الباندى » الملاكي بدت لنا في تلك الظفيرة المحرقة كأنها أحدث

موديلات الپاکار والرولزرویس ، بينما هي لا تتعذر نوعاً من التختروان مقوس السقف المصنوع من الحصير . يدخل المرء إليها فيجد جزءاً من قاعها هابطاً كأنه حوض ماء فارغ فيجلس على حافته ويدلي رجليه في تجويفه . وقد يمكنه أن يظل أو لا يظل من كوة أقل انفراجاً من كوات عربات السجن . ويقيني أن عربة السجن خير من هذه الباندى الملائكي التي تفضل بها علينا أسقف كنيسة « فرانسوا كرافيه » .

وينما نودع القس الطيب الكريم وتتلقى بركته ، وقد ملت أربت على كلب له وسط كلاب سائمة لاهثة غائرة العيون ، دست دون عمد على طرف واحد منها ، فاستدار وعضني في ساق عضة قطعت الجوارب وجرحتني جرحاً طفيفاً .

وأخذنى السامری إلى صومعته ليعالج جرحي ، وقد خشيت أن يكون العلاج في هذه البلاد الروحانية عن طريق التعاويذ والتمائم . ولكن منظر زجاجة اليود ومسحوق البوريك أدخل على نفسي بعض الطأينة المؤقتة . فإذا كان الكلب مكلوباً يا أبناه ؟

— لا تخف يا بني ، إنني أعرف أغلب هذه الكلاب

السائمة ، فلا تخش مرض الكلب . إنما يغلب على لعابها أن يكون متسمها نتيجة ما تلغ فيه من عفونه .

— شكرآ يا أبـت ، ورجـائـي إذا ظـهـرـتـ عـلـىـ غـرـيمـيـ أـعـراـضـ الكلـبـ أـنـ تـرـسلـ لـىـ تـلـغـرـافـاـ أـخـ .

طريق الحج الأخير إلى راميششارام ! ولم أر بعد شيئاً من كوة التختروان الفخم الذي أكمل على بقية ضلوعي وسلسلتي الفقرية ، حتى نزلناـ بـيـابـ المـعـبدـ الـكـبـيرـ ،ـ نـحـنـ حـجـاجـ رـامـيشـشارـامـ .

ومع أن صاحبـ الـهـنـدـىـ قالـ لـىـ عـقـبـ عـصـةـ الكلـبـ « يـقـيـنـىـ أـنـ إـلـهـ رـامـيشـشارـامـ لـاـ يـرـيدـ أـنـ يـرـاكـ » فقد استطعتـ أـنـ أـدـورـ فـ عـرـصـاتـ مـعـبـدـهـ ،ـ وـأـذـرـعـ لـيـوانـاتـهـ وـمـعـابرـهـ وـمـمـرـاتـهـ .ـ وـأـكـتـشـفـ تـمـثـالـيـ «ـ الـوـفـاءـ الزـوـجـيـ »ـ ،ـ وـأـشـتـرـىـ آـنـيـةـ نـحـاسـيـةـ أـسـتـعـمـلـهـاـ آـنـ طـقـطـوـقـةـ سـجـاجـنـ ،ـ وـآـنـيـةـ أـخـرىـ أـضـعـ فيهاـ الـورـدةـ الـتـىـ تـعـطـرـ جـوـ الـحـجـرـةـ حـولـىـ .

وـ خـرـجـتـ مـنـ مـعـبـدـ رـامـيشـشارـامـ وـ قـدـ قـلـدـنـىـ أـحـدـ كـهـتـهـ عـقـداـ مـنـ أـزـهـارـ الـيـاسـمـينـ ،ـ هـوـ التـحـيـةـ التـقـليـدـيـةـ الـتـىـ يـقـدـمـهـ الـهـنـدـىـ لـأـقـرـبـائـهـ وـمـعـارـفـهـ .

# ويحك يابن بوطة !

ويحك يابن بوطة ، أفسدت علينا نساء « ذيبة المهل »  
فما كفاك أن تتزوج منها باليمين وبالشمال . بل عز عليك  
أن يمشين في الطرق عاريات أعلى الجسد الأسمر المشرب  
بحمرة ، بارزات النهود ، مستديرات الأكتاف ، مبسوطات  
الصدر والظهر . فرحت تأمرهن بالتستر والمحاجب .

« ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ، ولا سلطاتهن تغطي  
رأسها . ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة .  
ولا يلبس أكثرن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى  
أسفل ، وسائر أجسادهن مكسورة . وكذاك يمشين في  
الأسواق وغيرها . ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن  
أقطع تلك العادة ، وأمرهن باللباس ، فلم أستطع ذلك .  
فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة في خصومة إلا مستترة  
الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لي عليهن قدرة »

ومع هذا تعرف أيها القاضى الفاضل بأنه كان لك  
«جواركسوتهن لباس أهل دهلي يغطى رؤوسهن ، فعاينهن  
ذلك أكثر مما زانهن إذ لم يتعدنه»

وتحلى في التمدح بصفاتهن : «ولم أر في الدنيا أحسن  
معاشرة منها ، . ثم ، فقال لي الوزير سرا . . . فهل لك أن  
تزوج برئاسة السلطان ؟ فقلت نعم . فاستدعي القاضى والشهود ،  
ووquette الشهادة ، ودفع الوزير الصداق . ورفعت إلى بعد  
أيام فكانت من خيار النساء . وبلغ من حسن معاشرتها أنها  
كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة  
لا يظهر عليها تغير »

ومع ذلك تصر على أن يغطى النصف الأعلى من  
أجسادهن . كان الجمال الذى تتمدحه وتمتنع به يمنة ويسرة  
يحب أن يختفى عن أعين الناظم . فلتستأثر بنسائك وحدهن .  
مالك وغيرهن ؟ وأى عيب في الكاعب أن تبدو محاسنها ؟  
إنما العيب أن تظهر القباحة فتقذى بها العين ، وتعافها النفس .  
ليتك عرفت طرفا من أخبار يونان القديمة أيها القاضى  
العالم ، وكيف مجدوا وخلدوا الجسد العارى . إذن لاخذت  
عن أهلها الأجداد — كما أخذنا — عبادة الجمال فى أحسن صور

الجسم البشري وأبدع أوضاعه . ولا يقنت — كاً أيقنا —  
أنهم إذا كانوا أورثوا العالم المتمدن تلك الروائع الفنية  
الخالدة ، فلأن عيونهم تفتحت على أجسام كاملة التنساب ،  
ولعلمت أنها الشیخ أن أعمدة « الپارتنون » وفروتو ناته  
خرجت من رأس « مینوفا » بقدر ما خرجت من سیقان  
« فینوس » الملسماء ، ووقفة « أبوللون » يرمي بالقوس أو  
يداعب القیثار .

إن الله جميل يحب الجمال يا مولانا القاضي . وقد دخلت  
جزائر « ذيبة المهل » فوجدت سكانها « أهل صلاح وديانة  
وإيمان صحيح ونية صادقة . أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب .  
وإذا رأى إلا إنسان أحدهم قال الله ربى و محمدنبي ». مسلمون  
ومسلمات حسن إسلامهم قبل أن تنزل بهم ، ولم تك نساوهم  
تسعين عاريات لرذيلة . فلما إذا شعرهن بالسوءة ، وتلبسهن  
ذنو بال لم يدركن من أمرها شيئاً قبل قدومك ؟

ألم ترعو حين « أمرت مرة بقطع يد سارق بتلك الجزر  
فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس » ؟

ثم ألم تر كيف حاولت أن تستبد برأيك في النساء فلم  
 تستطع لأنك كا تقول « لم يكن لك عليهن قدرة » ؟

ومع ذلك تعود مراراً وتكراراً إلى التمدد بمحالهن  
وحسن معاشرهن وتصر على أنك «جهدت أن تكسو  
النساء فلم تقدر على ذلك».

خذلتك نساء «ذيبة المهل»، يابن بطوطة. وإن لاصدق  
لاتصارهن، كاً أصدق لاتصار غيرهن في مشارق الأرض  
ومغاربها، وفي كل العصور.

ثم كانت لك الغلبة في النهاية، ولكن بعد موتك. فلم  
تعش لتنعم وتفرح باتصارك.

ولقد زرت الجزر بعده بستمائة عام، فوجدت النساء  
محجبات، يتوارين خلف الأبواب إذا ما مر بها الغريب،  
ويرمقنه بعيونهن الحوراء الحارة من فوق أسوار حدائقهن.  
ويحك يابن بطوطة! أفسدت علينا نساء «ذيبة المهل».

لمست أقدامى جزائر «المحلبيب»، كاً تعرف الآن وأنا  
أتحرق شوقاً لمشاهدة الجزر التي قال عنها رحالة طنجة الفذ  
«وهي إحدى عجائب الدنيا»، وأمنى النفس بلحظات هى  
ملك للفن الخالص حين أمعن سائر روحي برؤية الجمال  
الراوح والغادى في غير احتشام زائف وخجل متصنع.  
نزلت جماعتنا إلى البر ترتد جزيرة مالي (المهل) التي

بدت لنا كالأحلام . ونحن نراها على امتداد البصر زمرة  
في عقد الجزر المرجانية التي تحيط باللاجون . نور هادىء ،  
وسلام فردوسى ، فيه للنفس راحة بعد عناء ، واطمئنان بعد  
قلق . وسط ذلك البحر الداخلى المنبسط كصفحة من البلور  
المخضر في زرقة ، ترتد عنه أمواج المحيط مزبداً متكسرة فوق  
أسنة الشعاب الغارقة . ميناء طبيعى وسط الأقيانوس ، تحيط  
به مجموعة جزر تخللها فرجات خطيرة ، لا سهل إلى  
اجتيازها أو تحطم السفن فيها تحطيمها ، ما عدا المعبر الوحيد  
الذى لا يسلكه إلا كل ملاح قدير . قال ابن بطوطة « وجزائر  
ذيبة المهل ، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب ، والمهل ( بفتح  
الميم والهاء ) ، نحو ألفى جزيرة . ويكون منها مائة فما دونها  
مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب  
إلا منه . وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل  
من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر . وهى من التقارب بحيث  
تظهر رؤوس النخل التي باحداها عند الخروج من الأخرى .  
فإن أخطأت المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح  
إلى المعبر أو سيلان ،

وقد نسرح فيها البصر ساعة الأصيل ، فلا نمل من نظر الشمس

تجمع نضارها من فوق رمال الشاطئ، وعقيقتها وزمردها  
من تيجان النارجيل، كالحسناه «نوزيكا»، تلم مطارفها وثيابها  
بعد غسلها على شواطئ «شيريا»، تأهباً للرحيل.

نزلت جماعتنا إلى البر ترتاد جزيرة «مالي». وكان حادثاً  
هاما قدومنا على تلك الجزر التي لا يرتادها السائحون  
ولا تدخلها بوآخر الركاب. لذا سرنا يتبعنا جمع غفير من  
أهل الجزيرة. وفي أقل من نصف ساعة أتممنا دورتنا في عاصمة  
جزائر الملديب.

طرقات نظيفة، هي بمأوى بساتين أكثر منها شوارع. تحف  
بها من الجانبين أسوار المساكن صنعت من جذوع القصب  
ووش النارجيل. ترتفع من خلفها هامات شجرة الخيز  
وأشجار المنجية واللبان وجوز الهند، ترسل أغصانها المورقة  
من ناحية لتلتقي بأغصان الناحية الأخرى، حتى لنسير تحت  
سقوف وقباب من ذلك النبت الاستوائي المسرف في كل  
شيء، في ارتفاعه، وازدهاره، واشتباك فروعه، وكثافة  
أوراقه، وثقل عبئه.

وعدنا إلى المرسى، فاستاذنت أن أبقى ساعة أخرى في  
تلك الحنة الأرضية، أتملي من جمال غريب على كل حواسى،

لَا أظن الحياة تهوى لى رؤياه أو مثيله مرة أخرى .  
ضحك الكوماندر فـ . . . وقال : أهى الأشجار أو ما وراء  
الأسوار تنتزعك منا يا عم حسن ؟

وقال القومندان الأسكندندي : أتحسبك عائداً إلى السفينة  
قبل العشاء ؟

وقال رئيس البعثة الانجليزى : مطاردة الغواص أيضاً  
يا فوزى ؟

وقال من لم ينس هوميروسه : حذار أن تأسرك  
« كاليسو » في كهوفها !

وقال زميلي المصرى : إنت رامي جتنك ؟  
ولم أجب ، بل قفلت راجعاً إلى الجزيرة يحدوني أمل  
خفي ، كانت ضحكات الصحاب في القارب الذي حلمت  
إلى السفينة تنذرني بأنه أمل خائب .

فربما كانت الفلال البنفسجية ، وحيف الأشجار  
المجهولة ، وصفحة نهاء لازوردية يغشاها نقاب المساء الشفاف ،  
وعبير الأزهار الغريبة ، هي التي أومأت إلى أن أعود .  
ومن ذا الذي يحدوه المساء السارى في أعطاف الرياض فلا  
يحيب ؟

ولكن الصوت الذى أهاب بي لم يصدر عن جنة الشعاب  
المرجانية وحدها . وإنما هو صوت داخلى يرن في أرجاء  
أرواحنا إذا اخليجت بنظرات العيون الحوراء ترنو من خلف  
الأبواب فوق أسوار منازل « مالى » المليئة بالأسرار ،  
واهتزت بلحة من شعور فاحمة تزيينها عمامه صغيرة كالزهرة  
ترشقها الحسناء في فودها ، واتفضت لوسوسة حلی تزين  
المعاصم السمراء والنحور النابضة الدافئة .

من يدرى ؟ ربما دخل المساء منازل الحسان ففتح أبوابها  
وهتك أسرارها . آه من النفس الشاعرة لا تفتأْ تهيم بالخيال ،  
وتومن بأن السر اس سرابا !

كانت المنازل مفتوحة ، وقفـت الحسان بأبوابها تحـدـجـنـي  
بنظراتها من بعيد . ولكن الأبواب كانت تـقـفـلـ كلـاـ قـرـبـتـني  
منـهاـ خطـوـاتـيـ ، فـلاـ أـرـىـ غـيرـ طـرـفـ رـدـاءـ موـشـيـ بدـوـائـرـ منـ  
فضـةـ ، أوـ ذـوـابةـ شـعـرـ تـزـينـهـ عـمـامـهـ كـالـورـدـةـ القـانـيـةـ .

كيف تخـفـيـ مـسـيرـكـ أـيـهاـ المـطـارـدـ اللـيـلـيـ ، وـمـدـيـنـةـ «ـ مـالـىـ »ـ  
مـنـ أـقـصـاـهـاـ إـلـىـ أـدـنـاـهـ عـرـفـتـ بـأـنـكـ تـخـلـفـتـ عـنـ صـحـابـكـ ،  
فـهـىـ تـرـبـصـ لـكـ ، وـتـعـدـ عـلـيـكـ خـطـوـاتـكـ ؟ـ مـنـ ذـاـ الغـرـيبـ  
الـذـىـ مـكـتـتـهـ الـقـرـيـةـ الصـغـيـرـةـ مـنـ الغـزـلـ ، وـمـقـامـهـ فـيهـ لـيـلـةـ أـوـ

بعض ليلة . وقد جاء إليها من بلاد بعيدة ، غريب اللباس  
مجهول اللسان ؟

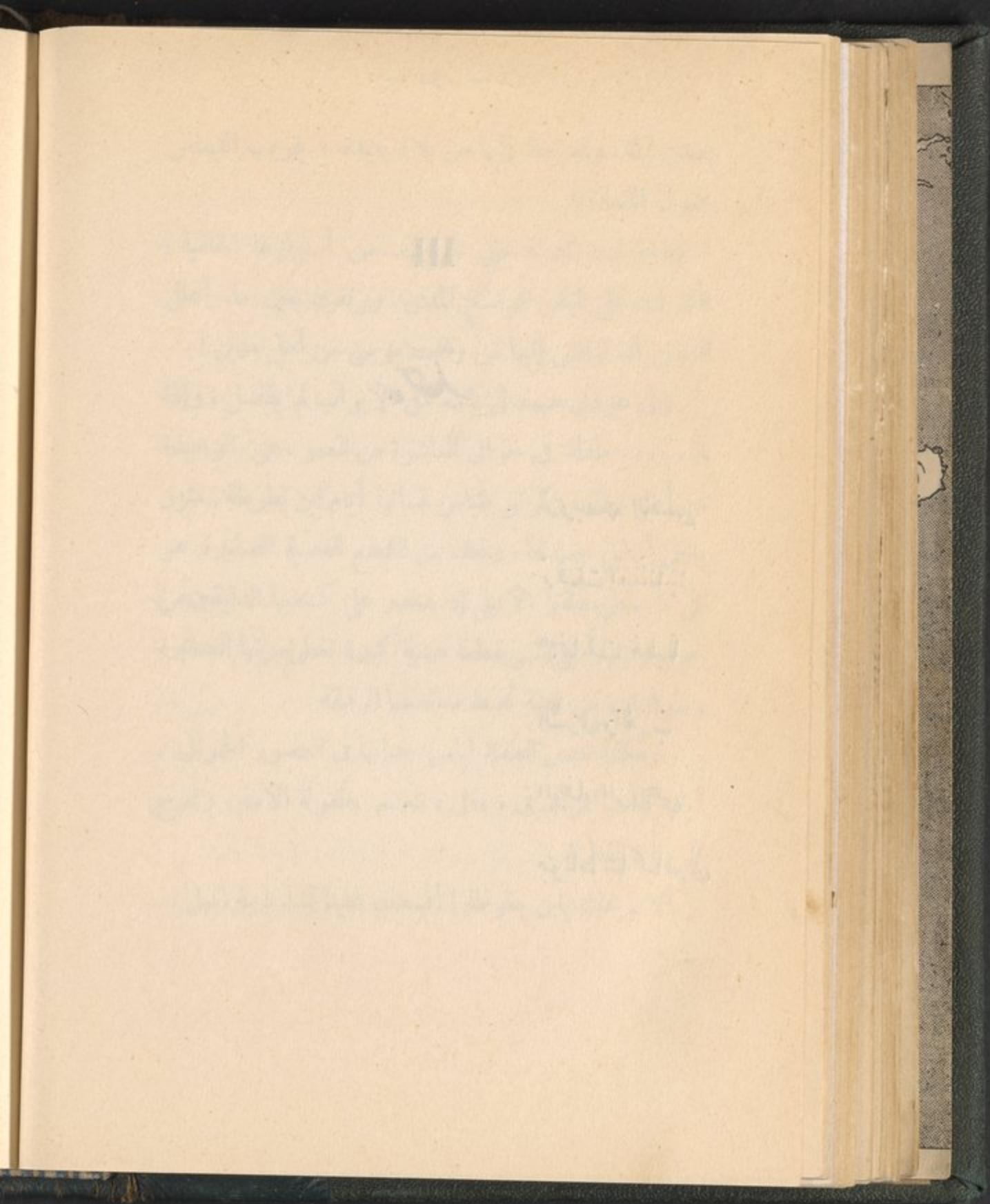
واخترقت المدينة حتى خرجت من أسوارها الخلفية ،  
فأشرفت على البحر الواسع المدى . ووقفت بعين ماء أعلل  
النفس أن توافيها من وافت موسى من أهل مدين !  
وفي عودتى صدمتى بباب من الأبواب لم يقفل ، وإذا  
به . طفلة في حوالي العاشرة من العمر ، هي الوحيدة  
من أهل « مالى » ذكرتى بلباس نسائها أيام ابن بطوطة . متزر  
يغطى أسفل جسدها ، وعقد من القطع الفضية الصغيرة هو  
كل ما يغطى نصفها الأعلى إذ ينحدر على كتفيها الدقيقين من  
حول رقبتها حتى ينتهي بقطعة فضية كبيرة تغطي سرتها الصغيرة .  
وسوارات من فضة تحيط معاصمها الرقيقة .

وهكذا تلبس الطفلة لباس جداتها في العصور الخوالي ،  
أيام كانت المرأة في « مالى » تنعم بطفوالة الأم ، وتمرح  
في برامة الفطرة .

ألا ويحك يابن بطوطة ! أفسدت علينا نساء ذيبة المهل .

جَدٌ

ترويجه التفسى  
ترفيات استثنائية  
مبخافت فطيبا  
الشرق والغرب  
الوفاء الزوجى  
جوناما ساكامونى



## ترويض النفس

نسمع كثيراً بأخباربعثات البحريّة ، وببعثات ارتياح القطبين ومجاهل القارات ، وتسلق جبال الهيمالايا . وكثير منا يميل إلى الاعتقاد بأنّ البعثة هي مجرد مجموعة من رجال إخصائين مجهزين بالآلات والعتاد اللازم ، تعدّهم الحكومات والجمعيات العلمية والأغنياء النافعون بما يلزم من المال .

وقد يكون هذا صحيحاً - ما خلا التجهيز بالآلات - في بعثة تسافر لتمثيل هيئة رسمية لدى هيئة رسمية أخرى . ولكنه لا يحتوى إلا جزءاً من الحقيقة في حالة بعثات الاستكشاف . فالمال أساسى فيها ولا شك . ولكنّه بدون الرأس الذى يدبر تجهيز البعثة وإعدادها لا قيمة له . ولكنه بدون شخصيات أعضاء البعثة ضائع لا محالة .

فالعنصر الإنساني هو كل شيء في نجاح بعثات ، حتى بعثات التمثيل في الاحتفالات الرسمية نختار لها رجالاً لبقين

حدقوا في الحديث واللبس والأكل والشرب والرقص .  
ولست مغاليأً إذا قلت بأن بعثات الاستكشاف قد تتطلب  
صلابة نفسية ، وقوة احتمال ، وشجاعة وإقداما ، أكثر من  
الجيوش الذاهبة إلى ميدان القتال . فهذه الجيوش تخرج إلى  
الحرب وقد راضت نفوس رجالها في السلم كل الرياضة ،  
وأعدتهم لكل ضروب الاحتمال والمقاومة . ثم إن روح  
المجاعة تتضاعف قوتها بزيادة عدد أفرادها .

أما في البعثات العلمية فليس من السهل أن تجد رجالا  
مدرّبين على الجهد المطلوب ، وفي غالبيها يكون رئيس البعثة  
وحده هو القاسم المشترك بينها وبين بعثات سابقة .

هذا إلى أن أكثر رجال البعثات مزانا هم أكبرهم  
سنًا . والسن عائق شديد دون القيام بأعمال تنوه بوقرها  
أعظم قوى الشباب احتمالا .

والبعثة فئة محدودة العدد . غير مجهزة كالجيوش بفرق  
خاصة لمهمات البناء والهدم ، وإعدادات الإقامة والرحيل .  
يعيش أفرادها معا طول الوقت ، أو قد ينقسمون إلى جماعات  
أو أفراد ، يتبع كل منهم مهمة مخصوصة في عزلة عن العالم  
قد تكون تامة ولمدة طويلة .

والبعثة لا تقف أمام عدو إنساني معروف الطبع ،  
ـ تستثير فيها حركاته كثيراً من الحماس وغير قليل من الروح  
ـ الرياضية . بل هي مجموعة بشرية أمام قوى الطبيعة .  
ـ والطبيعة عدو مخيف ، ذات مزاج قلب ، تهدم اليوم ما بنته  
ـ بالأمس ، وتدك في لحظة ما أقامته يد الإنسان في سور  
ـ أو سين .

سألت فيما بعد صاحبى الذى قدمنى إلى الرحالة العظيم ،  
قال لي : فى إحدى رحلاته ، وأثناء عاصفة ثلجية هائلة ،  
قام ليلاً يوثق من رباط خيمته . وفي تلك اللحظة فقد قفاز يده  
اليمين . وانقضت لحظات جعل يبحث فيها عن القفاز ، وهى  
لحظات معدودة ولكنها كانت كافية لتجمد أغلب أصابعه

والبعثة تتبع غرضاً عليها خاصاً قد لا يثير في الجماهير أكثير  
من اهتمام عرضي . بينما الجيوش تعمل ومن ورائها حكومة  
وصحافة ورأى عام وأمة تضطرم بنار الوطنية نساء ورجالاً  
وأطفالاً .

لذا تتطلب بعثات الاستكشاف من رجالها صفات ليس  
من السهل أن تجتمع لرجل : حاس بالغ لأغراض البعثة  
العلمية ، وإيمان بأقدارها ، وهمة عالية ، ونفس نبيلة ، وطبع  
دمث ، إلى ما هنالك من الصفات التي يكون بها الفرد قادر أعلى  
التفاني في خدمة المجموع ، مستعداً لكل أنواع التضحية . يضاف  
إلى كل هذا ثلاثة صفات أساسية : الطاعة في الظاهر والباطن .  
أى الطاعة الخلصة للرئيس ، والتمكن من مادة العلم المكلف  
بيحثها ، والتكون الحديدى للأعصاب والجثمان . نفس وجسم  
وعقل من حديد ، هذا ما تتطلبه البعثة من رجالها .  
ثم التجانس بين أفراد البعثة ، وهو شرط هام من  
شروط نجاحها .

وقد ضمت البعثة الأجنبية إلاّ كان لي شرف الاشتراك .  
فيها نائباً عن بلادى ، كثيراً من العناصر الصالحة .  
نفساً وعقلاً وجثثاناً للمهمة الشاقة التي أدهتها . ونجاحها كان

يمكن أن يعد نتيجة طبيعية لصفات رجالها الممتازة . ولكن مع ذلك أميل إلى اعتبار نجاحها شيئاً أقرب إلى المعجزة . ذلك لأنها كانت فاقدة كل أثر من التجانس !

تصور تلك المجموعة الأدمية ألقتها المقادير في بوتقة واحدة لتؤدي أشق المهام في أسوأ الأحوال . أربعون نفساً على سفينة طولها أربعون متراً وحملتها ثلاثةطن . ضيوف سجن عائم ينظرون إلى الخلاص من رفقاءهم قبل الخلاص من سجينهم .

جاءوا من الشمال وجاءوا من الجنوب ، جاءوا من الشرق والغرب ، جاءوا من جونات اسكتلندا وهدارات نيوزيلندا ، نزحوا من استراليا ومن جنوب إنجلترا ، غادروا الصعيد والوجه البحري ، عبروا إلينا من جزيرة مالطة ومن بلاد النوبة ، جاءوا من السواحل ومن البلاد الداخلية ، انتدبوا من الأسطول البريطاني العظيم ومن مجموعة البحرية المصرية التي جارت عليها العوادي منذ « نافارين » حتى عادت سفينة تعرج ، وسفينة تسعل ، وسفينة تمشي بانحراف كالسرطان . جاءوا سفرجيّة وبحرية وضباطاً ومهندسين ، كما جاءوا أطباء وعلماء وخراسين حديثي العهد

بالمجتمعات . أجناس ونشأت وطبع تعدد بعدهم . أربعون  
نفسا كانوا على ظهر السفينة الصغيرة أسوأ هنداً من منصر  
«على بابا» . وأبدع نظاماً من حرس «هو ايهول» . خمسهم  
لغته الانجليزية ولا يعرف كلمة عربية . والأربعة أخاس  
لغته مصرية لا يعرف أغلبهم غيرها .

رفعوا رؤوسهم ذات مساء من سبتمبر فوجدوا أنفسهم  
في عرض البحر ينظرون إلى بعضهم بعضاً ويقول كل فريق  
في نفسه : في أى بلية أوقعتنا المقادير ، وبأى رزية نكنا ،  
وكيف نعيش سوية على ظهر العباب تسعة أشهر !

ولم يدعهم لاتفكر بيليقهم طويلاً جو البحر الأحمر ،  
أشد أجواء الكرة الأرضية رطوبة وحرارة . وهو أسوأ ما  
يكون مناخاً في شهر سبتمبر ، الشهير الذي اختارته البعثة  
لاجتياز البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب ، حينما تكون  
الرياح شالية ، أى حينما لا يمكن للسفينة أن تتلقى نسمة واحدة  
تنخفض عن ركابها أثر الحر القاسي والرطوبة القاتلة !  
لم ترزاً فتة بفتحة ، بل تولى البحر الأحمر عنهم مهمة  
البلايا وإنهاك الأعصاب وعكلتها المزاج وجر الشكل

عشرة أيام بلياليها ، سليمانها بعدها خليج عدن عشرة أيام أخرى بلياليها .

وتجهمت شواطئ مصر العليا والنجاش واليمن والسودان والإرتريا والصومال ، فكانت ترسل عليهم لوافع سموها ، وطاردهم فيما بينها كأنهم فئة منبوذة ملعونة ، غضبت عليها شعوبها فأرسلتها على سفينة الملعونين الصالين .

كان من المستحيل أن يكون تجسس على ظهر السفينة .  
وكان هذا مصدر ضعف كبير في تكوين البعثة ، ومصدر متاعب كثيرة .

ومع هذا نجحت ، وأعتقد أن نجاحها كان نتيجة لرياضة نفس أعضائها في رحلاتها الأولى ، وخصوصاً في رحلتها عبر البحر الأحمر وخليج عدن .

ولم يكن للنفوس ذاتها فضل البده بهذه الرياضة . بل كان ذلك عائداً بالأولى إلى قسوة التناس الأول بين كل فرد من أفراد البعثة وزميله ، وبين أعضاء البعثة والسفينة وأجهزتها وبين جميع هؤلاء وجو البحر الأحمر الممليك المشقى .

ويظل للنفوس بعدها فضل استطاعتها أن تهضم هذه الرياضة ، وللرجال الفضل في تملك قياد النفوس وسياستها .

فيها استقرت الأمراض بين رجال السفينة في الثالث  
الأخير من رحلاتها الطويلة ، حينما استولى الضعف على  
أجهزتهم الإنسانية ، ونال من السفينة وآلاتها ، كما نالت  
الحوادث من أجهزتها ، صمدت النفوس بكل شيء واستعدت  
لكل طارىء ، واحتملت كل ضعف آلى أو جسماني .

وإن تردد الآن على لسانى قول الشاعر « وإذا كانت  
النفوس كباراً الح » ، فليس ذلك في عرض الفخر ، ولم تكن  
نفوسنا كباراً إلى الحد الذى تطلبه مهمتنا ، إنما نحن والحوادث  
رضناها على أن تبلغ ما بلغته من الكبر .

وبودى لو أتنا فى حالتنا الراهنة نفكر ملياً بما أقول . فليست  
الجيوش مجرد إعدادات ميكانيكية . بل هى قبل كل شيء ترويض  
النفس على احتمال الأهوال ، وإعداد نفوس الملايين من الناس  
عن طريق التعليم والتربيـة والتـدريب والـصحافة والـمنابر العـامة  
والأـمـثلـاتـ الـحـيـةـ — لتهـبـ فىـ أـىـ لـحظـةـ مـاـ يـسـمـونـهـ الدـفاعـ  
عنـ الحـمىـ ، وـ الدـودـ عنـ حـيـاضـ الـوطـنـ » . وهذه ليست مجرد  
ألفاظ جوفاء ، ونيرة وصياح . بل هى حقيقة رهيبة تقتضى  
من روح التضحية وقوة الاحتمال ، ومن الدرابة والاستعداد  
والمال ... وأكثر من كل هذا ... تقتضى من البشرية أرفع

وأنبل وأقوى ما فيها ، وهذه الصفات لا تصل إليها  
طائع الناس ما بين ضحية وعشها ، وإنما تتطلب تكاتف  
كل جهود أبناء الوطن الواحد ، نحو الغاية الواحدة ، بارادة  
واحدة ..

---

# ترقياتٍ سُتْرِيَّاً

تختلف سبل قيادة الرجال باختلاف طبائع القواد .  
فليس من السهل وضع صورة نموذجية لما يجب أن يكون عليه  
قائد الرجال . وإنما تدرس القيادة وتحل في أشخاص نوابها  
وقد يمكن الوصول بعد ذلك إلى شبه قواعد عامة للقيادة تلقنها  
الشيبيه ، ولكن هذه القواعد لا تستطيع أن تخلق من التابع متابعا .  
فقائد الرجال يولد كذلك . وهو في الشعوب الفطرية يأخذ  
مكانه من القيادة بحكم صفاته الطبيعية . أما في مجتمعاتنا المنظمة  
فكثيرا ما يعطى الحلق للي بلا ودان بحكم الوسط الذي نشأ  
فيه هذا الأزرع ، وتبعا لوريقات مدموعة تعززها وساطة  
عائلية أو ما إليها تصل به إلى مركز القيادة . حتى ليجد فيها من  
يتملقا ويشهد له بأن القيادة لم تك إلا له ولم يك إلا لها .  
ويلوح لي أن أول ظاهرة تبدو على من ينال مركز قيادة  
لم يخلق له هي التكشير والشخط والنظر ، وقرع المواتد بقبضته

اليد ، إلى ما هنالك من مظاهر الأمر والنهاي الفارغة التي لا تصدر عن تفكير خاص واتجاه معين ، وإنما هي أشبه ببعير مثل التراجيديا الخائب . كل ما يعرفه من التمثيل هو الزعيم من أم يافوخه ، والتلويخ بالأكف والمرفقين .

وإدخال القيادة مرتكزة على صفتين أساسيتين : الشخصية أولاً ، وفهم الرجال ثانياً .

أما الشخصية فقائمة بذاتها *sui generis* لا يتفرع عنها أمر آخر . أما فهم الرجال فتتفرع عنه صفتان من أهم صفات القيادة : معرفة القائد تمام المعرفة **كيف تنفذ أوامره** ، ومعرفته بدقة متى وكيف يكافئ المحسن .

ولم أقل **كيف يعاقب المساء** . فالعقاب هو والجعير والشحط عندي سواء بسواء . ليس أسهل على القائد أو الرئيس من أن يعاقب أو أن يشحط . ولكن الصعوبة في متى وكيف يتسم ويتبسط ، ومنى وكيف يثبت .

ولست الآن في عرض الحكم على مملكة القيادة عند قومandan سفينتنا الأسكتلندي فليس هذا شأنى . ولكنني أود أنأشهد له بإحدى صفاتها الهاامة : إنه عرف **كيف يكافئ رجاله** ، وتحيز اللحظة المناسبة لكافأتهم .

ولم يكن الأمر سهلاً . فإنه وإن تفاوت بحارة السفينة  
في ملكتهم ، فقد أدوا واجبهم بكل ما أوتوا من قوة  
وإخلاص وكفاءة . ثم إنهم كانوا نخبة من البحرية المصرية ،  
وقد الاختيار عليهم للقيام بمهمة أدرك ولاة الأمور دقتها  
وصعوبتها ومشاقها . وقد امتدت مهمتهم إلى تسعه أشهر دون  
هوادة ، لا يعرفون فيها جمعة ولا أحدا ولا عيدا . ومهمة هذا  
شأنها لم تك تسمح لغير الصالح بالبقاء . وقد صلحوا كلهم إلا  
اثنان لم تطاوعلهما حالتهم الصحية فأعيدها فوراً . كيف إذن  
يكافأ هؤلاء الناس وهم أفراس رهان ؟

كوفي واحد منهم حوالى الثلث الأخير من الرحلة .  
وهو رجل أوى من النباهة الفطرية والشخصية والكفاءة  
في أعمال البحر وأعمال الصيد ما لم يترك مجالاً لتذمر إخوانه  
وهم أدرى الناس بتفوق زميلهم .

وسافرت السفينة في رحلتها الأخيرة متوجهة شمالاً بغرب  
شطر السويس . وقد أيقن باقي الرجال أن ترقياتهم رهينة  
بالرئاسة العليا في القطر المصري . وأنها سوف تقرر أياماً  
وشهوراً عقب عودتهم إلى الإسكندرية . وربما نسى ولاة  
الأمور شأنهم بغضي المدة فتغاضوا نهائياً عن مكافأتهم .

بِهَذَا لَمْ يَفْكُرِ الْقَوْمَنْدَانُ الْأَسْكَنْدَرِيَّ لَحْظَةً وَاحِدَةً . فَعِنْدَ  
مَا اقْرَبَتِ السَّفِينَةُ مِنِ السُّوِيْسِ اجْتَمَعَ بِي وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ يَوْدُ  
أَنْ يَعْلَمَ التَّرْقِيَاتِ فِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ . وَافْتَقَ مَعِيْ عَلَى الْأَسْمَاءِ  
وَعَلَى كَتْهَانَ خَبْرَهَا . وَرَجَانِي أَنْ أَتَصَلَّ بِالرَّئَاسَةِ الْعَلِيَّةِ  
تَلْيُفُونِيَا مِنِ السُّوِيْسِ لِأَحْصَلَ عَلَى الْإِذْنِ بِاِجْرَائِهَا قَبْلَ عُودَةِ  
الْسَّفِينَةِ إِلَى الْأَسْكَنْدَرِيَّةِ . وَقَدْ تَمَّتْ موَافَقَةُ الرَّئَاسَةِ الْعَلِيَّةِ  
صَبَاحَ وَصُولَنَا إِلَى السُّوِيْسِ ، وَبِقِ الْخَبْرِ مَكْتُومًا .

رَسَتِ السَّفِينَةُ فِي بَحِيرَةِ التَّسَاحِ أَمَامَ مَدِينَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ .  
وَأَمْرَ القَوْمَنْدَانَ ضَابِطَهُ الْأَوَّلَ أَنْ يَجْمَعَ الرِّجَالَ بِهِمَّةِ طَابُورٍ  
اسْتَعْرَاضِيِّ . ثُمَّ أُفْضِيَ إِلَى رَئِيسِ الْبَعْثَةِ بِالْغَرْضِ مِنِ الطَّابُورِ  
وَهُوَ إِعْلَانُ « التَّرْقِيَاتِ » ، وَبَأْنَ الْمَحْظَةِ جَاءَتْ لِيَعْلَمَ رَئِيسَ  
الْبَعْثَةِ مَا قَرَرَتْهُ رَئَاسَتَهَا الْعَلِيَّةِ فِي إِنْجْلِيزْتَرَا بِشَأنِ الْبَحَارَةِ .

وَوَقَفَ بَيْنَ صَفَيْنِ مِنِ الْبَحَارَةِ وَالْبَحَارَةِ الْوَقَادِينِ ،  
وَوَقَفَ إِلَى جَانِبِهِ رَئِيسُ الْبَعْثَةِ وَأَعْصَاؤُهَا . وَطَلَبَ مِنْ ضَابِطَهُ  
الْأَوَّلَ أَنْ يَتَرَجمَ خَطَابَهُ جَمْلَةً جَمْلَةً . وَأَذْكَرَ مِنْهُ بَعْضَ فَقَرَاتِهِ :  
— أَرِيدُ وَأَنَا أَعْلَمُ التَّرْقِيَاتِ الَّتِي وَافَقْتُ عَلَيْهَا الرَّئَاسَةُ  
الْعَلِيَّةُ صَبَاحَ الْيَوْمِ أَنْ أَعْبُرَ لَكُمْ عَنْ إِعْجَابِي بِكُمْ ، وَثَنَائِي عَلَى  
الْمَجْهُودِ الرَّائِعِ الَّذِي اسْتَطَعْتُمْ بِهِ أَنْ تَقْدِمُوا أَعْظَمَ خَدْمَةً لِبَعْثَةِ

علمية كبرى . وأتم من وراء ذلك قد أديتم واجبكم نحو  
بلادكم إذ رفعتم من شأن البحريه المصريه ، ودافعتم عن شرف  
الرايه المصريه . وأظهرتم العالم الذى كان يتبع أخبار البعثه  
على أن في مصر رجالاً قادرين على ارتياح البحار ، لا في حماية  
السفن الكبيـرة ، بل على ظهر باخرة صغيرـة كانت محل إعجاب  
رجال الملاحة في كل مكان . فأنا أهنئكم وأهنىء مصر بأمثالكم  
وأخيراً أرجو أن يدرك كل من يسمع اسمـه منكم عند تلاوة  
قائمة الترقـيات أنه استحق الترقـية كل الاستحقاق ، ونالها  
عن جـدارة .

ثم بدأ في تلاوة القائمه حتى جاء على آخرها . . .  
وإذا بها تضم أسماء جميع البحارة ، والوقدان ، والسفرجـية !  
كان « إخراج » هذا المنظر — على حد القول السـائـر —  
بديعـا . ولعلـى أـكـثـرـ من شـاهـدـوهـ تقـديرـاـ لهـ وـتـمـعـابـهـ . فـلـمـ يـكـنـ  
يـعـرـفـ بـسـرـ التـرقـيـةـ الـإـجـمـاعـيـةـ إـلـاـ القـوـمـدـانـ وـأـنـاـ ،  
وـالـقـوـمـدـانـ كـانـ إـلـىـ حـدـمـاـ « پـروـتـاجـونـسـتـ » فـيـ المـنـظـرـ ، فـهـوـ  
مشـغـولـ بـتـمـثـيلـ دـورـهـ الـهـامـ . أـمـاـ أـنـاـ فـكـنـتـ أـطـالـعـ عـلـىـ وـجـوهـ  
الـرـجـالـ أـثـرـ خـطـبـتـهـ الـتـىـ كـانـتـ تـبـدوـ لـهـ جـوـفـاءـ . إـذـ أـنـ كـلـ مـنـهـمـ  
كـانـ يـتـحرـقـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ النـتـيـجـةـ ، وـعـمـاـ إـذـ كـانـ مـنـ وـقـعـ

اختيار القوم من ان عليهم للترقية إلى رتبة أعلى . لذا كانت سيماء القلق تزاييد على وجوههم كلما واصل القوم من ان خطابه ورب قائل : منظر نعرفه . فهذه تائج الامتحانات في آخر كل عام دراسي تقدم لنا نماذج من هذا القلق المساور .  
هذا صحيح ولكن . . . .

ولكنك في حالتنا أمام رجال بسطاء تغربوا عن ديارهم تسعة أشهر لا يروا فيها المرائر ما بين مشقات وأمراض ، بله تعرىض حياتهم لأنخطار البحار وأنخطار الكشف العلمي في البحار .

لكنك لم تعاشرهم تسعة أشهر ، ولم تكن طبيبهم ، ولم تعرف سرهم وعلوهم ، ولم تتبع هو ايتها الكبرى وهي دراسة الرجال تمارسها فيهم .

ولم تكن تعرفهم كما عرفتهم واحداً واحداً ، ولم يكن حدبك عليهم مثل حدبى ، وخوفك من فشلهم مثل خوفى ، واهتمامك بنجاحهم مثل اهتمامى .

تصور هذا الموقف الشاذ : بعثة بحرية تخرج من بريطانيا — رأس الإمبراطورية التي قامت على أكتاف ملاحيها . وقادها البحريين فرنسيس دريك ، كوك ، نلسن —

وتهبط أرض مصر ، تستعيرها سفينتها العليقة الصغيرة  
بضباطها ومهندسيها وبحارتها وقادتها . وتسافر بها و بهم إلى  
المحيط الهندي تدرعه طولاً و عرضاً مدى تسعة أشهر .

بريطانيون يسافرون على إحدى سفن البحريه المصريه  
التي لا نعرف بعد إن كانت ناشئة ، أو هي من بوادي مجد  
دارس . فما إن تسير بهم السفينة بضعة أميال في البحر الأحمر  
حتى يجهروا بقلتهم ، ويعلنوا ندمهم على أن لم يستعيروا سفينه  
بريطانية !

بعثة بحرية تسافر يساورها الشك في أقدارها سلمتها إلى  
رجال من بلاد غير بحرية .

بريطانيون يتذكرون علينا في أول عهد الرحلة بحكاية  
« مالطة يوق » تكفل بقصها عليهم بعض ضيوف مصر ،  
من يرغدون بعيشها بقدر ما يعيشون على النوال من سمعتها ،  
و جر اسمها في التراب ، و تمحقير رجالها . وقد راحوا يجعلون  
منها حكاية مصرية ، وهي في الأصل نكتة تركية :

أرسل السلطان أسطوله لزيارة مالطة . فخرج الأمير الـ  
وأخطأ في حساباته الملاحية حتى تاه في البحر الأبيض . ثم عاد  
إلى سيده سلطان تركيا يقول « مالطة يوق ! »

فكان رجال البعثة يقصونها علينا كما سمعوها في الأسكندرية  
من ضيوفنا الأجانب ، منسوبة إلى البحرية المصرية في عهد  
أحد الخديويين : أرسل الخديو أسطوله الخ ... وعاد أمير  
البحر إلى سيده يقول له « مالطه ما فيش ! » وقد حفظوا  
كلمة « ما فيش » بنصها فهم ينطقون بالنكتة هكذا « مولتا  
مو فيش » .

أقول إنك إذا كنت عشت مثل تلك الأيام السوداء في  
أوائل عهد الرحلة ، ورأيت كيف يتطور رأى البريطانيين  
على السفينة شيئاً فشيئاً من السخرية إلى القلق ، ومن القلق  
إلى الاطمئنان ، ومن الاطمئنان إلى الدهشة ، ومن الدهشة  
إلى الاعجاب برجال البحرية المصرية ،  
فإنك حينئذ تدرك كيف تمنتت « بِإِخْرَاجِ» القومندان  
الاسكتلندي لنظر الترقيات الاستثنائية على ظهر سفينتنا  
الرئيسية في بحيرة التساح .

هكذا أتصور شعور الوالدين بنجاح أولادهما ، وكان  
شعوري !

سوف يعود إذا هؤلاء الرجال بعد غد إلى أهلهم في  
الأسكندرية يحمل كل منهم على ذراعه شريطًا جديداً فوق

ما كان يحمل ، وسوف يعرف أهلهم أنهم لم يفارقوهم عبثا .  
وسيطالعون زملاءهم بأمر ما كسبوا نتيجة احتالهم  
ورجولتهم .

لي ولثك أن نعود من أمثال هذه الرحلات محظيين  
بالتجارب ، مفعمين بالمعرفة . لي ولثك أن نقنع بكثير من  
الخيالات التي قام عليها تعليمنا وتشييفنا . ومع أن البحار  
البسيط قد كسب هو أيضا خبرة ومعرفة يختال بهما على أقرانه  
إلا أن أفقه الضيق ، وأفق أهله وعشيرته وأقرانه وأصحابه ،  
لا يحتمل ولا يكشف عن فوائد لرحلة المحيط الهندي أكثر  
من الفائدة المادية الأدية التي تتأتى من الترقية إلى رتبة أعلى .  
أما أن تشكونى تلك السيدة التركية الجليلة من أقرباء  
أحدنا فتقول « ترقية كويس أفندي ، ماليش . لكن يا إبني  
ضروري الشان الولد واحد نيشان . إيهت أفندي ! نيشان أظيم  
أظيم كتير » فهذا من خصائص الطبقات المتعلمة .

ثم تقدم رئيس البعثة بين الصفوف وخطب متداحا  
البحرية المصرية بلا تحفظ . وأعلن أن رئاسة البعثة في إنجلترا  
قدرت بمجهود الرجال أكبر تقدير ، وأنها قررت صرف  
مرتب شهر إضافي لكل واحد منهم مكافأة له . كما قررت

ضرب مدالية تذكارية من البرونز توزع عليهم ، ومن الفضة  
لتوزع على الضباط والعلماء .

وتقدمت أنا لأخاطبهم باللغة الوحيدة التي تصل إلى  
قلوبهم ، اللغة العامية ، تلك اللغة المحرومة ، المنبوذة من  
الدواير الرسمية لا لذنب إلا لأنها لغتنا الحقة ، لغتنا  
الصادقة . لازواق لها نخفي تحته عواطفنا الكاذبة كما نملك أن  
نحيط فوادنا الفارغ بطار من اللغة المتفحة الأوداج . ونخفي  
في قعقة القافات وتعطيشات الجيم قلة إيماننا بما أدخل علينا  
من ضروب الحضارة الغريبة العليا .

لا أحسبني في خطبتي بالعامية زدت عن العشرين كلمة ،  
استطعت أن أضمنها كل ما في نفسي من عواطف الشكر  
والثناء على الأبطال الحقيقيين لرحلة المحيط الهندي .  
وهتف الرجال للبعثة ورئيسها وقطنانها ، كما هتفوا بحياة  
أسعد الناس بنجاحهم .

وليقل القولون ما شاموا في الهاتف ، فإنني لعليم منذ  
سمعت هذا الهاتف الصادق أن ما يقال في الحط من قدره  
وقدر من ينالونه عن جداره ، ويطربون لنبراته ، قد أثاره  
الحسد والحقد والضغينة .

وإتي لفخور إذ أحس بأن خير ما عدت به من هذه  
الرحلة هو حب هؤلاء البسطاء الذى تجلى في كل مناسبة ،  
والذى أتيح له الظهور بشكل إجتماعي في هتافهم باسم طبيتهم  
وراعيهم .

ونادى الضابط الأول بالانصراف ، فتحولت الصفواف  
المنتظمة إلى رجال يتعاقبون ويهدى بعضهم بعضاً .  
هكذا عرف القومدان كيف يكافىء رجاله ، وتخير  
اللحظة المناسبة لمكافأتهم . وهذه إحدى الصفات الهامة التي  
تقوم عليها قيادة الرجال .

## حينما قمت خطيبا

ليتني أجد الورقفات التي خططت عليها عاجلا خطبتي  
قبل إلقائها مباشرة، حتى لقد اضطررت أن أتنحى مكانا خلف  
الستار في قاعة الجمعية الملكية لاكملا كتابة الخطبة التي كان  
على أن ألقاها في ذلك المكان عقب حاضرة رئيس البعثة .  
ولازلت أذكر فترتينه أفقية استندت إليها ووقفت أكمل  
خطبتي فوق زجاجها .

لأن هذه الخطبة كانت لغزا لم يتمكن من حله أصدقائي  
ويصعب أن يعترف الناس بقصورهم عن الفهم، وخصوصا  
فهم أصدقائهم حتى ولو فصلت بينهم تسعة أشهر من حياة  
مجهلة لهم ، على ظهر سفينة ضئيلة ذهببت تجوب البحار  
البعيدة .

فرحتي قامت في ذهن أصدقائي كنزة بحرية جميلة ، كما  
يركب الأغنياء يخوضون الحادثة ليطوفوا حول الأرض . لم

يُكَنُّ الأَصْدِقَاء لِيُشْكُوا لَهُ لَحْظَة بِمَا تَمَثَّلُهُ هَذِهِ التِسْعَة أَشْهُر فِي حَيَاتِي . وَقَدْ اعْتَادُوا مِنِّي كُثُرَة التَّنَقُّل ، فَحَسِبُوا أَنْ سَفَرِي فِي أَرْجَاءِ الْمَحِيط الْهَنْدِي حَتَّى أَبْعَدَ مِنْ خَطِ عَرْضِ ١٠ جَنُوبَ خَطِ الْإِسْتِوَاء ، وَحَتَّى مَدْخَلِ الْخَلِيج الْفَارَسِي شَمَالًا ، هُوَ وَسَفَرِي إِلَى شَمَالِ أُورُوبا وَشَمَالِ أَفْرِيقيَا وَبَعْضِ جَزَرِ الْبَحْرِ الْأَيْضِيْنِ الْمَوْسَطِيِّنِ سَوَاء بِسَوَاء . وَإِنَّهُ لِكَذَلِكَ لَوْلَمْ تَكُنْ حَيَاتِي وَتَجَارِيَّي عَلَى ظَهَرِ السَّفِينَةِ تِسْعَة أَشْهُرَ مِنْ أَشَدِ وَأَقْسَى مَا لَقِيتُ فِي حَيَاةِ مُلِيئَةِ الْصَّعَابِ .

فَقِيْ خَطْبَتِي بِالْجَمِيعَةِ الْمَلْكِيَّةِ حَاولَتْ أَنْ أَفْنِدَ مِبَاشِرَةً إِلَى الصَّمِيمِ الْإِنْسَانِيِّ تَحْتَ الْمَظَاهِرِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَظَهَرُ بِهَا الْبَعْثَةُ الْكَبِيرَةُ .

قَالَ صَاحِبِي الْكُوْمَانْدِرْفُ . . . وَهُوَ يَقْدِمُ إِلَى إِحْدَى السَّيَّدَاتِ فِي مَيْنَاءِ مَوَانِي الْمَحِيطِ الْهَنْدِيِّ :

— هُوَ فِي الظَّاهِرِ طَبِيبُنَا ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ فِي لِسُونَفَا .  
وَالسَّيَّدَةُ مِنْ هَوَاءِ مَطَالِعَةِ الْكَفِ وَمَعَانِي الْوَجْهِ .  
فَأَجَابَتْ فَ. . . ، وَكَانَتْ تَتَفَرَّسُ مِنْذَ لَحْظَةِ فِي يَدِي وَأَنَّ الْأَلْوَحَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّ الْكَلِمَاتَ قَاصِرَةَ عَنْ تَأْدِيَةِ الْمَعَانِي فَأَحَاوَلَ أَنْ أَصُورَ هَذِهِ بِأَصَابِعِي فِي الْهَوَاءِ :

— قد يكون صاحبك فيلسوفا ، ولكن أصابع يده تنفي  
كل صلة له بالفلسفة . إنها أصابع رجل من أهل الفن .

قال ف...:

— لعلى أسمأت التعبير . إن أهم ما يعني به الدكتور فوزى  
في الحياة هو دراسة الإِنسانية . ونحن حوله على السفينة ....  
نماذج دراسية من الطبقة الأولى .

صدق الكوماندر الذى يتكلم عن خبرة : ويصدر الحكم  
وفق ملاحظته الشخصية ، لاعن علوم قراءة الكف واليازرجة .  
فقد حفقت بعض أمنيتي في دراسة البشرية بحياتى الملاصقة  
لأربعين من مختلف الملل والنحل ، يعيشون مزدحمين في  
الحيز الضيق الذى تمثله سفينة طولها أربعون متراً .

وحاولت أن أُخْصِ دراستي البشرية للجمهور الذى جاء  
إلى دار الجمعية الملكية ينصرت لكل شىء إلا لمحاولة التغلغل  
في الصميم الانسانى للبعثة .

ثم في أى جو تكلمت ؟

هذا رئيسنا ليس يحيا إلا بذكرى محطاته العلمية  
واكتشافاته البحريّة . وهو يأقى على الأسماع طرفا من رحلتنا .  
العظيمة في صوت متنز هادئ ، ولهجة خطابية يلقنها

الإنجليزى أثناء الدراسة حتى يكون على استعداد دائمًا للخطابة  
في نهاية حفلات العشاء . وإذا كان رئيسنا اليوم متوعكا  
بعض الشيء ، فلم تختلف في غنته الأنفية نبرة الفخار بالبعثة  
التي أتقن تجهيزها ثم قادها إلى ختامها بنجاح باهر .

وهذا زميل لي يقول بالعربية ما قاله رئيسنا بالإنجليزية .  
معاذ الله أن يكون مترجمًا لكلمات الرئيس . إنما هو في كلياته  
وجزئياته كما هو في خطاباته نسخة مصرية صادقة لرئيسنا  
الإنجليزى . فليس من عجب أن يشارك في التغنى بالمحطات  
العلمية والاكتشافات البحرية . وقد كان عند حسن ظن  
الجمهور به إذ صور بجهود البعثة العلمي أحسن تصوير ،  
ولقى خطابه النجاح الذي يستحق .

ثم خرج علينا ثقيل لا أعرف من أين أتى ، وألقى خطاباً  
لم أفهم في أول الأمرقصد منه ، وقد ضمنه كثيراً من  
الآيات القرآنية والأشعار ، وكانت لهجته فقهانية واضحة .  
وانكشف الأمر حين انتهى هذا الدخيل في خطبته إلى  
الإشادة بذكرى منصب خطير كان هو الداعي بالذات إلى  
هذا الحفل لتكريم البعثة . وراح الخطيب المجهول يكيل  
القادات المقلقة والثاءات المفاؤلة مدواً وتسريحاً لذى المنصب

الخطير . ثم ثنى بو كيله ، وثلث برئاسة عليا يغلب على الفتن  
أن أمرها يهمه بنوع خاص .

وهكذا انتهت خطابة هذا المخلوق العجيب بأمثال  
« شوبش » ، لشخصيات لابد وأن تكون لمناصبها أهمية  
واضحة في مستقبله ، وكانت جالسة بالذات في الصف الأول  
من الحفل الكريم . ودعا ولي في الدعاء ، حتى رجوت أن يكون  
له منهم بعد هذا جزيل العطاء !

في هذا الجو وقفت أخطب ، وحاولت في خطبتي أن أنفذ  
مباشرة إلى الصميم الإنساني تحت المظاهر الخلابة للبعثة .  
حاولت أن أكشف الغطاء قليلاً عما تكفيه هذه المظاهر من  
جهاد نفسي أشد روعاً من كل جهاد عقلي أو جثماني .

لذا بدت لغزاً لا صدقائي حينما لم أطرق الموضوع لامن  
ناحية العلية ولا حتى من ناحية التصويرية . وقد أبي عطفهم  
على أن يحكموا على موقفي بما هو جدير به .

لقد كان نشازاً مزعجاً حين جئت أمام الناس أكشف  
الستار عما وراء الكواليس . وأظهرتهم على تلك المشتبكات  
المخيفة من اللواليب والعجلات والتروس النفسية ، استطاعت  
أن تدور بحكمة ، وأن تنتهي إلى التائج والمظاهر الخلابة التي

تكلفوا مشقة الحضور هذا المساء للإطلاع عليها . مع أن اختلاف معادنها وصريرها وقوتها وسرعة دورانها كانت تندر لا بوقوفها فحسب ، بل باشتباكاً كثاً وتحطيمها .

وقد حقت على كلية أستاذ في علوم النفس — بالسخرية القدر ! — حضر الحفلة بناءً على إلحاح صديق حسن

الظن بي :

— خطبة صاحبك لا هي من الأدب ولا هي من العلم في شيء . بصرامة كده لا هي في العير ولا في النغير .

ذلك كان حكم أستاذ علوم النفس على " حينما قمت خطيباً أكشف عن الحالات النفسية لأربعين رجلاً مختلفين جنسياً وثقافياً ودربياً ولغة وديناً ، حشدوا على ظهر سفينة صغيرة تسعه أشهر متواتلة ، قضوا أربعة أخماسها في عرض البحر . وللقدر معى سوابق من مثل هذه السخريات . فقد ألفت في مستهل شبابي رواية شعرية . وفي الليلة الأولى لتمثيلها الغنائى قدمت لأمير من أمراء الشعر . كان لي من العمر إذ ذاك أربعة وعشرون عاماً ، وهذا الشاعر في أواخر العقد السادس . وكانت الرواية استهلاكاً لحياته الأدبية ، بينما الشاعر في ذروة مجده الأدبي . إلى القارئ كلية أمير الشعر

المجيد مؤلف يبتدئ حياته الأدبية برواية نظمها شعراً من  
أو لها آخرها:

— كويسه كويسه ، الموضوع جميل . لكن بالحق ما  
عملتهاش شعر ليه ؟ كان حقك عملتهاش شعر !  
ربما كان هذا الرجل شاعراً كبيراً ، ولكن مما لاشك فيه  
أن نفسه كانت أصغر من شعره .

## الشّرقُ وَالْعَرَبُ

كان أول ما رأيت من الهند بحرا هادئا صافيا الزرقة ،  
قلعب فيه الحيات البحريه . وهي حيات سامة صفراء اللون ،  
تنفس الهواء وتتوالد فوق اليابسة ، ولكنها اعتادت الحياة  
في الماء ، وتطور تكوينها تبعا لهذه الحياة فتفرط ذيلها إلى  
ما يشبه زعنفة الذنب في الأسماك . وكانت كثيرة حول  
سفينتنا قبيل دخولنا إلى كراتشي . ما إن تشعر بقربنا حتى  
تغوص في الماء وهي تتلوى ، كأنها بريمات ذهبية تقبض صفحة  
من اللازورد . واسترعى بصرنا منظر الخدآت البحريه الضخمة  
يظهر منها على سطح الماء ما يشبه آذان فيلة غاطسة تهش بها  
عن أجسادها بعض الهوام .

ثم كانت كراتشي عاصمة السندر . وكانت الهند في يومي  
ومدراس وما دورا وراميششارام الخ . ولكن التماس الأول  
كان في تلك المياه الزرقاء تموج بالحيات السامة والخدآت

البحرية، وكان في الأبقار مسرحة في شوارع المدينة المادمة بعد التاسعة مساء. وكان في دار للسينما تعرض شريط هندية حسبته أحد المنتجات المسلسلة للسينما الهندية، ولكنني عرفت فيما بعد قيمة المصادقة السعيدة التي قادت قدmi لرؤيه هذا الفيلم النادر. فالسينما الهندية — كالسينما المصرى — هو الهند يراها أهلها بعيونه هو ليود لا بعيونهم. والجمهور هناك لا يقبل إلا على النوع ذى المناظر الفخمة المزيفة، والواقع الذى يقهر فيها البطل أعداءه بتلك الفتوة الأمريكية قوامها شك المقالب على طريقة المصارعة الحرة، وتسلق جدران قصور منيفة حيث اعتقل الأمير الأسمير امرأة شقراء، تترقب والده مقدم البطل الذى يجمع إلى جرأة ألل كاپونى طراوة رودلف وتخنث رامون. وقد يستعين الممثل الهندى فوق وجهه الأسمير تلك الشوارب العجيبة التى اعتاد وليام باول وأقرانه أن يقدموها لنا بالزوج والفرد كأنها بضاعة البائع المتجلو. أذكر شريطًا رأيته فى أوائل عهد السينما المصرى يكمن فيه وغد الفيلم ليطش يطله. ويمر به هذا الأخير فيشكه مقلبا وينظرح الاثنان أرضًا يدوران حول بعضهما فى شجار، ينهض أثناء الو احد مرة فيشده الآخر من ساقه شدة يتلقى

أثرها بشقلبة بلهوانية . وإذا لم يكن لي مطعن على المقلب  
كفرجة شائقة في ذاتها، فإني أتعذر على أن يكون هذا البطل  
وذاك الوعد مصريين . وكثيراً ما شاهدنا مشاجرات  
المصريين في الريف والحضر، فعرفنا ضرب الروسية والمسك  
بالتلابيب ، وشك المقلب على الطريقة البلدية ، وضرب  
الشلالات والبونية والبصق في الوجه، إلى هنالك من ضروب  
الخناق المصري . ولا أذكر أنني حظيت بروبية عراك في مصر  
كذلك الذي رأيت في الفيلم المصري . كالم اسمع بأمر المصري  
يرمح بفرسه هارباً فإذا ما انطلق في ظل حائط ، انقض عليه  
مصري آخر من أعلى الحائط فامتطى الفرس وراءه وأمسك  
بعناته وبتلابيب الوعد الهارب .

شبيه بأمثال هذه الألاعيب الصيانية ما رأيت في الفيلم  
الهندي الذي يقبل عليه المندوب في دور السينما الكبيرة . أما  
الفيلم الذي كان من توفيقى أن أظفر بروبياه في الليالي القليلة  
التي قضيتها بكراتشي ، فقد كان يعرض في دار متواضعة ،  
وعلى بعض عشرات من الدعماه . وهو فيلم غنائى قليل  
لأشخاص بسيط الموضوع .

غلام من أصل ملكى يحميه الآله « شيئاً » ، ويضطهد

وأمه مقتصب لعرشه . يقطن الغلام وأمه كوخا وسط الأدغال ، ويظهر لنا « شيئاً » بأذرعه العديدة يقود خطوات الغلام ويقوى من عزيمة أمه . ممثلة دور الأم معنية تعبر عن آلامها بأغان هي أفضـل ما سمعت من الموسيقى الهندية . وتصطحب الحوادث موسيقى الآلات تبين الأذن من بينها نواح « السارونجي » أو الكنمنجة الهندية . وكان تمثيل الصبي وأمه طبيعياً . والقصة كلها تحركها روح استسلام وإيمان وتجرد ، هي الروح الهندوسية العليا . وتنتهي الرواية بخروج الصبي وأمه عن العالم ، وانصرافهما إلى عبادة الإله الحامي ، وقد انصرفا بـإيمانهما عن العرش المقتصب ، وكل رواة هذه الدنيا الشريرة .

كان هذا الفيلم إذن خلاصة الروح الدينية التي نسمع بها عن الهند ، هند « اليوجي » و « السينيازي » ، هند المهاتما غاندي . وقد أشرفت على ناحية من نواحي العصيان المدني ، وفهمت المغزى الروحي للمغازل المنزلية إذرأيت هذا الفيلم المتواضع في قاعة متواضعة . ولكنني في نفس الوقت أدركت ناحية من نواحي الضعف في بعض الحركات الروحية حين تدخل ميدان السياسة العملية . فهذا الغلام الذي صان نفسه وصانته

أمه عن شرور الحياة (أو «كارما»، في الفلسفة الهندية) قد بلغ ذروة التلاشى النهائى («البراهمان»، أو «النيرفانا»)، ولكنه لم يغل بعمله هذا يد الراچا الذى اغتصب عرشه وعاث فى الأرض فسادا.

آمنت أن الصي ضرب للبشرية جمعاء مثلا عاليا في التجرد والتقوى. وأؤمن أن الروحانيات تضىء للإنسانية طريقها نحو السمو الروحي. ولكن قوة هذه الروحانيات تضعف إذا اكتفى بها سلاحا. فهى سلاح من نور يضيء في الظلام فحسب. بينما الظلام تكتتفه أسلحة مادية ربما لم تكن كلها شرا. فهذا غاندى يسمو بروحه، ويهرول بقبضته الملح الرمزية يتبعه العصاة متجردين. سلاحهم ضد بريطانيا مغزل ييتى، بينما تعمل الأنواك البخارية في بومبى حتى لتراحم لا نكشير، ويقوم المهندس бритانى بمحجز المياه في خزانات سكلويه تحىي موات العدد العديد من الأفدنـه، والطبيب бритانى بتحضير اللقاح والمصل لإنقاذ حياة الملaiين من الناس، وينظم السياسي أدلة الحكم في نيو دلهى. وكلكوتا ومدراس وبومبى لخير الامبراطورية العظمى. وخير الموظفين бритانيين، ويقيـل المصلـح الاجتماعـى من عثار

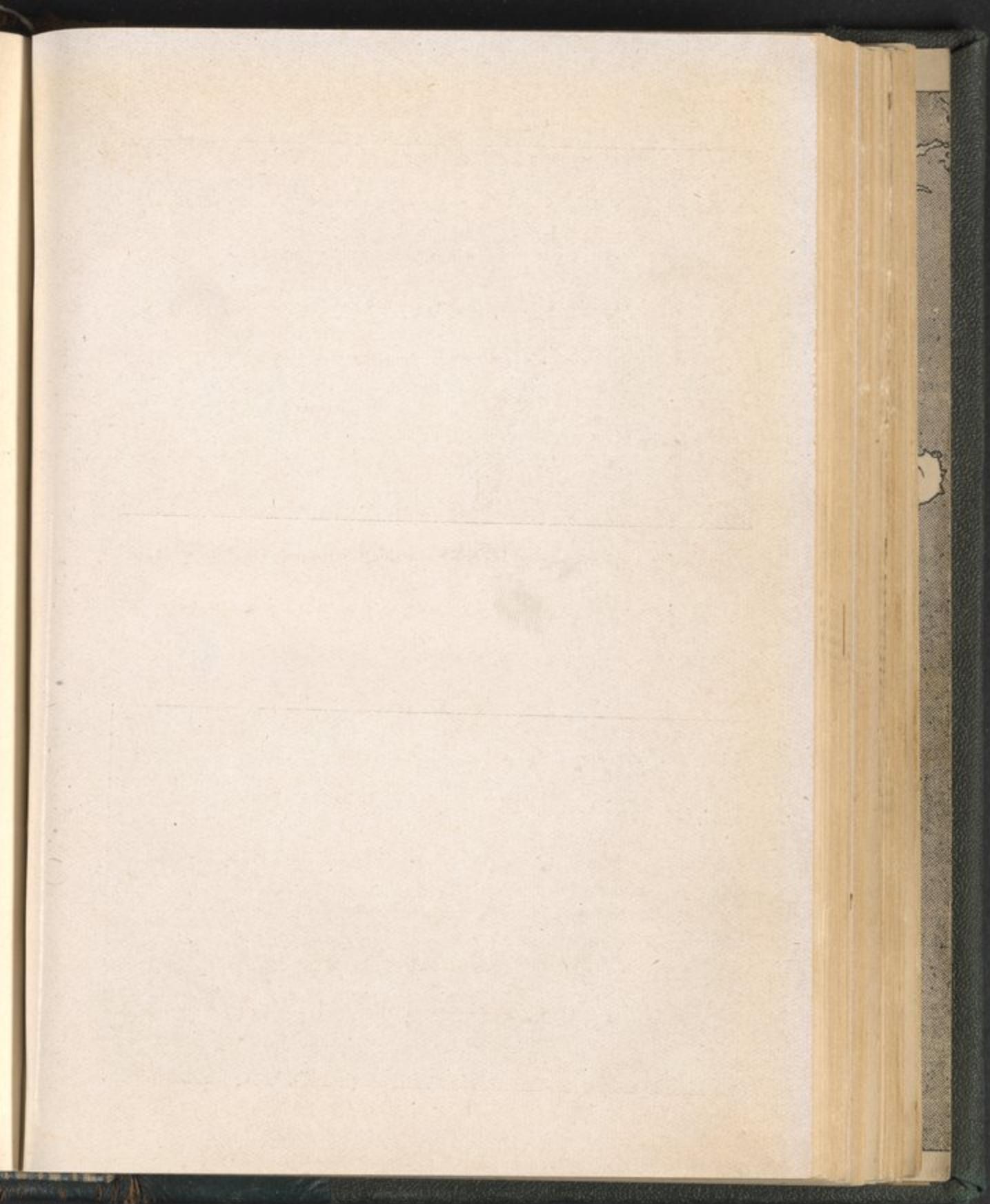
الأرامل الهندیات ، وینقد الصیات دون العاشرة من زواج الكھول . فاذا كانت خطط غاندی الروحیة ترفا عن شرور هذا العالم ، وتجروا عن سوآته ، فلیست السياسة البريطانية في مجموعها شرا مستطيرا ، ولا تكون مقاومتها بتجنب مطامعها وإهمال طرائقها وفيها ما فيها من التقدم بالهند في طريق الحضارة الوحيدة الممكنة اليوم على ظهر البسيطة . وأى أثر لغاندی بروحانيته ضد البراهمة ، وهو منهم ، حين حاول الأخذ بيد المبودین ، ورفع السبة البشرية التي أنزلها نظام الطبقات الهندوسی بمئات الآلاف من الآدميين كل ذنبهم ولدوا خارج الطبقات الأربع المعترف بها ؟ إن مع هذا معجب بغاندی وأمثاله من القادة الروحیين ، معجب بكل فكرة تطهیر البشریة من الحماة . ولكن أفضل بلا تردد حضارة كالحضارة اليونانیة ، أو ریبیتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطی . لأنها حضارة وسط بين الروحیة والمادیة ، ولأنها حضارة تناهى باطلاق العقل البشري من عقاله ليفكر غير مقید ، فتشجع الفلسفة ودراسة الطبيعة في كل أطوارها وأوضاعها ، ولأنها حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ، ولأنها تسعى إلى المساواة الاجتماعية ،

وتهنىء للفرد في الجماعة سبيلاً للمعرفة ، لكن كنه من أن يصبح  
عنصراً حياً في بناء العالم ، يساهم في تقدمه ، وينعم ثمار هذا  
التقدم ، لا حجراً صلداً يقوم عليه البناء الاجتماعي في سبيل  
إسعاد أفراد معدودين يسكنون هذا البناء ، ويتمتعون وحدهم  
بهواه في الصيف ، ودفته في الشتاء .

ولست أزعم بأن الحضارة الأوروبية بلغتغاية التي  
نادي بها الفلاسفة والمصلحون . فليس لهؤلاء مع الأسف سلاح  
غير العقيدة والرأي الحر ، بينما يسطو الرجال العمليون على  
تاج قرائهم فيسخرونه لأغراضهم . خذ فكرة الاستعمار من  
ناحية التفكير المطلق : النهوض بالشعوب الفطرية إلى  
مستوى الإنسانية المتحضرة ، وإشراك هذه الشعوب في موكب  
البشرية الرابع ، يتوجه إلى الخير العام ، في ظل السلام الدائم  
ثم تأمل عمل الشطار الذين تقنعوا بقناعها ، واستظلوا برايتها ،  
ثم راحوا يقتلون وينهبون باسم الحضارة . كلامي لست أقول  
بأن الحضارة الأوروبية بلغت المثل العليا التي نادي بها  
الفلاسفة والمصلحون . ولكنني أعجب إعجاباً باظاهرة واحدة  
في هذه الحضارة : التفكير الحر . فهو الصمام الدائم  
يملك به الحضارة إصلاح ذاتها . قارن بين أوروبا منذ

مثالاً لوأه الزوجي بمعبد رامشفارام ، ( انظر صفة ١٨ )





صيغات «جان هوس» و «كلفن» و «لوتر»، واكتشافات «جاليليو» و «كورنيكوس»، و تفكير «إيراسم» و «يكون»، وبين الهند منذ فجر تاريخها الهندوسي وهو أقدم إِنْ من حضارة اليونان . ففي أوروبا خرج الفرد يبحث عن الحقيقة والجمال حتى وجد شجرة المعرفة فأكل منها . و عرف الخير والشر فدونه في الإِنسيكلاويديا . و تكشف لعينيه جور الحكام وبقية من الضغط الديني فنافش سياسة الحكم بلسان «مونتسكيو» و «روسو» و «فولتير»، ثم قام بهدم الباستيل بيد الشعب ، و ينادي بنهاية الملكية المطلقة بلسان «داتون» و «اليعقوبيين» . وكان يسعى طول هذه الأجيال بفكر علمائه نحو تسخير الطبيعة . فكانت قوى البخار والكهرباء والمغناطيسية والإِشعاعات ، وكان البترول في البر والبحر والهواء . وإذا شعر بعدوان السلطة الجديدة استحوذت على كل هذه القوى برأس المال ، ثار عليها بلسان «كارل ماركس» . ذلك هو محمل تاريخ الحضارة الأوروبية منذ نهاية القرون الوسطى حتى آخر القرن التاسع عشر . ومهما كانت الأخطاء التي ارتكبت فإن فضيلة هذه الحضارة في أنها تملك أداة إصلاح ذاتية هي : التفكير الحر

ضع هذه الصورة إلى جانب صورة الحضارة الهندية :  
نوصن مقدسة ، وفقه ، وقصص دينية ، ومعابد دراقيديه .  
ثم يجيء «جو تاما ساكيا مونى» الملقب بالبودا ، وينشر تعاليمه  
المعتدلة من شمال الهند إلى جنوبها ، فلا يمضى عليها قرن حتى  
تكون قد امحت من الهند ، لتعيش في التبت وبورما وسيلان  
والصين واليابان . ويتوالى الغزو على الهند من الأسكندر  
والمغول والبرتغاليين والهولنديين والإنجليز ، ومع هذا لا  
ترزال الغالية العظمى من عشرين وثلاثة مليون من الناس تعيش  
في حدود نظام الطبقات الهندوسية : «البراهمة» و«الكشتاريا»  
و«الفيشيا» و«الشودرا» . كلا لا يزال الآلاف منهم  
يعيشون خارج الطبقات منبوذين ، يدنس ظلهم — مثل  
كلاب ابن حنبل — رجال الطبقات العليا . يؤمنون بـ « شيئاً »  
و«فديشنو» و«كالي» و«كريشنا» ومع ذلك ليس لهم أن  
يقرروا بباب المعابد .

هل من دليل عقلى واحد تعلل به هند الحكماء والشعراء  
والفلاسفة أن تكون «برهmania» أو «كشتاريا» فتنعم بكل  
مزايا الطبقة الحاكمة معززا مكرما ، أو تكون «شودرا» فتبقي  
خادماً أو عرجياً ، أو تكون خارج الطبقات فتعيش منبوذا

مذولاً ، كأتعس ما يكون عليه المجنوم أو السائمة الجرباء ،  
في مجتمع يعلو بالبقرة إلى مقام القداسة ، فيعتسل بيوطها  
ويتبرك بروتها ؟ أجل ، تفسر لك هند الحكماء ذلك بأنك  
برهمني لأنك ولدت برهمانيا ، وأنك منبود لأنك ولدت  
منبوداً . أنظر إلى البقرة ، لا إلى هذه البقرة الواحدة ، بل إلى  
جميع البقرات الهندية ، لم تنازل كل هذا التقديس ؟ لأنها  
ولدت بقرة .

\* **أجل أنا معجب بروحانية المهايم (الروح العظيم) ،**  
معجب بخصائص الشرق الروحية ، أود أن أعيش بروحى  
مترفعاً عن الدنيا . أغرتني ناشيد «الريجفیدا» وببعض فصول  
«الرامایانا» و«المهابهاراتا» وبالقصة التئيلية «شاکوتالا»  
وأفهم صيحة الفخر تصدر عن أمين الريحاني : «أنا الشرق !  
عندى فلسفات وأديان ، فمن يعني بها طيارات الخ ...»  
ولكنني وقد عرفت بعض ما أحب أن أعرف عن الهند ،  
وعرفت بعض ما أحب أن أعرف عن أوروبا ، أشد إيماناً  
بالغرب وحضارة الغرب . وأكرر قولي: مهما كانت الأخطاء  
التي ارتكبت ، فإن فضيلة هذه الحضارة أنها تملك أدلة إصلاح

\* ذاتية هي : المفكير الحر

## الوفاء الزوجي

رأيت في بهو من أبهاء معبد «راميششارام» بجنوب الهند تمثالين متواجهين لم أكن لأفهم المعنى المقصود بهما لولا قول صاحب المنهى : «رمز الوفاء الزوجي» . ولم يكن المثالان من الفن العالى وإن تميزا بميزة فهى القبح والسوءية التي أراها فى كل صور هذا المعبد وتماثيله . ثم هما قد كشفا عن معنى الوفاء الزوجي عند أهل الشرق عامة .

الفكرة واحدة في المثالين . في أحدهما يحمل الزوج «جماعته» على كتفيه وقد تدل ساقاه على جانبي صدره كما تدل ثدياهما في اتجاه رأسه . والزوج فارس هيجاء ، لبس درعه والتأم لامته . وفي المثال الآخر تحمل الزوجة زوجها على كتفيها وقد تدل ساقاه المدرعان على جانبي صدرها في حذاء ثديها المتدعلين . الوفاء الزوجي هنا واضح ، معناه ألا يفترقا في السراء والضراء . يرمز المثالان إلى هذا الوفاء بالاتصال

المادى الدائم . وليس ما يمنع أن يقصد بهذا الرمز الاتصال الروحى الدائم أيضا . ولكننى بلا تردد أفضل « بنيلوبابا » ، مثلا للوفاء الزوجى وهى تترقب عودة زوجها فى قصرها بـ « إيشاكا » ، يحيط بها الطاحون فى الزينة منها ، يتسلون إليها باللين والععنف أن تقطع كل أمل فى إيا ب زوجها ، أو دسيوس » . فقد انقضت أعواام على سقوط طروادة وعودة جحاful الإغريق الظافرة إلى بلادها . وهى تقاوم إغراءهم وإلحاحهم ولجاجتهم فى أنوته بدعة . فتعدهم أن تفكري فى الأمر مني انتهت من نسج بدأته وشيكا ، ثم هى تقوم فى الليل لتفتق مارتقت بالنهار .

أما أن يرمى إلى الوفاء الزوجى بذلك الاتصال المادى المكره ، حيث يحمل الزوج زوجته وهو شاكى السلاح ، وتحمله زوجته شاكى السلاح أيضا ، فهذا نوع من الوفاء يذكرنى باختلاط معنى العفاف عندنا . فليس العفاف فى مصر أن ترك المرأة حرمة تخلط الرجال فتحافظ على عهدها وواجبها ، وإنما العفاف أن تعز لها عزلا تماما عن الرجال غير زوجها ، وأن تدفع عنها عين السوء . . . حتى ولو بالفاسوخ وأن ترسل زغراتك إلى الرجال فى الطريق ، أو فى مدخل

السينما ، حينما يختلسون النظر ليشنـاهدوا جمال زوجتك  
ورشاقتها وأناقها ، وأن تمنعها من تسلم خطابات باسمها ، ومن  
الخروج وحدها ، وتحيطها بالجو اسيس من الخادمات والبواين  
وبائعى الكازوزة ، أن تكاد تمنع عنها النور والهواء ثم تقول:  
امرأتى عفيفة ! هذا الفارس الذى يحمل امرأته فى حله  
وترحاله ، وهذه المرأة التى تحمل زوجها ملتمسا مسلحًا ، هذان  
المثالان القبيحان فنا ومعنى في معبد « رامي شفارام » ، كشفا  
لعيبي عن معنى العفة المكرهة .

ولقد ذهبت الهند في إكراء المرأة على الوفاء لزوجها  
مذهبًا كان أسوأ أنواع الإجرام المنظم. إذ حكمت على  
الزوجة ألا تعيش عقب زوجها، وأن تحرق حية مع جشه  
فكان تتحمل في محفة يحوطها أهلها مهلاين مكربين، وقد ألبست  
أفخر ثيابها وحليت بكل حلتها . ثم توضع قسرا فوق جثة  
الزوج المددة على إيوان من أخشاب الصندل ، ويصب  
البراهمة الزيوت ، ويوقدون النار في جوانب الإيوان مرتلين  
في لهم الآتون المزغرد جثة الزوج وجسم الزوجة البعض  
النابض .

ومهما قيل في نير الاستعباد البريطاني . فقد كان الفضل

للدولة الحاكمة في أن تقضي على هذه العادة الوحشية بقوة القانون ، بعد أن حاول الانجليز أكثر من قرن إيقافها بقوة الإقناع . فكانوا لا يصرحون بحرق الأرملة حتى تقف أمام الموظف الانجليزي ، وتعلن رغبتها التي لا مرد لها في أن تحرق وجهه زوجها . على أن ملوك الهند المسلمين ( المغول ) فضل الأسبية في تحريم هذه العادة أينما امتد حكمهم . ومع هذا — وإلى اليوم — لا يزال حظر الأرملة الهندوسية من أكثر الحظوظ . يفرض عليها ألا تلبس سوى غلالة يضاهي سبيطة ، وألا تتحلى بغير حبل في عنقها يدل على ترميمها ، وأن تخلق شعرها حلقا تماما في كل شهر مرة . ولن أنسى ذلك المخلوق الأقرع ، رأيته يهيم على شاطئ قناة « بكنهام » بين « مدراس » و « ماهابالى پورام » في غلالة يضاهي قدرة لا يقرب الناس ولا يقربونه ، وسألت صاحبى : أهو مجنوم ؟ فأجابنى : بل هي أرملة !

إننا نتشدق بالحكمة « مكره أخاك لا بطل » ، ولكتنا نعمل على تكذيبها . فقد ذكرني رمز الوفاء الزوجى في معبد « راميششارام » بأن من أمن يكره النساء على العفة ، ويحبس الزوجات على الوفاء ، ثم يشير إلى أوروبا في صلف الجهل قائلًا : أنظر

إلى الفساد الضارب في أعطاف المجتمع الغربي نتيجة حرية  
الاختلاط .

فإذا كنا إلى عهد قريب نرى القذر في عين أوروبا، ولا  
نرى جذع النخلة في عيوننا ، فقد كان لنا على الأقل بعض  
العذر ، حين كان الفساد الضارب في حياتنا الزوجية  
يعمل في الظلام كالنمل الأبيض فلا يبقى إلا على مظاهر نخرة  
أما اليوم وقد ارتفعت الغشاوة عن عيوننا ، فرأينا الفساد  
الاجتماعي لا يمنعه كبت حرية المرأة وتجريدها من حقوقها  
الطبيعية ، فهل نصر على أن نخفي رؤوسنا الصغيرة كما تفعل  
النعامنة في الرمال ، ونطمئن إلى طهارة مجتمعنا ما بقيت نساو نا  
رهينات المحابس ، قعيدات البيوت ، ممنوعات من الاختلاط  
بالرجال ؟

# جوانا ساكيا هولن

عقب عودتى من المحيط الهندى ، ذهبت أشاهد معلم القاهره مع صديقى الكوماندر ف... ضابط الملاحة .  
ودخلنا نزور المغاوري ، وهو مدفن مؤسس طائفه ورئيس تكية ، يصل إليه إلا إنسان في نهاية مغاره من مغاوري المقطم  
رأينا في حرمته شابات يتمرغن على البلاط متضاحكات  
كانهن يتبعن لعنة من اللعبات . وسألنى الكوماندر عن هويه  
أولئك النسوه فأجبته :  
— يشكن العقم ، ويعتقدن في قدرة المغاوري على  
شفائهم .

وارتسمت على شفتيه العريضتين ابتسامة بقيت حتى  
خرجنا من ظلام الضريح إلى حدائق التكية . واتجهنا إلى جبهة  
الجبل جوار قبر أمير مصرى . وهناك جلسنا على دكة عاليه  
نشاهد بعض القاهره تظهر لنا عن بعد خلال فرجه في

الصخر الجيري . وبعد هنئية قال لي :

— أى بون شاسع بين مصر والهند ! هنا المرح والفرح  
يضىء نفوس الشاكيات حتى في ظلام المسجد ، وعند أقدام  
ضريح ولى الله . وهناك الكآبة حتى في بهجة أعياد الهندوس .  
— هنا الآمل وهناك اليأس استحكمت حلقاته ياعزيزي  
ف... أتدرى ما الفرق الحد لا بين الهندوسى والمسلم ، بل بين  
الهندوسى وأغلب سكان الأرض ؟ اعتقاد الهندوس بتناصح  
الأرواح .

— وما علاقة هذا بكآبة الهندوسى الدائمة ؟

— في الموت راحة لك أنت المسيحي ، كما فيه راحتى  
أنا المسلم ، انتظاراً لما نتالم في الآخرة جراء وفاقاً لاعمالنا في  
دنيانا . ولكن الموت لا ينهى عذاب الهندوسى . فرورحه  
تعود إلى الحياة متقمصة في جسم آخر ، قد يكون إنساناً أو  
حيواناً ، على المقام أو مرذولاً محروماً ، تبعاً لقضاء الآلة  
وتفق ناموس التناصح . لك ولـى عقاب واحد وثواب واحد  
في أسوئهما نذهب إلى النار ، وفي أحسنها ندخل الجنة .  
أتعرف ما هو الثواب الأكبر الذي تتوق إليه روح الهندوسى  
يعذب جسده بالحديد والنار ، وقد بلغ غاية السمو الروحي

بالعزلة والتقصف والتأمل ؟ أن تخلص روحه من حلقة التناصح المفزعية ، فلا يولد من جديد .

— وأين تذهب روحه ؟ أفي شبه سمائنا المسيحية ؟

— ليس للهندوسى سماء كسمائكم ولا جنة كجنتنا . إنما السعادة التي تتوق إليها روحه هي بلوغها « البرهمان » أى العدم .

— لم أكن أحسب أن دينا من الأديان يتهى بهذا الشواب السبلي . أيمكن أن يوجد من يعتقد بالعدم ؟

— هو نوع من العدم عسير الفهم علينا . والواقع أن الروح حين تبلغ « البرهمان » أو « النيرقانا » تفنى في الروح الكبرى التي هي الأصل والفرع . روح براهما ، الثالوث الذى هو واحد ، والأحد الذى هو ثلاثة . أو هي تعود إليه كما تعود نقطة الماء إلى الأقianoس العظيم . فالنقطة موجودة بحكم أنها لم تفن . ولكنها تلاشت في مياه الأقianoس ، فهى فانية فيه وهو باق .

— دعنا من هذا ، فلا قبلى بهذا الهجوم وتلك الشعوذة ياعم حسن ( هكذا يدعونى ف . . . )

— ولكنى أردتك أن تفهم سر كآبة الهندوسى الدائمة ،

سر ذلك التجمّم يرفرف على كل ما هو هنودسي . وتلك  
الأنفال التي ترّزح تحتها روح الهندوسى حتى لا تنجو  
منها وأنت تزور معابدهم ، أو تتصل عن قريب أو بعيد بحياتهم .  
إني حين خرجت من الهند ، شعرت بشعور سجين القبو  
يخرج إلى النور والهواء والحرية . كان كل شيء بها ثقيلاً على  
نفسى بما ابتعثه فيها من ضيق و Yas و أسى على الإنسانية  
ترسف في سلاسل العقائد القاسية .

وانحدرت وصدىقى الكوماندر من أعلى التل نحو القاهرة .  
لنقضى يوماً من أيامنا الأرضية طالما تمكيناها ونحن في سجننا  
البحري العتيد على تلك السفينة العلمية الصغيرة . هو فوق مشاه  
طالع النجوم ويستطيع الأفق ويسبر الأعماق ، وأنابين شباباً كى  
في توقيت وملاحظة وفرز وغسيل ، أو وسط معمل في جمع  
وتربيب ومطالعة وتدوين .

ولقد أنساني ف... بضمحة العالى ونكانه ، كما أنساني  
ما أحاطنا في تجوالنا من ضروب الجمال الدينوى ، تلك  
الغمة النفسية التي كادت تتملّكى نتيجة الاسترسال في  
الفلسفة الهندية .

ولكنى ما كدت أخلو بنفسى حتى وجدت إلظلام يكتنفها

رويداً رويداً ، يتسلل وئيداً كما يتسلل الليل صيفاً في البلاد  
الشمالية . فان ملاحظة الكومندور في مقام المغاورى ، تلك  
الملاحظة العاجلة التي أسرعت بتفسيرها له ، لم تكن قد تعددت  
بعدد اثرة تفكيرى ، ولم يك تفسيري لها إلا حضن رد فعل  
ذهنى . وإذا خلوت إلى نفسي بعد منتصف الليل ، كانت  
الملاحظة قد بلغت ينابيع شعورى ، فأعادتني إلى تلك الهند  
التاسعة ، وذكرتني بـ « كآبة الهند وجو المعابد الهندوسية المرهقة »  
ومازلت أذكر لحظة ركبت فيها المعدية بين « دانوشكودى »  
في جنوب الهند ، و « تالايمnar » في شمال سيلان . فقد وليت  
ظهورى حينئذ لعالم مرعب ، تسكنه آلهة ترتعى لنظرها الفرائص  
تقوم على حراستها تماثيل وحوش خرافية ، تطالعك من  
باب المعابد وفوق أبوابها ، وكأنها تقطع ما يينك وبين رحمة  
السماء لتخضعك لأسيادها الافتاظ غلاظ القلوب ، ذوى  
رؤوس الفيلة ، وعيون السمكة وأجساد القردة .

وإذا لم تتمكن ضحكتك ف... ونزعهتنا المصرية في انحاء  
القاهرة من دفع الكآبة التي ابتعثتها الهندوسية في نفسي ، فقد  
استطاعت ابتسامة واحدة في أحراج سيلان من رفع الغشاوة  
التي ضربتها على قلبي وعيني معابد الهند وآلهتها . وهي ابتسامة

تمثال قد من صخر ، أنقذته الأيدي الباردة من العفاء تحت  
النبت الاستوائي الذي أغار في سيلان على مدن كاملة ، فدفتها  
بين جذوره الملتوية وتحت أوراقه المتباشرة . ولقد تحدثت في  
مكان آخر عن « آنوارد اپورا » إحدى المدن التي دفنتها الموج  
الاستوائي . ولا يهمني من أمرها الآن سوى هذا التمثال القائم  
في فرجة افتحتها يد المنقب الأثري في غابتها المشابكة ، وابتسماته  
الساحرة التي أنقذتني من هول الأصنام الهندوسية « كالى »  
و « إيندرا » و « شيفا » و « جانيشا » .

تلك هي ابتسامة « سيدهارتاجوتاما ساكيا مونى » الملقب  
بالبوذا ، والذى يدين بتعاليمه اليوم مائة وثلاثون مليونا من  
سكان آسيا .

فقد عاش البوذا ومات ببلاد الهند منذ خمسة وعشرين  
قرنا ، في حقبة الدهر اليقظة التي عاش فيها « فيثاغورس »  
و « إسكيلوس » بأرض يونان ، و « أرميا » و « حزقيال » في  
بني إسرائيل . و « وزرادشت » صاحب شريعة المجوس في  
إيران . و « لاوطسى » و « كونفيوسيوس » في الصين . و خضم  
البوذا للعقائد الهندوسية القاسية مغلولا في فكرة التناسخ .  
فإذا كذب على مرأيته قالت له « حذار أو تولد مرة أخرى في

هيئـة أفعـى». وإذا رأـى مـسـكـيناً أو مـقـرـواـحاً سـمعـ والـدـتهـ  
تـقولـ «سـامـسـارـاـ! حـلـقةـ الحـيـاةـ المـفـزـعـةـ». هـذـا رـجـلـ أـذـنـبـ  
فيـ مـيـلـادـ سـابـقـ». أـمـا رـجـلـ النـاعـمـ يـحـظـىـ باـحـتـرـامـ النـاسـ،ـ  
فـقـدـ وـلـدـ كـذـلـكـ نـتـيـجـةـ أـعـمـالـ صـالـحةـ قـامـ بـهـاـ فـتـاـسـخـ مـضـىـ.

ولـدـ «سـيـدـهـارـتـاـ» فـيـ إـقـلـيمـ «الـنـيـيـالـ» بـلـادـ الجـوـرـكاـ،ـ وـسـطـ  
غـابـاتـ «الـصـالـ» الرـفـيعـةـ،ـ وـحـقـولـ الـأـرـزـ المـصـفـرـةـ،ـ حـيـثـ  
تـرـىـ الـضـيـاعـ وـالـقـرـىـ رـاـبـضـةـ عـنـ أـشـجـارـ الـمـنـجـةـ وـالـتـرـ هـنـدـىـ،ـ  
ولـدـ عـنـدـ أـقـدـامـ جـبـالـ «الـنـيـيـالـ» السـوـدـاءـ. تـرـتفـعـ خـلـفـهـاـ هـامـاتـ  
«الـهـيـالـاـيـاـ» رـافـعـةـ قـنـاتـهاـ الشـامـخـةـ يـتـوجـهاـ الجـلـيدـ الـأـبـدـىـ.

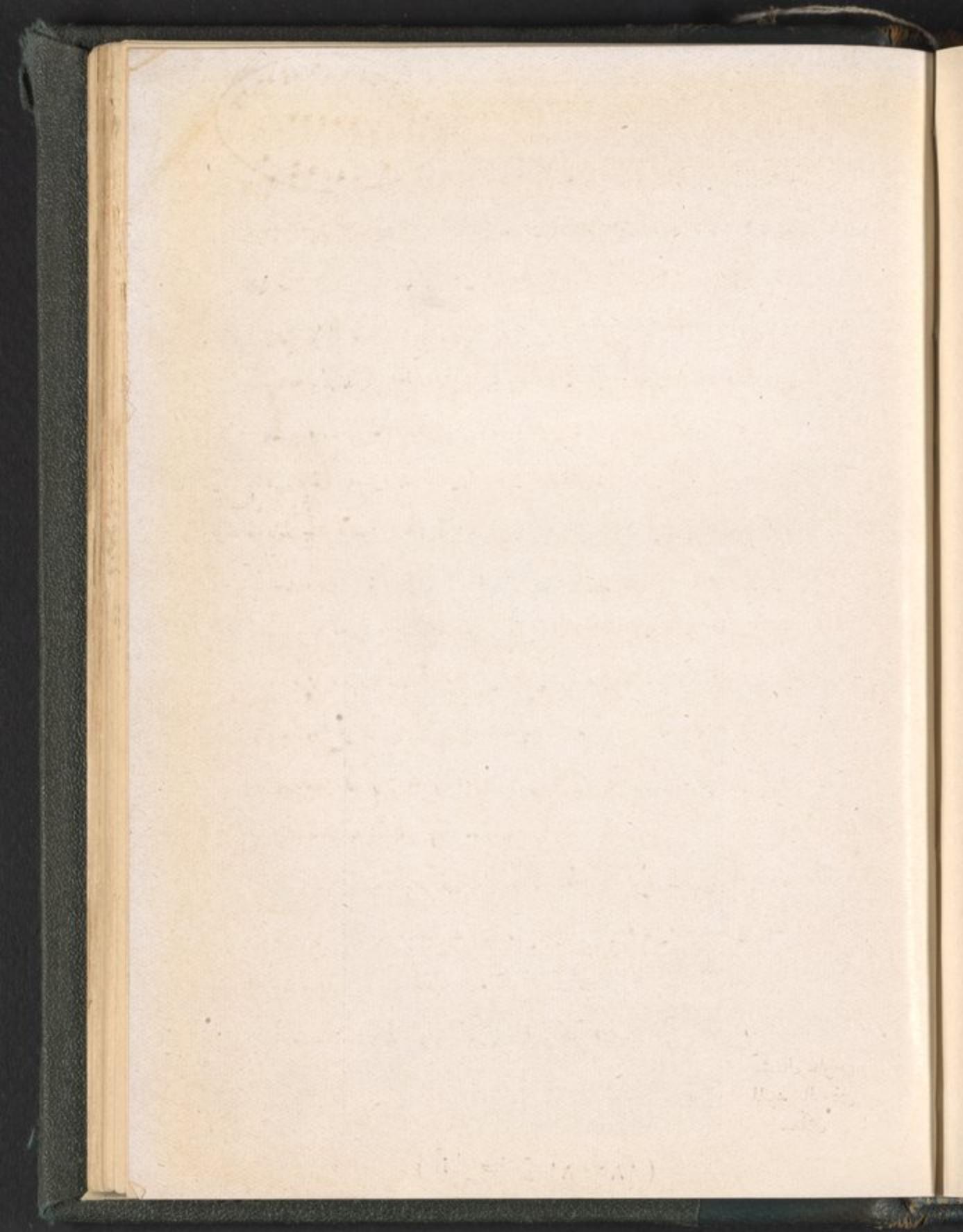
مـنـ أـسـرـةـ «جـوـتـاماـ» النـيـلـةـ،ـ أـمـهـ «مـاـيـاـ»،ـ وـأـبـوهـ سـيدـ  
عـشـيرـةـ «سـاـكـياـ»،ـ كـبـرـ وـتـرـعـرـعـ فـيـ بـحـبـوـةـ. أـحـبـ وـتـزـوـجـ  
فـارـعـ الـقـوـامـ وـسـيـمـ الـطـلـعـةـ،ـ سـاحـرـ الصـوتـ قـوـىـ الـذـرـاعـ سـيـدـ  
الـرـماـيـةـ. رـغـدـ العـيـشـ لـوـلـاـ عـقـلـ جـبـارـ أـبـىـ عـلـيـهـ أـنـ يـسـتـسـلـمـ  
لـأـوـضـاعـ الـحـيـاةـ الـتـىـ أـقـامـتـهـ حـوـلـ مشـاعـرـ بـنـىـ جـلـدـتـهـ عـقـيـدـةـ كـلـهاـ  
شـقـاءـ،ـ وـاحـتـبـسـتـ فـيـهاـ عـقـوـلـهـ فـلـسـفـةـ دـيـنـيـةـ كـلـهاـ تـشـاؤـمـ.

غـادرـ أـبـويـهـ وـالـزـوـجـةـ المـحـبـوـبـةـ. وـإـنـهـمـ لـيـحـاـوـلـونـ بـمـجـهـودـ  
أـخـيـرـ إـضـعـافـ عـزـيمـتـهـ،ـ فـيـكـشـفـوـنـ لـهـ عـنـ طـفـلـهـ النـائـمـ مـفـتـرـ الشـغـرـ  
بـادـىـ الغـماـزـاتـ فـيـ أـطـرـافـهـ الـعـارـيـةـ. وـإـذـاـ بـهـ يـقـولـ «وـهـذـاـ

أيضاً قيد آخر يجب أن أكسره لانخلص ، ويخرج إلى الغابة  
وقد تخلى عن كل ما يربطه بهذا العالم . وراح يبحث عن الحقيقة  
في ضروب التقشف الهندوسى من جوع وتجريد وتعذيب ،  
حتى أنهك قواه ، والتقصى جلده بعظمه بعد ست سنوات من  
هذه الحياة الشاقة . صحا ذات مرة من إغماء طويل ، ولم  
يلمه تقتيل الجسد طريقة للخلاص ، فعدل عن الصوم  
والتقشف ولكنكه لم يعدل عن التفكير والتأمل بحثاً وراء  
الحقيقة . فهجره تلاميذه الخمسة وهم يتهمونه بالردة . وواصل  
ال التجوال وحيداً حتى بلغ بلدة « بوداجايا » قرب « بنارس » ،  
وفد شعرت نفسه بالسأم ولكن اليأس لم يتطرق إليها .

وإذ كان جالساً تحت شجرة جميز يستظل من هجير يوم  
شديد القيظ ، أو يستروح نسمات الأصيل ، جعلت روحه  
تنقل من تجدد إلى تجد ، وعقله الباطن يرتفع رويداً حتى  
استضاعت بصيرته بنور العرفان .

« وحينما بلغت هذا ، شعرت بأن روحي قد خلصت من  
سوأة الشهوات ، وسوأة المخطل ، وسوأة الجهالة . ومنذ تلك  
لحظة عرفت أنتي لن أولد ثانياً ، ولن أعود إلى العالم »  
ومنذ اللحظة التي حلّت عليه في ظلال شجرة « البوذى »





تمثال البوذا  
وسط المدرج  
سيلان



تمثال حارس  
المعبد البوذى  
سيلان

( انظر صفحات ٨١ و ١٨٥ )

في الرابع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، لقب «سيدهارتاجوتاما» بالبوذا، أي الحكيم. وقد طوف في طول الهند وعرضها خمسة وأربعين عاماً بعد تلك اللحظة. يأتزرا بالإزار الأصفر اللون الذي يلبسه الرهبان البوذيون إلى اليوم، عاري القدمين، يحمل صحفة الأرز الذي يوجد به عليه الأقيال والأمراء وعامة الشعب من سحرتهم أحadiث العذبة، ونفسه السامية في تواضعها.

وحين أوفت سنها على الخامسة والثانية، أصيب بالدوستاري من جراء أكلة قدمها له حداد فقير، فشعر بدنو أجله. وخشي أن ينال الحداد ضر بسبب وفاته، فأوصى صفيه «أناندا» أن يذهب إليه بعد موته فيخبره بأن وجبيين كان لها عند «سيدهارتاجوتاما» مقام خاص: الأولى هي التي بلغ على أثرها الحكمة تحت شجرة «البودي»، والثانية أكلة الحداد التي بدأ يدخل بها في «النير ثانا» سبيل الخلاص النهائي. وحاول بمجهود أخير أن ينهض. فنهض وسار بضع خطوات، ولكن قواه خانته مرة أخرى. فرجحا تلميذه وصفيه «أناندا» أن يرفع عنه إزاره لينشره تحت خميلة قوامها ثلاثةأشجار من الصندل. وتمدد فوق إزاره، وأسند رأسه إلى

ذراعه . ثم التفت إلى صفيه وكان يكى ، فقال :  
« كفـكـ من عبراتك يا « أناـنـدا » . ألمـ أـخـبرـكـ بـانـ  
في طبـائـعـ الأـشـيـاءـ أنـ نـفـارـقـ أـعـزـ النـاسـ عـلـيـنـاـ ،ـ وـأـقـرـبـهمـ  
إـلـىـ قـلـوبـنـاـ ؟ـ »

وـأـشـارـ إـلـىـ جـسـدـهـ قـائـلاـ «ـ هـذـاـ مـزـيـجـ يـحـبـ أـنـ يـتـحـلـ إـلـىـ  
عـنـاصـرـهـ وـيـتـلاـشـيـ !ـ »

« لاـ يـحـوـلـ لـكـ شـأـنـ مـنـ الشـؤـونـ عـنـ مـوـاـصـلـةـ جـهـادـكـ الـرـوـحـيـ  
ياـ «ـ أـنـاـنـداـ »ـ .ـ وـسـوـفـ تـخـلـصـ مـنـ سـوـأـةـ الشـهـوـةـ الـمـلـحـةـ ،ـ وـسـوـأـةـ  
الـكـيـنـوـنـةـ الـفـرـدـيـةـ ،ـ وـسـوـأـةـ الـخـزـعـبـلـاتـ وـالـجـهـالـةـ !ـ »

«ـ رـبـ قـائـلـ فـيـ نـفـسـهـ يـاـ «ـ أـنـاـنـداـ »ـ بـعـدـ فـنـائـ ،ـ خـفـتـ نـبـسـ.  
الـمـعـلـمـ ،ـ فـلـاـ مـعـلـمـ لـنـاـ بـعـدـهـ .ـ كـلـاـ !ـ فـالـمـبـادـيـ وـالـتـعـالـيمـ الـتـىـ لـقـنـتـكـمـ  
إـيـاهـاـ هـىـ أـسـتـاذـكـ بـعـدـىـ »

«ـ وـالـآنـ وـدـاعـاـ أـيـاهـاـ إـلـىـ خـوانـ .ـ كـلـ شـىـءـ هـالـكـ ،ـ مـآلـهـ إـلـىـ  
الـزـوـالـ .ـ تـلـكـ طـبـيـعـةـ الـأـشـيـاءـ .ـ وـاـصـلـوـاـ جـهـادـكـ حـتـىـ تـبـلـغـواـ  
سـيـلـ الـخـلـاصـ »

بـهـذـهـ الـكـلـامـ اـخـتـمـ حـيـاتـهـ «ـ سـيـدـهـارـتـاـ جـوـتـاماـ  
سـاـكـيـامـوـنـىـ »ـ الـمـقـبـ بالـبـوـذاـ .ـ وـكـانـ ذـلـكـ فـيـ أـوـاـخـرـ سـنـةـ  
٤٨٠ـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ ،ـ عـلـىـ ضـفـافـ نـهـرـ «ـ هـيـرـاـنـيـاـ قـائـىـ »ـ .ـ

فما هي الحكمة المودعة في نفس البوذا ؟ وما سر الابتسامة  
التي استقبلتني في أحراج سر نديب ، فسرى عن نفسي  
ما أصابها من قسوة العقائد الهندوسية ؟

« يا أيها الرهبان ! تلكم هي الحقيقة السامية عن الآلام :  
الميلاد عذاب ، الشيخوخة عذاب ، المرض عذاب ، الموت  
عذاب ، فراق مانحب عذاب ، فوات مانتوق إليه عذاب .  
وقصيرى القول : اتعلق بالحياة عذاب »

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن سبب الآلام :  
الظما — وهو أصل الميلاد المتكرر — تضطجعه الشهوة  
واللذة التي تلقى متعها هنا وهناك . وهذا الظما مثلث الفروع  
ظما اللذة ، وظما الحياة ، وظما التراء »

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن وقوف الآلام :  
تقف الآلام بوقف هذا الظما . وهو وقوف لا يتأتى إلا  
في غياب العواطف . تقف بالتخلي عن الظما ، بالاستغناء  
عنه ، بالتخلاص منه . بالقضاء على شهوات النفس »

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن السبيل إلى  
وضع حد للآلام : هو السبيل ذو المسالك الثانية ، صدق  
الإيمان ، وصدق الحديث ، وصدق السلوك ، وصدق

الكسب ، وصدق الاجتهاد ، وصدق التفكير ، وصدق التأمل »  
في هذه الكلمات — وقد اتفقت النصوص على أنها كانت  
أول ما قاله « سيد هارتا » بعد أن هبطت عليه الحكمة تحت  
شجرة « البوذى » — أر كان العقيدة البوذية .

وليس عقيدة فلسفية تبحث عن أصل الوجود . كا  
أنها لا تستعين بقوى خارجية ، خارقة للعادة . ولا تعد  
الإنسان بمعونة في الضراء خلا المعونة التي يمكن أن يتلقاها  
من نفسه . فالبوذى يقف حيال برنامج بسيط ، هو خلاصة  
صراع ذهنى بين الرجل ونفسه ، يجب أن يخرج منه ظافرا .  
وهذه الأركان الأربع ( أو الحقائق السامية ) قامت  
عليها حياة البوذا نفسه . فقد اطلع على شقاوة الناس فرأى  
الأمراض والشيخوخة والموت ، وشعر بالفرقان الحبيب ،  
وقرب غير المحبوب ، وفوات ماتتوقع إليه النفس . ولم يقف  
أمام كل هذه المشاعر مكتوف اليدين ، ولم ينكسر رأسه يأسا .  
وإنما راح يجاهد منتزعا نفسه من كل صلة فردية بهذا العالم  
ليجد السبيل إلى الخلاص من حلقة التناصح الأبدية ، تلك  
الحلقة التي أطبقت على عقول فلاسفة الهند دهورا ، غير معتمد  
على معونة أحد سوى نفسه . فإذا تستطيعه آلة الهندوس

وهي نفسها أُسيرة حلقة التناصح في مقامها السماوي ؟ إنها  
لشبيهة بالإنسان ولو في مستوى أعلى ومقام مكين . ربما كانت  
ظلمة غشوما ، أو متربقة رحيمة . ولكنها لم تخلص الهند  
الوثنية من الآلام . ولم تخلص حتى نفسها من وطأتها .

فليبحث « جوتاما ، الحكيم » كيف يعبر إلى الشاطئ الآخر  
حيث يستكן القلق ، وحيث ينفصل الأزل عن الزائل .  
حيث يمكّنه أن يواجه البشرية يعلمها كيف تعبر بحر الحياة اللجي  
وعله نبراس يهدى العالم المغمور في دياجير الجمالة والشقاوة  
جاء البوذا في وقته ، ليخلاص الهند من حظها العاشر  
في آهتها القساوة وفلسفتها المرهقة . جاء يقضى على نظام  
الطبقات الظالم ، فيرفع الوضيع إلى مقام العاهل الظافر وقد  
نجحت رسالته بنجاحاً نشهد آثاره اليوم . . . ولكن في  
غير الهند ! فبعد أن جاء الإمبراطور العظيم « آزوكا » ، وحمل  
رسالة البوذا إلى أطراف الهند ، وأرسل ابنه « ماهيندا » يبشر  
بها في جبال سرنديب ووهادها ، لم يحل القرن السادس الميلادي  
حتى كانت البوذية قد شردت في الهند تشريداً ، لتطرد فيها  
بعد طرداً . وعادت الآلة القديمة إلى قدس أقدسها ، تنضج  
بالزيت وتثمر لها الأزهار ، وتخرج في مواكبها المروعة ، ليرتمنى

تحت دوالib عرباتها آلاف الناس ، استسلموا لكتبهنهم  
حين عجزوا عن فهم رسالة البوذا الروحية .

ولكن من يدخل المعبد الهندوسى كا دخلت ، ويرى  
الآلهة ترمقه بعيون جامدة فى شراستها ، ويملاً عرانيته عبق  
البخور مختلطًا برائحة الزيت ومياه الخزانات الآسنة تعفل  
في مياها بشرية ملهمقة ، ويرى الرجال تنبطح ابطاحا أمام  
الثور « ناندى » وعلى وجوههم سماء الرعب والكمد واليأس  
والأسى ، أقول إن من يرى هذا المنظر ويحس بمعناه كارأيت  
وأحسست ، لا يهالك أن يشعر بتعاسة هذه الإنسانية ، ووطأة  
حلقة التناصح على أرواحها . ويتنفس الصداء حين يولي  
ظهره — كاوليت — جنوب الهند في « دانوشكودى » ،  
ويتوجه شطر شمال سيلان البوذية في « تالايمnar » — التي  
أنطق بها في صميم نفسي « طلايع المنار » — وينزل بمدينة  
« آنوراداپورا » ، يتوجول في أرجاء حرجها الاستوائي . فتوقفه  
وتأسر به ابتسامة هادئة ، انطبعت على وجه تمثال من الصخر  
لرجل جالس جلسة شرقية .

هذا الرجل هو « سيدهارتا جوتاما ساكىامونى » الملقب  
بالبوذا .

IV

# مَشَاعِر

منفى الزعيم

نائبات

حياة البحار

ذلك السفينة

VI

200

100

50

25

# سفى الزعيم

بلغنا في المزيج الأخير من الليل مجموعة جزائر سيشل .  
وانتظرنا انلاج الفجر لنتمكّن من احتياز المرات الملاحية  
وسط الشعاب إلى بور فكتوري في جزيرة «ماهى» .  
ولا أحسبني أنسى يوماً جمال تلك الجزائر ، أقدامها في مياه  
المحيط وذؤابتها مجللة بالسحب البيضاء . وهى ترفل في حلل  
من الخضراء الاستوائية . وكان أول خاطر عبر ذهني إذ نظرت  
من نافذة المستديرة : هذا هو المنظر الذى تلقى الزعيم الشيخ  
وقد حملته سفينة الغاصب من السويس في بهمة الليل ، حين  
قابل القوة الغاشمة بقوه الحق واليقين .

كما كان أول ما حدثنى به التاجر اليانى الذى صعد إلى  
سفينتنا فى ميناء عدن هو أنه رأى زعيمنا الشيخ المهيب عند  
وصوله إلى عدن ، وكان ضمن من تهاقتو على يده قبلوها .  
وكان أول ما طلبت من دليلي في «ماهى» أن يأخذنى

إلى بيت الزعيم . فتسلقنا التلال السندينية سالكين سيلًا غير مطروق ، إلى منزل منفرد متكم على صدر الجبل القشيب تلقتنا ببابه أسرة حمام مجوسى قدر فينا عاطفة الحجيج ، فطوف بنا في أرجاء « البنجالو » الذى أعد لا إقامة الزعيم الشيخ وصحبه وأشرفنا من منظرته على ميناء فيكتوريا والبحر ترصفه الشعاب وارقة الظلال . ثم أخبرنا بأن « البشا الكبير » لم يتحمل البقاء في هذا المرتفع فأسكن في المدينة قرب المينا . وبقى صحبه هنا طول مدة منفاه . ولما كان مقام الزعيم في المدينة قد تحول إلى مكاتب شركة « الإيسترن » ، فقد انتهت إلى استيحاء ذكرى الشيخ الذى كان محظ شباب الجيل ، في هذا المقام الجبلي الساحر ، ما دامت عيناه قد أشرقت يوما بما يمتد إليه طرف عصر ذلك اليوم المبارك في حياته الجوانة .

ووقفت لحظة بعيدا عن الجماعةأتأمل رواه جزيرة « ماهي » . وقد طارت في أجنحة الذكرى آلاف الأميال ونيفا وعشرون سنتين إلى اللحظة التي حللت فيها قدمائى حيثا إلى منزل بحى « الإنشا » ، كان هو أيضا محج الشباب والشيخ يوم تضافرت جميع القوى الغشوم على أن تمنع وصولنا إليه . كنت مدفوعا برغبة أقوى من استبداد الحكم في أن أرى

الزعيم عن قرب ، وأسمع صوته ، وأمس يده الطاهرة .  
دخلت البيت العتيق ، وارتقيت سلمه الجانبي إلى حيث  
وقفت جماعة تنصت إلى صوت لم أسمعه من قبل . ولكنني  
لم أشك بأنه الصوت الذى حدثى عنه صاحب سمعه قبلى ، وكان  
صحفيا بارزا في صف المعارضة :  
— تنصت إلى خطبه كأنك تسمع سمعونية من سفونيات  
ييهوفن .

ولقد أدركت ، وأنا شاب أنصت من خلف الجماهير  
دون أن أرى المتلجم ، أتنى أعيش لحظة من تاريخ بلادى  
سوف أحدث بها أبنائى وأحفادى وهم لا يكادون يصدقون  
أتنى عشت تلك اللحظة .

ولم أفهم أو أحاول أن أفهم ما يقول ، وإنما أنصت كما  
أنصت إلى ترتيل لا تهمنى كلماته ، أو إلى موسيقى الشيولونسيل  
تصبحها موسيقى أوركستر كامل لا دخل فيه للصوت الآدمى .  
ثم استطعت أن أسلل حتى أبلغ الصف الأول فأرى  
الزعيم ، وأحقق على وجهه المعانى المتدافعة التى ابتعثتها فى نفوسنا  
موافقه المجيدة . رأيت الشيبة الباهرة ، والوجه الحمر ، والعيون  
المغولية تبرق ذكا وهمة من تحت الحاجب المشتعلة بياضنا

ورأيت قبضة اليد القوية تدق على خشب المكتب كما سمعت بها ضمن ما سمعت عن حياة هذا العماد الصلب قد من صوان مصر . ولست هذه اليد مصافاً وقد أودعت لستي كل معانى الحماس والحب والا عجائب ، يحتويها قلب ابن عشرين .  
وكان رفقانى في سيشيل مشتغلين بتصوير المنزل والحدث إلى أصحابه عن إقامة المنفيين فيه . ولكن بين جمال تلك الطبيعة الكريمة وسط المحيط الهندى ، وبين مواكب الذكرى نسيت وجودى في سيشيل . وجعلت أتابع الزعيم من مصر إلى مالطا ، إلى فرنسا ، إلى مصر . ثم إلى سيشيل وعدن وجبل طارق ثم إلى مصر مرة أخرى .

رأيته في موكيه الظافر يوم عودته الأولى بعد منفى مالطا وجihad فرساي ، حيث اجتمع لصوص الأمم الضعيفة .  
ورأيته يخطب العمال البريطانيين في شبرد ، فینادي الحرية التي تكون في بابل وتنقل إلى مصر ويونان وروما ، ويتمثل بقول « هردر » فيها .

ورأيته يخطب بعد عودته من سيشيل فيحد ثنا حديث الأباء البار عن منفاه في المحيط الهندى . ويدرك رفاقه واحداً واحداً فترقرق في عينيه عبرات .

رأيته في عربة مزركشة يذهب إلى افتتاح البرلمان الأول  
ورأيتها على شاطئ عabis في طرف فرنسا الشمالي الغربي  
أطالع خبر وفاته ، فأمسك بيده صديق لي هو مواطني الوحيد  
بذلك الصفع الموحش ، وكأنه وجدت في قربه العزاء الوحيد  
في محنتنا الوطنية الكبرى .

رأيته ... رأيته ... رأيته . وكان خياله المهيّب ماثلاً  
أمامي في كل خطوة خطوها على ظهر هذه الجزيرة الفتانة .  
ومما سألت عن جوها ومناخها حتى تساءلت في نفسي « ترى  
كيف تحملت بنية الشيخ العظيم هذا المناخ الاستوائي ! » وجين  
عرفت بأن الملاриيا لا وجود لها في سيشيل ، شكرت العناية  
التي حفظت حياته الغالية ، مع أنه كان قد طوى في ترابه  
حيئلاً سبع سنين .

وإذ التقيت ببعض أمراء « لحج » يتريضون في شوارع  
« ماهي » وارفة الظلال ، وعرفت بأنهم منفيون ، ذكرت أن  
خطوات زعيمى قد سبقت خطواتهم في هذا الطريق المظلم .  
وأن لكل من تلقى به آراؤه الحرة على ظهر هذه الصخرة  
النائية أن يفخر باتصال مجده بجدد الزعيم الخالد ، الذى عانى  
ما عانى في سبيل تحرير بلاده ، لاف عنفوان شبابه ، وإنما في

انحدار شيخوخته ، حين يطلب البناء لآبائهم الحياة الواردة  
ويختملون عنهم الكريهة والهوان .

هذه « ماهي » عاصمة جزائر سيشل ، منق الزعيم الذى  
لم يقهر ، موطن أقدام الحرية التى لا تغاب ، واد مقدس قدر  
لى أن أحج إليه فى سفينة مصرية يرفرف عليها العلم الأخضر  
ذو الهلال المثلث النجوم .

## نَسَائِيَاتٍ

ما أشوق الحياة بلا نساء ، وما أشقةها بصحبتهن ! أحب ما فيهن إلى نفسي أن يكن مصدر هذه الشكوى المزدوجة التي يكاد ينقض آخرها أو لها . ومع أنى شديد الشعور بها ، مخلص في التعبير عنها ، إلا أنى لست في الحق صاحبها . وإنما أنا أترجم بتصرف كلية اللورد بيرون المشهورة « أبغض العجب أن الحياة لاهي ممكنة بغير النساء ، ولا هي ممكنة بصحبتهن »

فقد تصرفت بالترجمة إلى درجة Traduttore, traditore !

كشفت عن ضعف وانحيازى إلى جانب النساء . وأين أنا من « داندى » القرن التاسع عشر تتخاطفه نساء الأرستقراطية الإيطالية بجماله وجمال شعره ، ولشهرته وشهرة شعره ، فيلق في وجوههن بتلك الجملة العذبة القاسية ، التي تنطوي على التحريض والسخرية والحب والإعجاب بالمرأة التي لا تتمكن الحياة بدونها ... ولا بها !

إنما قلت «ما أشقي الحياة بلا نساء» ولم أقل وما أشقاها  
بصحبتهن ، بل وما أشقاها . ولتفسر قارئاً كيفها تفسرن  
ماتنطوى عليه هذه المشقة ، مادام الشطر الأول يدل على أنى  
قابل بكل ماتنطوى عليه صحبة النساء من مشقة ، في سبيل إلا  
أشقى بسبب غيابهن عن حياتي .

كنت شقيا في رحلتى بالمحيط الهندى لأن تسعة أشهر  
من حياتى انقضت بغير النساء أو كادت . وأرجو أن يفهم  
بلا لبس مقصودى من غياب النساء . فلست أعنى الأثنى مجرد  
أنها أثني . إنما المرأة عندى هي الزوجة أو الرفيقة أو الصديقة  
أو من نلتقي بها في المجتمع أو من تمت إلينا عن قريب أو بعيد  
صلة القرابة . كل واحدة من هؤلاء زينة الحياة الدنيا مادمنا  
نشعر نحوها بعاطفة حب أو إعجاب أو احترام أو حنون أو  
عطف . هي «ست الحسن والجمال» التي تحدثنا بها الحدوتة  
«إذا ضحكـت أـشرقتـ الشـمـسـ ، وإنـ بـكتـ اـكـفـهـرـ الجـوـ  
وـأـمـطـرـتـ السـمـاءـ» . وليس من المهم عندى أن أكون «شاطرها  
حسن» مادامت ابتسامتها تضيء أرجاء نفسي التي تدفهم إذا  
ما بكت . هذه هي المرأة التي كنت شقيا بدونها في المحيط  
الهندى ، لا مجرد الأثنى .



تلك السفينة ، في ميناء مسقط — عمان (أنظر صفة ٢٣١ )



شارع في ماهي عاصمة جزائر سيشل (أنظر صفة ٢٠١ )

1800

ولعل في رحلات الهندية أقرب إلى السندباد البحري مني  
إلى ابن بطوطة، فقد خلت رحلات السندباد السبع - أو كادت -  
من ذكر النساء (ماتت المرأة التي تزوجها في الرحلة الرابعة  
ودفنته معها حيا حسب عادة البلاد حتى لا يتلذذ أحد منهم  
بالحياة بعد رفيقه . فقلت له بالله إن هذه العادة ردئه جدا  
وما يقدر عليها أحد الخ ...) . وتزوج في الرحلة السابعة المرأة  
التي عاد بها إلى بغداد وتنبأ إلى الله تعالى عن السفر في البر  
والبحر . وكانت كلها تبدأ بتجهيز المركب للتجارة ، وتنتهي  
بتحطيمها على شواطئ مجهولة . كما خلت رحلاتي العشر من  
ذكر النساء - أو كادت - وكانت كلها تبدأ بتجهيز السفينة  
للسّكّن والتجارة ، وتنتهي بإرسال أذخارات المعلومات والمخاذج  
إلى جامعة إنجلترا كبرى . وكانت هذه المعلومات والمذاجر  
في الحقيقة كعافية ابن الرومي في المجاز . تغوص عليها أحجز تنا  
العلمية فتخرجها من طبقات المحيط المختلفة حتى أعمق خمسة  
آلاف متر . وإذا كانت رحلات السندباد السبع قد انتهت  
به إلى الثراء والنعمة ، فإن رحلاتنا العشر كانت اتصاراً باهراً  
للعلم في القرن العشرين . ولو أنها انتهت فيما يختص بشخصي  
على الأقل بنهاية تشبه ما كانت تصل إليه حالة السندباد في

متصف كل رحلة . وقد خرجت منها خروج أغلب الناس من المولد . ولست من يهم بقليل أو كثير من الحص لوم يكشف لي غيابي عن مصر تسعه أشهر ، ووجهادى في سبيل تأدیة واجي ، جانباً من أنفس جوانب الطبيعة البشرية ، وظاهرة خلقية سوداء جعلتني أجتوى الناس لأبقى على حي للبشرية تلك هي ظاهرة الحسد الله في الله ، الحقد الذى تبعه في نفوس البعض حتى كعكة اليتيم .

أما الشيخ الفقيه العالم الثقة ، النبیه الناسك الأبر ، أبو عبدالله محمد المعروف بابن بطوطة ، فقد امتلأت رحلاته بذكر النساء . كان ينزل بالقطر فيصاهر الصعالیک والعظماء . والوزراء والسلطانين . حتى إذا ما آذنت ساعة الرحيل جعل يطلق بالعين وباليسار . وأذكر له الخير في إحدى رحلاته — أحسب ذلك في موضع ما من شمال أفريقيا لعله صفاقس — حين تزوج وحافظ على عهد الزوجية ، فجعل يتنقل من بلد إلى بلد بصحبة زوجه وصهره . حتى إذا وقعت بينه وبين صهره مشاجرة وأوجب فراق بنته ، طلق زوجته ، وهجرها وهجر أباها وهما يقرعان الكف بالكف ، على مسيرة أيام أو أشهر من بلادهما ! وبودى لو اهتم بحاثة الأدب عندنا بأمر النساء

فِي حَيَاةِ ابْنِ بَطْوَطَهُ . فِي رَحْلَتِهِ إِشَارَاتٌ إِلَيْهِنَّ لَا تَقْدِرُ بِشَمْنَ .  
مِثْلُهُ وَالْتَّزَوْجُ بِهَذِهِ الْجَزَائِرِ سَهْلٌ لِنِزَارَةِ الصَّدَاقِ وَحَسْنِ  
مَعَاشِرِ النِّسَاءِ . . . وَلَمْ أَرْ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ مَعَاشَةً مِنْهُنَّ . وَلَا  
تَكَلُّ الْمَرْأَةُ عَنْهُمْ خَدْمَةً زَوْجَهَا إِلَى سَوَاهِهَا بَلْ هِيَ تَأْتِيهِ بِالْطَّعَامِ  
وَتَرْفَعُهُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ ، وَتَغْسِلُ يَدَهُ . وَتَأْتِيهِ بِالْمَاءِ لِلْوَضُوءِ »  
وَتَغْمُ رَجْلِيهِ عَنْدِ النَّوْمِ . وَمِنْ عَوَانِدِهِنَّ أَنْ لَا تَأْكُلَ الْمَرْأَةُ مَعَ  
زَوْجَهَا . وَلَا يَعْلَمُ الرَّجُلُ مَا تَأْكُلُهُ الْمَرْأَةُ . وَلَقَدْ تَزَوَّجَتْ بِهَا  
نِسْوَةً (كَذَا !) فَأَكَلَتْ مَعِي بَعْضَهُنَّ بَعْدَ مَحَاوِلَةٍ ، وَبَعْضَهُنَّ لَمْ  
تَأْكُلْ مَعِي ، وَلَا سُطِعْتُ أَنْ أَرَاهَا تَأْكُلَ ، وَلَا نَفَعَتِنِي حِيلَةُ فِي  
ذَلِكَ» . وَيَقُولُ فِي صَدِ الْكَلَامِ عَنْ أَثْرِ الْقُوَّاتِ الَّذِي يَتَعَذَّزُ  
بِهِ فِي إِحْدَى هَذِهِ الْجَزَرِ « وَلَقَدْ كَانَ لِي بِهَا أَرْبَعْ نِسْوَةٍ وَجَوَارٍ  
سَوَاهِنَ ، فَكَيْنَتْ أَطْوَافُ الْخَالِخِ » . أَوْ « وَكَانَ الْوَزِيرُ سَلِيمَان  
قَدْ بَعْثَ إِلَيَّ أَنْ أَتَزَوَّجَ بِنْتَهُ » . وَفِي وَضْعٍ آخَرَ : « وَرَفَعْتُ إِلَى  
بَعْدِ أَيَّامٍ فَكَانَتْ مِنْ خَيَارِ النِّسَاءِ . وَبَلَغَ مِنْ حَسْنِ مَعَاشِرِهِنَّ أَنَّهَا  
كَانَتْ إِذَا تَزَوَّجَتْ عَلَيْهَا طَيْبَنِي وَتَبَخْرَثِيَّا وَهِيَ ضَاحِكَةٌ لَا  
يَظْهُرُ عَلَيْهَا تَغْيِيرٌ » . أَوْ « وَكُنْتُ قَدْ تَزَوَّجَتْ رِبِيبَةٌ وَأَحْبَبَتْهَا حِبًا  
شَدِيدًا » ، أَوْ « ثُمَّ وَصَلَتْ إِلَى جَزِيرَةِ مَلُوكٍ . . . وَأَفْتَ بِهَذِهِ  
الْجَزِيرَةِ سَبْعِينَ يَوْمًا . وَتَزَوَّجَتْ بِهَا امْرَأَتَيْنِ »

أجل ، هــذا الــابن بــطوطــة كان رــحــالة حــقا ! لأن فــهمــه للأــمــصــار لم يــكــن قــاصــرا كــفــهمــنا ، بل كان حــكــمــه عــلــ الشــعــوب مــدــعــما بــتــجــارــب أــوـســع مــدى من تــجــارــبــنا ذات النــاحــيــة الــواحدــة .

لم يــكــد يــكــون لــلــنــســاء شــأنــ في حــيــاتــنا عــلــ ســطــحــ المــحيــطــ الهندــى . فالــنــســاء - أــحــبــ الــخــلــوقــاتــ إــلــى - لا تــشــغــلــنــ كــثــيرــا من هــذــهــ الصــفــحــاتــ مع الأــســفــ . وــكــمــ كــنــتــ أــوــدــ أــنــ تــزــدــحمــ بــذــكــرــهــنــ ، لــا عــلــ طــرــيــقــهــ هــذــاـ الشــيــخــ المــغــرــبــيــ المــزــوــاجــ ، الذــى عــاـشــ فــيــ القــرــنــ الثــامــنــ الــهــجــرــىــ ، بــلــ عــلــ طــرــيــقــتــىــ ، وــفــيــ القــرــنــ العــشــرــنــ المــيــلــادــىــ .

هذه الحياة بين السماء والماء على ظهر سفينة صغيرة .  
حولتها ثمانمائة طن وطواها أربعون متراً . رجال في رجال  
يضربون في طول البحر وعرضه قرابة الشهر ثم يقيمون  
بالمرسى من خمسة إلى سبعة أيام ليعودوا إلى البحر وبالتالي ،  
وهكذا مدى تسعه أشهر . يستغلون ما لا يقل عن العشر  
ساعات يومياً . وقد يتم العمل ببعضهم من طلوع الشمس  
حتى الليل . كما حدث أن قضى البعض الآخر أربعاً وعشرين  
ساعة ما بين مراقبة شباك ، وفرز وتبويب ، ونزول إلى المعمل  
وصعود إلى سطح السفينة . أقول ، هذه الحياة تشبه

ما أتصور عن حالة الحرب . أوهى نوع من اللامان الاختيارى لبعض الجرميين السياسيين لا يراد إذلالهم وإن خلت معاملتهم من فكرة الرأفة بهم . وهى حياة تقرب الرجل من فطرته الحيوانية الخشنة . فيكاد ينسى مثلك الإنسانية العليا . وقد ينصرف على البر إلى كل ما يشبع نهمه البهيمى من أكلة فاخرة أو شراب مرىء الخ . ولكنه حينما يتصل على الأرض بآنس من ذهنيته وحضارته ، سرعان ما يتذكر الحدود والقيود الاجتماعية ، فيعود أليفاً أكثر مما كان ، مهذباً إلى حد الحياة فإذا ما التقى في المجتمع بنساء جميلات مهذبات ، كان لهن في نفسه أثر الماء في طفي الشراب . مجرد سماع صوتهن ولمس أطرافن الرخصة وتقبيل أناملهم الناعمة .

يجب أن تقدر حالتنا هذا التقدير ، وتفهم تمام الفهم ليمكن إدراك شعورى وأنا أكتب الآن عن « غادة مماسا » وكان يمكن أن أقول غادات مستعمرة كينيا . فلم أر الانجليزيات في مكان آخر من الأرض بمشيل هذه الرقة والطراوة والأنوثة والنعومة . وهذه النوعت المشابهة ، المشتقة واحدتها من الآخر ، لم توضع عيناً . فالإنجليزيات الجميلات يوجدن في كل مكان . ولكنني لأول مرة أرى

كيف يؤثر المناخ على الطبائع والأجسام ، فيخلق جنساً جديداً من الانجليزيات لم أره لا في إنجلترا — وهذا طبعاً — ولا في الهند ، ولا في عدن ، ولا في سيلان ولا في مصر . والجنس ليس جديداً على الشرقيات أو الرومانيات أو المغاربيات . ولكنه جديد على الانجليزية أن تراها بطيئة الحركة متسللة ، مترافية في جلستها ، تسند رأسها إلى أ�� عاجية شفافة ، وتمد ساقيها على مقعد طويل ، وبدوها لو حولت نصف جلستها إلى ضجعة لذيدة . يتوسد فيها رأسها ذراعها البعض . وهي لا تخفي عنك ضيق ذرعها بجلستها ، فتزحف وتتلوي كالحية ، تزييك من تقاطيع جسمها تحت ملابس الصيف أكثر مما يزييك الجسم العاري .

لم تكن كل نساء بمباسا الانجليزيات على هذه الحالة من سمو الأنوثة وانتصار الرخاؤة الآسرة . ولكن مجرد وجود هذا الجنس الجديد على إنجلترا بينهن جعلنا نتساءل أنا وزملائي من البريطانيين عما إذا كنا حيال مصادقة من المصادرات ، أو أن جو أفريقيا الاستوائية خلق بحق هذه المرأة الانجليزية المزدوجة التأنيث .

كان يمكن أن أقول غادات مستعمرة كينيا . ولكن

ـ واحدة منهن كان لها في نفسي ونفس زملائي الانجليز أثر  
ـ أحسبه تلاشى من نفوسهم ، وهو باق على عمر السنين في عالم  
ـ مشاعرى . لذا أنا أتكلم عن « غادة مبasa »

نزلت إلينا من «الهنترلاند» في «نيروني» بصحبة والدها  
من ذوى الأملاك فى كينيا. التقينا بها فى الأسبوع الأول  
من سنة ١٩٣٤ بضيوف ذلك العربى الكريم المختد الذى  
يردد اسمه كل انجليزى فى أفريقيا الاستوائية بالثناء والاحترام  
هذه المضيفة «بنجلالو» يقع على شاطئه أفريقيا فى مقابل  
جزيرة مبابا القرية من الأرض، جعله السير على بن . . .  
محطة للرحال جميع أصدقائه من الشرق والغرب والشمال  
والجنوب. يقضون فيه أيام الضيافة على أصول الكرم  
العربى، مع تمعتهم بكل معدات الراحة الأوروبية.  
ذهبنا إلى السير على بن . . . وكان ذلك فى رمضان  
فما عاتذر لنا عن عدم إمكانه الاشتراك معنا فى الغداء بسبب  
الصيام. وقدمنا إلى الفتاة ووالدها. وقد دهشنا أن تنادى  
بـ «مسن»، مع مظهرها اليافع الرقيق، وكأنها تخرجت أمس  
من معهد عال للبنات. واستأذن أن يتركنا فى قاعة المائدة  
على أن نلحق به فى حديقة «بنجلالو» بعد الغداء.

و كانت تلبس فستان سبور أخضر اللون محبوب التفصيل .  
جعلها يبتنا كأن روح الزمرد استحقالت امرأة فكانت هي .  
ولقد نسيت الآن حتى لون شعرها ، ولكنني أذكر السعادة  
التي أفعمتني بقربها — وكان من حضي أن أجلس إلى جانبها  
على المائدة — وأذكر صوتها أقرب الأصوات إلى صوت  
الطفولة البريئة ، لو لا رخامة حزينة ونبرة خفية ، ربما فاتت  
على إحساسى وانتباھي دون إشارة منها عاجلة إلى حياتها في  
«نیروپی» والأحراج حول «نیروپی». وقد سمعت بخبر  
غرامها وزواجها من شاب ظهر لها سريعاً أنه غير جدير بها  
فانفصال عنده . هذه الطفلة التي لم تعدد العشرين ربيعاً لم تترافق  
بها الحياة .

وخرجنا إلى الحديقة — أو بالأولى الجزء من الحرج  
الأفريقي الداخل في ملك السير على — فكانت متلقى أنظارى  
 وأنظار زملائي . ولم يخف عليها أن أولئك الشبان من بني  
وطنه ، وهذا الشاب الغريب ، وهم يعيشون عيشة عزلة تامة في  
عرض البحر ، قد انشئت نقوشهم بسحرها وشبابها وأنوثتها  
فكانت نظراتنا تمعن في توريد وجهاتها المفعمة عافية تبعاً  
للحياة الجبلية التي تحياها . وكانت روحها ترفرف سروراً .

وكان أرواحنا الوامقة قد عقدت الخناصر حول روحهاتدلمها  
وزاد من دلاتها شعورها بفعل شبابها و جماها فينا ، فكانت  
كالحجر الكريم يزيده الاجتلام إبراقا ، وكثرة الأنوار إشراقا .  
وقبيل الأصيل خلعنـا ملابسنا اليومية ، وذهبنا في ألبسة  
البحر ننتظر الغادة التي كانت هدية أفريقيا لنا في رأس  
سنة ١٩٣٤ . وكان انتظارنا لها في الجبلية الصناعية التي أنشأها  
السير على بن ... في زكن من حديقة البنجالو ، والتي  
ينحدر إنسان منها إلى حمام بحرى زين بالفسيفساء .

وجاءت « السيرين » تختهر في لباس أخضر أيضا - أم  
أقل بأنها روح الزمرد في شكل فتاة ؟ - وهي سعيدة بشعورها  
أنها مصدر هذه أربعة من الشبان ، في ذلك اليوم باسم من  
أيام حياتنا .

وسوف تظل مطبوعة في نفسي صورة ذلك الجسم  
الكامل ، على دقه ، وعلى روح الطفولة المبعث من صاحبته ،  
وهو يسبح في مياه بين الزرقة والخضرة وهي إلى الخضراء  
أدنى . مياه هادئة شفافة ، لا ريب أنها طالعتنا ذلك اليوم  
بأجمل مخلوقاتها . ولم أشك لحظة ، وأنا أرى « غادة مماسا »  
تبسبح في مياه المحيط الهندي المناسبة بين الجزيرة وأرض

أفريقيا ، بأنها إحدى بنات الماء أحببت إنسياً يقطن مرفوعات  
جبال كينيا ، فغادرت عنصرها لتعيش على الأرض . وها هي  
ذى . إذ عادت إلى الماء في غلاتها الخضراء ، قد أظهرتنا على  
السحر الذي قفي فيه عشاق البحار منذ بدء الخليقة .

قال صاحب الكوماندر ف... ضابط الملاحة :

— عمَّ حسن ، رو ظمآنك ورطب عينيك ! أتراك تلقى في  
كل تجولك واكتشافاتك البحريَّة مخلوقاً أبدع حسناً  
وأكمل تكويناً ؟

— لماذا لا تخرج شباً كنا مثيله ولو مرة واحدة يا ف...

— ليس كل من يستغلون بعلوم البحار ملامحيس فن  
مثلك يا عمَّ حسن . تأمل ما يفعل رئيسنا إذا ما صادت  
شباً ككم مثل هذه الغادة . سوف يكلفك بتحنيطها ووضعها في  
حوض الآسماك الملموء بالسکحول ، ويطلب منك أن تدون  
مذكرة بألوانها وأبعادها . ثم يتهى بأن يعلق بأذنها بطاقة عليها

اسم لاتيني سخيف مثل Domina ineptissima

— وسوف أغير هذا الاسم رضى العلم أم لم يرض .

Femina eterna , Donna superba ,

Sirena divina !

— أتتم سريعاً الاشتعال إليها المصريون . من أى

خشب أتتم ؟

— من « الأشراء » ، أنا أولى أن أتكلّم عن نفسي . من

أى حديد أنت يا ف...؟

— لا تسأل فقد ساءلت سمعتنا ، وحسب علينا ضبط

عواطفنا بروداً . ليس من شأنى أن أصلح سمعة البريطاني

في العالم .

وبعد بضعة أيام غادرت السفينة . . . مبasa . وكنا في

هذا الميناء موضع حفاوة البريطانيين الذين لم يساومونا

إعجاهم بتلك الباخرة الصغيرة عبرت إليهم المحيط الهندي

من بومباي ، وقد قضت على سطحه نحو الاربعة أسابيع ،

قطعت أثناءها خط الاستواء منتقلة من نصف الكرة الشمالي

إلى نصفها الجنوبي . ولقد أقبلوا يزورونها ويشاهدون

ما احتوت في بطنهما من أجهزة ، وما جمعته شباكها من

عجائب البحار .

وكانت الأنظار ترمقنا من شرفات الجالية البريطانية

صحيحة سفرنا . ونحن نجيب على التحيات البعيدة بصفير

متواصل . وتابعت السفينة سيرها وهي تختال في البوغاز الواقع

بين القارة وجزيرة مميسا . وبينما الضباط منهم كون في ملاحتهم  
الدقيقة ، وف .. مشغول بخراطته وأجهزته ، كان أربعة من  
الشبان — ثلاثة من الانجليز وواحد مصرى — واقفين على  
ظهر السفينة ، وقد اتيحى كل منهم ركنا جعل يدير منه منظاره  
نحو « بنجالو » أقامه على شاطئ القارة رجل عربى كريم ،  
يستضيف كل من يفد عليه من بلاد « ال�نترلاند » .

هناك وسط حديقة « البنغالو » ، وإلى جانب الصارى الذى  
رفع عليه السير على بن .. راية التحية لنا ، رأت عيوننا جميعا  
وانطبعت على قلوبنا جميعا ، آخر صورة لغادة مميسا وقد  
وقفت فى بيچاما زمردية تلوح لنا يديها ، وترسل لعشاقها  
الأربعة آخر أشعة من ذلك الضياء السعيد نشره جمالها العلوى  
على حياة الشدائى التى نحياتها فوق ظهر العباب .

## حياة البحار

ركبت البحر كثيراً قبل أن أعيش تسعة أشهر بظواهراً على ظهر هذه السفينة العلمية ، فلم أعرف إلا القليل عن حياة البحر وركوب البحار . ذلك أن المسافر بالباخر الكبيرة يعيش داخلها أكثر مما يعيش على سطحها . وهو في اللحظات التي يتمشى أثناءها على « الكويرته » لمساعدة المضم ، يلقى نظرة عابرة على البحر مرة مقابل عشر نظرات يحدج بها سيقان الغادة التي أسرت ناظرته في قاعة الطعام ، وعشرون نظرات يتتساول فيها عن علاقه هذا الرجل الشيئ بالشابة التي تخطر إلى جانبه ، وعشرون نظرات إلى النصف الشقراء التي اتحت ركنا من حديقة الشاي تصنف إلى حديث ناعم ، يلقى به شاب مشوق القد شعره لامع السواد ، وذراعاه ينبعضان حياة وقوة خارج قميص ياقوتي ، قصير الأكمام مفتوح الصدر . وتنقصى بيصير تلك مقدار تلامس هذين الجسمين ، وكانا غريبين عن بعضهما

تمام الغربة حينما التقى صاحباهما على ظهر السفينة . بين  
البيج پونج ، وتسديدة رمادية أقراص المطاط والخشب ، وسماع  
الموسيقى ، وبين الإفطار والشوربة والغداء والشاي والعشاء .  
بين الأكل والهضم تنقضى حياة المتkick متن البحار على ظهر  
السفن ذات حمولة الآلاف طن .

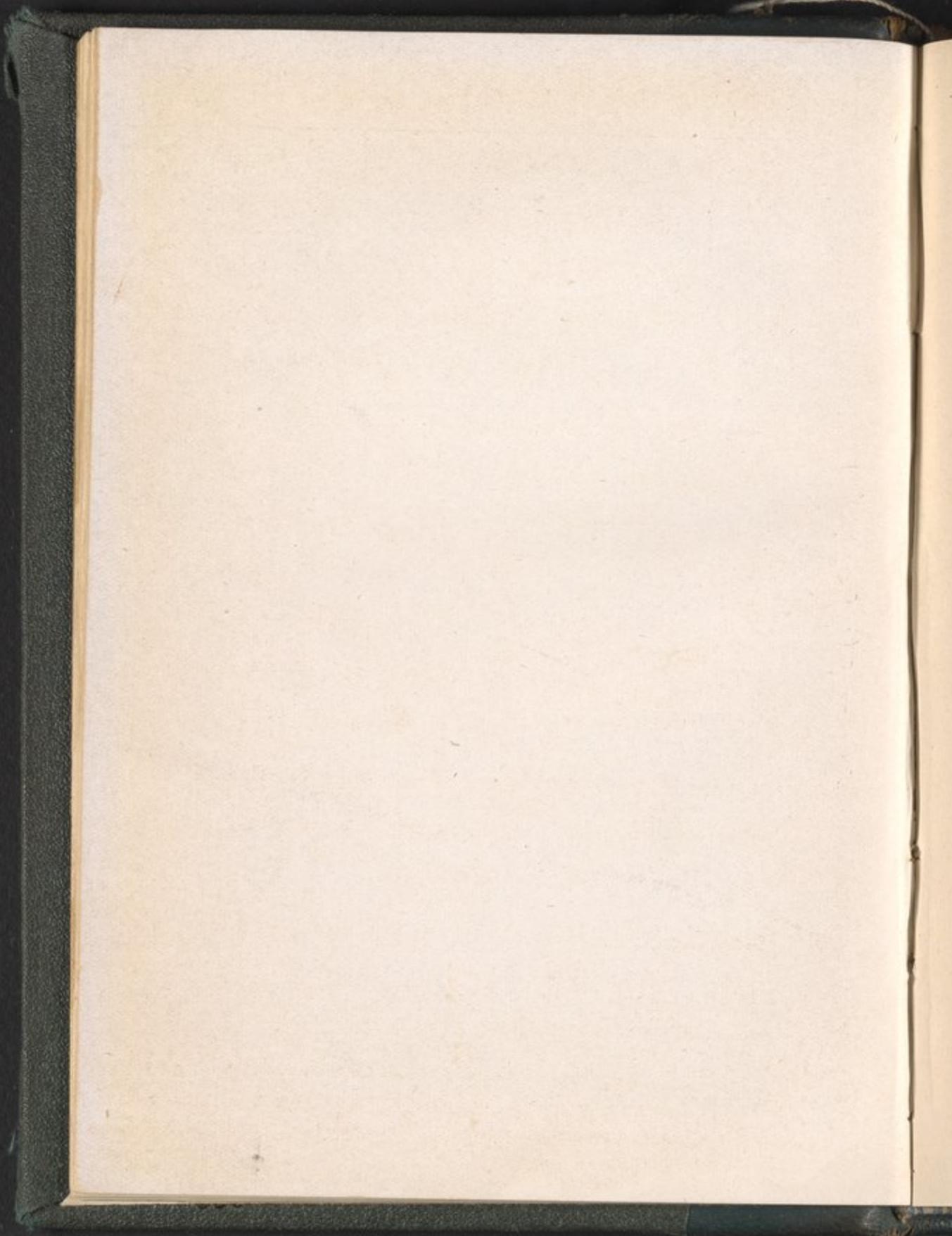
وإنما يعرف البحر من يكابده على ظهر سفينة صغيرة  
طولا لا يتعدى الأربعين مترا ، وحمولتها الثالثة طن . على  
ألا تكون يختا جهز بمعدات الترف .

فأنت على ظهر السفينة الصغيرة تعيش مقرها إلى البحر . هو  
وحده أساك وعزاؤك . وفي أمواجه وما يضطرب بجوفه  
تسليتك وشغلك الشاغل . فإذا ما بعثت العواصف بنذيرها  
دررت تربط المقاعد وتحشر أمتلك المفككة ، وتعيد الآلات  
العلية إلى صناديقها ، وتقلل نوافذك زجاجاً وحديداً . ومر  
بك بخار السفينة بمفتاحه يوثق من رباط نوافذك وأجهزتك  
ومقاعدك . ثم صعدت إلى سطح المركب في قبائلك المطاط  
وقيعتك المسدلة على عينيك وقفاك ، لطالع الأفق وتدرس  
ارتفاع الموجة ، وتقيس ضغط الجو ، وحرارة الماء ،  
وكمية الرطوبة ، وسرعة الريح . وتساعد صابط الملاحة في

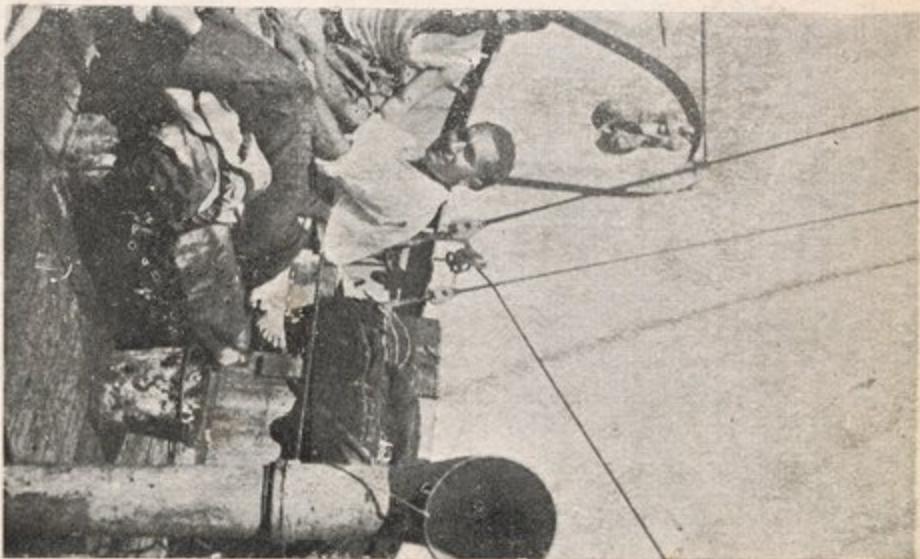
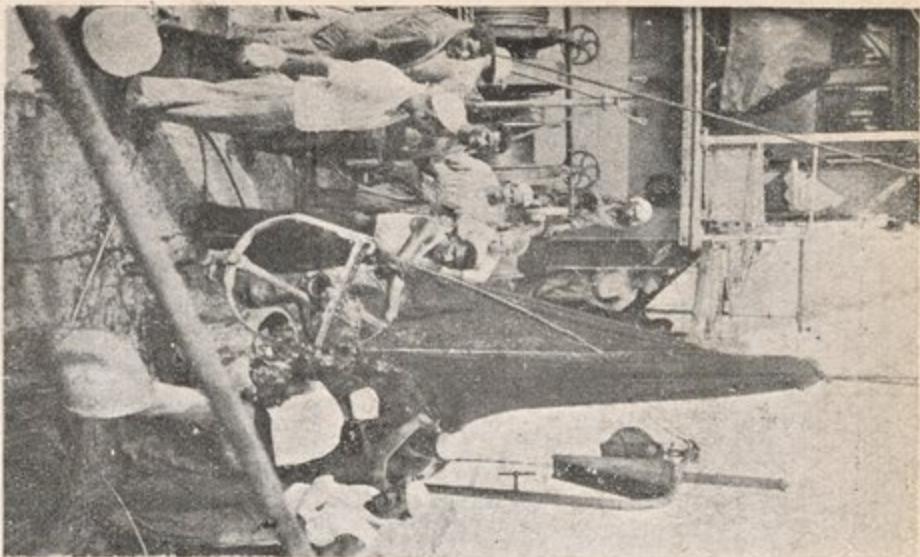
قياس ارتفاع الشمس قبل أن يغيبها غمام النوء، أو تقدر انفراج  
زوايا النجوم عن الأفق قبل أن تمحوها حلقة الاعصار. وأنت  
على ظهر السفينة الصغيرة تسعى وسط العاصفة إلى عناير البحارة  
لتواصل علاجك لمريض بالحى ، أو تسكن من ألم مغوص  
الكلى . تمسك بكل إطار وكل حاجز . وتنقض الماء عنك  
وقد غطتك الموجة التي اكتسحت سطح سفينتك المكسوفة .  
وأنت تصحو في الفجر تطالع نجمة الصباح ، وتسائل أعمق  
البحر وقد هدا في اللحظة التي يعبر فيها قرص الشمس خط  
الأفق ، وكان الشمس خارجة من منامة لها في أعماق المحيط  
يتقدمها رسليها وخوها وحراسها ، إشعاعات حمراء أو ذهبية  
موشأة بالبنفسج . ولاشك أنك نسيت في هدوء هذا اليوم وأمام  
الصفحة الزرقاء الصافية ، ما كان من أمر العاصفة الهوجاء  
بالأمس ، العاصفة التي أحالت نومك كابوسا ، وقد تكون  
قذفت بك من سريرك الخشبي صريعا في أرض قمرتك ،  
برغم الحاجز المرتفع الذي فرض فيه أن يحمي جسدك  
المنسى في النوم .

تعيش قريبا من كل شيء في سفينتك . تسمع صوت  
«ورديات» ، الليل تتبدل كل أربع ساعات ، وتعتاد دق الآلات

منتظماً كأنه نبضات قلبك . نومك وصحوك رهينان بما قد  
يبدو لضابط المشى من مظاهر البحر . فإنه ليلاً من نفسه إذا  
لم يوقظك حين تمر سفينتك بنطاق البحر المضي . وإنك  
لسعيد أن يفكري بِيقاظتك من سباتك لترى على امتداد  
البصر أقيانوساً تتوهج أمواجه بأضواء فسفورية تكاد تطالع  
على نورها كتابك . وكلما تكسرت الأمواج على جوانب  
سفينتك أو مزق حبل « البركينة » حجاب البحر كلما أشتدت  
الأنوار التي لا تشبه ضوءاً عرفت إلا أن يكون في أرقام  
ساعتك الفسفورية ، أو أجسام اليراعات تتوهج تبعاً لتيقظ  
الغريرة الجنسية فيها . ولكن هذا الضوء إلى جانب توهجه  
الأقيانوس كنقطة الماء إلى مجموع مياهه . وإذا أويت إلى  
مخندريك بعد ظهيرة يوم هاديء الريح ثقيل الحر ، فإنك شاكر  
للبحار الذي ينادي عليك من أعلى المشى لترى أسراب  
الدلافين تسابق سفينتك ، وهي تداعب وتسابق ، قافزة  
من الماء بأجسامها السوداء اللامعة ، في أقواس بدعة تكشف  
لاك عن ياض بطونها . وإنك لتأمل هذه الدلافين ، وتحاول  
أن تفهم كيف تأق لها أن تسابق سفينتك التي تسير بسرعة  
عشر عقد ، دون أن يظهر في حركات جسمها أقل أثر لمجهود .



حياة البحار (أنظر صفحه ٢٢١)



أهى حركة رعنفة الذنب تعمل في الماء كا يعمل رفاص  
سفينتك ، أو هى عضلات الجسم تتحرك في الخفاء فترسله  
كالأفعى ، دون أن يبدو خارجه أثر التلوى ؟ أم هى الوثبة  
خارج الماء يستمر اندفاعها داخله ، ويساعد التكون  
الأنسيابى للدلفين وجده الأملس على هذا الاندفاع ؟  
وأنت على سفينتك الصغيرة للبحر قبل أن تكون لنفسك  
أو لغيرك . تلبس قميصا وسرابيل هى كل ما يعطي جسدك  
ولا تفكربنوع القميص الذى يظهرك على أحسن ماتكون  
هنداما . أو نوع رباط الرقبة الذى قد يلفت إليك نظر الغادة  
شغلك بحملها منذ رأيتها في قلم الياسپور . قميصك من صنع  
اليابان تشتريه في الجملة بما يساوى في نقدنا قرشا . هو فانلة  
رقيقة تنتهي إلى أكتافك ، مفتوحة على صدرك وظهرك  
وذراعيك وأكتافك كأشدما يكون عليه الديكولتية تفتحا .  
وسروالك اشتريته بالجملة أيضا من التيل الأزرق الذى  
تصنع منه ملابس الوقادين . وحذاؤك من التيل الأبيض  
مطاطى النعل ، استحوال على ظهر السفينة إلى لون أسود بفعل  
الشحم والزيت يتصرف من الونشات مخلو طا بطين رمادي  
أو أحمر ، جرفته أجهزتك من أعماق البحر البعيدة .

وقد لا يستريح قدماك فيه جديدا فتشكر اللحظة التي يعمل  
أصبعك الكبير في طرفه خرقاً واسعاً مشرشر الحافة ، هو  
نافذة التهوية إلى قدميك . أو قد تفضل السير حافي القدم فوق  
ـ كويرته ـ مستوية من خشب التك ، يغسلها البحارة يومياً ـ  
ويحكونها بالرمال مرة كل أسبوع .

أنت على ظهر السفينة الصغيرة للبحر وأعماقه ، وللسماء .  
وأفلاتها ، قبل أن تكون لنفسك وجيرانك . للبحر سمعك  
وبصرك وإحساسك وكل روحك . هذا لون من أنواعه  
يبدو لك غريباً فتسعى إلى تفسيره . وهذا نوع من الموج  
وليس موجاً ، فهو يشبه الصدر يعلو ويهدى في حركة تنفس  
النائم النائم . هو الآخر الباق من عاصفة بعيدة ، هو آخر ما يطرق  
السمع من آثار الجابة الهائلة في أصقاع متراوحة عنك ، هو  
ـ الكونقى ـ وـ السربستان ـ وـ فوانيس الورق وـ طراطير  
ـ السامرـةـ والزجاجـاتـ الفارـغـةـ والـ كـرـاسـىـ المـقلـوبـةـ ضـحـىـ المرـقصـ

### الصاحب ١

وما هذا الذي يبدو في الأفق ؟ هذا «نافورة الماء » ، قبلة  
السحاب والبحر ! فالسحاب يمد شفتيه ، والبحر يمطر في  
شفتيه . حتى تلتقي الشفاه في منتصف المسافة بين السحاب والماء .

ثم ماهذه الأسراب الطائرة ؟ كيف يمكن أن تكون  
جراداً أو طيوراً ونحوه على مسيرة أسابيع من اليابسة ؟  
إنما هو السمك الطيار يقفز من البحر في أيام هدوئه الكامل  
ويحلق في الجو ما احتملته زعانفه المنبسطة كالاجنة . بعض  
ثوانٍ من الزمن تخلق أسرابه مئات وآلافاً لتعود إلى الماء حيث  
تعتمد على زعانف الذنب لتفوز قفزة ثانية وثالثة إلى الجو  
ثم تغوص في اليم للمرة الأخيرة .

أنت على ظهر السفينة الصغيرة للبحر والسماء . لاللمسة  
والپنج پونج والرقص والأكل والهضم فوق المدينة العائمة  
حيث نقلت لك شركات الملاحة سريرك وحمامك وحديقتك  
وموسيقاك وكباريتك وسينماك ، وأغتابك «و نيمتك وغزل لك  
وفضائحك . السفينة الكبيرة كازينو بين مدینتين وفندق بين

فندقين . فترة من حيّاتك الأرضية تقضيها ناعماً . أما السفينة  
الصغيرة فهي مسكنك البحري الدائم ، وما الإقامة بالموانى  
إلا فترة قصيرة تضطرك إليها حاجات العيش من ماء وغذاء ،  
و حاجات الآلات من خم وزيت ومام .

حتى الميناء لا تعرف أيتها المسافر على ظهر الكازينو  
العامئ شيئاً من سرها وسحرها . أنت تعرف بوليس الميناء  
وحماليها ، ولكنك لا تعرف غساليها وحلقاتها وقواديهها .  
ولم تر بائعيها المتنقلين يسعون إليك في فلك صغير ، نضدت  
على جوانبه سجاجيد إيران ، وعقود قهرمان ، وفيلة من  
الأبنوس والعااج ، وأمشاط الباغة ، والخناجر اليمانية ، إلى  
جانب صناديق الصابون وأحمال النارجيل وسراوييل العمال  
وأكواام الأسماك . أنت تغادر سفينتك الكبيرة فترى البحر  
وراءك وتنساه . ولكنك في سفينتك الصغيرة تقطن الميناء  
يومين أو ثلاثة أيام ، فتعجب من البحر الذي عرفت وقد  
استحال بحيرة آسنة تسحب على سطحها بقعات الزيت . فينسيا  
قدرة مسودة ، ملأها دخان الفحم ، وسعت على سطح  
« لاجونها » اللنشات والستانيق والهوريات تحمل الحواة  
والمشعوذين وتجار الحرير الهندي والياباني ، وباعة الصدف

والحجارة الكريمة وال ساعات والأحذية والأحزمة والقبعات  
والفانلات والقلانس .

يوم حشر مائة اجتمعت فيه الملل والنحل وتبليلت في  
صبيحته الألسن . يلتقي فيه الضابط البحري ، نشأ في بيت مجد  
على شواطئ « ديفون » أو بين نجيل « إسكس » بجمال الفحم  
جاء من الصين أو أخرج سرنديب وغابات الملايا . ويتراءى  
القومدان الإيطالي لطراد إيراني مع القومدان الهولندي  
لدارعة وصلت توا من بحار جاوة أو ميناء روتردام . سوق  
دولى تجاوب فيه أصوات الصفافير والأضواء الكشاشة  
وألوان الأعلام !

ثم ماذا تعرف إليها المسافر على ظهر الباخرة الكبيرة من  
أمر المناورات الدقيقة التي أوصلك آمناً وادعا إلى المرفأ ؟  
بينما أنت ترقب على ظهر سفينتك الصغيرة كل حركة وكل  
دورة . وترى كيف تعدد الروافع وتلقى الحال وترتبط في  
المراسي والشمندورات . أو كيف ترمي الأناجر إذا ما قدر  
لسفينتك الصغيرة ألا تلقى جانباً من الأرصفة تستند إليه  
وهل رأيت عنايرك تملأ بالفحم وقد أحرقت في رحلتك التي  
استغرقت أسابيع كل ما امتلاه بطن سفينتك من فحومات

بلاد الغال أو البنغال ؟ وهل وقفت لحظة على سطح السفينة  
ورأيت كيف استحالت بشرتك البيضاء إلى لون الحمالين  
الصوماليين جاءوا إليك في « برتوم » امتلاً بأكياس الفحم  
يحملونه إلى سفينتك في صف هندي ، كأنهم بناة أهرامات  
بربرية وسط القارة المظلمة ؟

إذا لم تكن رأيت كل هذا ، فلم تعرف من أمر البحر  
 شيئاً ، وأنت أحجل بالميناء الغريب مما كنت حين غادرت  
ميناء بلادك .

## تَنَكِّرُ السَّيْفِيَّةِ !

عرضت للكثير منا ظروف تأثر بمظاهر شاب غنى فقد  
ثروته ودار يتسمى على القهارى مهمل القميص ، ممزق البنطلون  
كالح الوجه والطربوش ، قدر الماحية ، مبقوس الحذاء .  
ورأى البعض منا أناسا كانوا ذات يوم بين سمع البلاد  
وبصرها ، فلما بهم يتوارون وتتسلى الأمة شأنهم ، ويعودون  
أفرادا عاديين خاملي الذكر ، يتحملون زوال مجدهم بكثير  
أو قليل من الهدوء . وأخر من أذكره منهم زعيم انزوى في  
ختام حياته المفعمة بالأحداث الجلي ، فكان يرى في ركن من  
أركان جامع صغير يؤدى صلواته بانتظام ، ولا يتصل بإنسان  
وقلما عرف المصلون حوله أن البلاد اهتزت يوما من أقصاها  
إلى أدناها أثر حركة احتجاج منه ، وفقدت في هذه الهزة  
الكثير من حرياتها .  
وقد يتألح لنا أن نشاهد سيدة ابنة شعرها وتقوس ظهرها

تتقدم إلينا طالبة نوعاً من المساعدة ، فلتلي بنظرة عابرة على ،  
الوريقة التي تقدم بها فإذا عليها اسم مغنية أو راقصة أو ممثلة  
دوخت القلوب في شبابها ، وبددت الثروات ، و « أقفلت  
البيوت العاملة » كما كانوا يقولون .

ولقد أتيح لي أن أركب هذه السفينة العلمية المجيدة مرات  
بعد عودتها من المحيط الهندي . ومعاذ الله أن أقول بأن الصداً  
أكل حديدها ، أو أن الحشرجة هي كل ما يسمع من صوت  
آلاتها . فهي لما تزل في شرخ الشباب ، والعناية بها كبيرة كما  
كانت وأكثر مما كانت . ألوانها جديدة ، وأعلامها مرفوعة .  
وشعارها تتألق نجومه الثلاثة كأشد مما تألقت في أي وقت .  
آخر بالمحيط الهندي . رجالها عادوا أكثر نظاماً ، وأسلحتهم  
ترسل في مياه الميناء بريقا خلايا .. وقد أعملت فيها يد العناية  
والإصلاح فجعلت منها عروساً غضة الإهاب . وذلك بفضل  
النظام الحكم الذي تدار به في أيدي ضباطها الأكفاء .

ركبتها فانطلقت بي إلى عرض البحر شامخة « البروة »  
تضرب بها العباب ضربات كأنها ضربات السيف .  
وسمعت وجيب آلاتها تدور كأدق ماتكون عليه المحركات .  
دورانا ، وتدلّيت من « القش » أشرف على رفاصها فوجدهـ

يتابع ضرباته المنتظمة في عنفها وهدوئها ، فيترك خلف السفينة أذىلا من الزبد تنفرج أمواجا تتميز عن أمواج البحر الأصيلة .

ونمت في « قرني » فوجدت فراشها أنعم ملمسا وأنظف أغطية . ودخلت المعامل فوجدتها أنيقة مرتبة ، يدخل إليها النور من « ممكريات » شفافة الزجاج براقة النحاس .

ومع كل هذا لم أستطع التغلب على الوجوم الذي تشيره أشباه المناظر التي قدمت بها هذه الصفحة . في كل مرة تحتوي السفينة الجديدة .

ولعلى لم أحسن التشبيه في مقدمتي ، وكان الأولى أن أشبه السفينة في عهدها الحال بالمثلة التي فقدت كل شهرتها مع احتفاظها بثروتها وأناقتها ، أو بالزعيم الذي فاتته الحوادث وغلوته ، فاحتفظ بقوامه وشخصيته ، ولكنكه تمسمر بزعامته . بينما الزمن يعدو بخطواته الجباره وقد تركه ظهريا .

على أن توافق جوانب التشبيه أو دقته أمر ثانوى . مadam شعورنا في كل الأحوال يتفاوت تبعا لقسوة القدر على من نرى لأمره . وقد يكون رثاؤنا لمجده الدارس أشد من حدبنا على عوزه ومسغبته .

وشعوري بزوال مجد هذه السفينة كلها ارتقيت مشاهها  
أو انحدرت إلى باطنها ، هو في قسوته أشبه بشعور المرء  
 أمام حطامات الإنسانية التي عرضت لها في أول هذا  
 الكلام .

ذلك لأن الباخرة ..... التي قطعت ٢٢٠٠٠ ميل في طول المحيط الهندي وعرضه ، والتي دارت آلاتها بلا انقطاع أربعة أخماس كل شهر من تسعه أشهر متواالية ، قامت فيها ملاحة جريئة نيفا ومائى يوم ،

تلك السفينة التي قطعت خط الاستواء أكثر من مرة ،  
وحملت العلم المصرى وشعار البحرية المصرية إلى الأقطار  
المترامية ، فكانت تثير بعنادها وقدرتها على ركوب البحر شعور  
الإعجاب حيث حلت ،

تلك السفينة التي حملت بعثة علمية من أهمبعثات البحريـة  
في هذا القرن ، وكانت جرائد العالمـين تردد اسمـها طوالـ  
رحلتها ، وإلى بقـية العـام الذى عادـت فيه إلى قاعـدتها  
بـالـاسـكـنـدرـيـة ،

تلك السفينة التي زارها العلماء والحكام في مصر والهند وسيلان وشرق أفريقيا وزنجبار وسيشل وشيه جزيرة العرب

استحالت اليوم كتلة من صلب لامع ، وحديد  
« مراسيم » مدهون ، ونحاس متائق براق ، وخشب مغسول  
مسوح ، وعدسات وآلات وشباك وأجهزة وأدوات  
توسد صناديقها المبطنة بالمخمل ؛ وتتحف بأغطيتها من  
الكتان .

تردد في أرجائهما أوامر عسكرية، ووقع أحذية لامعة،  
وصلصلة أسلحة جديدة.

هذا كل ما بقى منها اليوم . ولا عيب عليها ، فهى في هذا  
شبيهة بغيرها ، لو لا أنها تحمل على أطراف صواريها ، وفي  
بطنهما ، وعلى جوانبها ، آثار جهادها المجيد ، وبلائهما في المياه  
الغريبة النائية . ولم تستطع — والذنب ليس ذنبها — أن تحافظ  
على مجدها الغابر ، أو تحتفظ بأكاليل الغار التي صيغت لها ، أو  
تبقى على شارتها الخضراء الطويلة ، حملتها في رحلتها الأخيرة  
بشيرًا بعودتها إلى أرض الوطن .

ولقد رأيتها تسترجع صولتها مرة واحدة بعد رحلتها التاريخية ، تعود إلى مرساها مرة أخرى ، أسيرة السلسلة والخيال ، رهينة إلا سكلاة والشمندورات .

أريد أن أشهدها بالطلل البالي ، بالمدن المحجورة ، المعابد

القديمة احث دياناتها . ولكن كيف أجرؤ على ذلك ولما تزل  
باخرة تنبض بالحياة ، وترقب اللحظة المناسبة لتعود إلى  
ركوب الموج العالى ، وملاقاة العواصف الداودية والأنواء  
المخيفة ، كأنها الجواد الأصيل يتوجب ويضرب الأرض  
بحوافره استعداداً ليوم الراهن .

ولكنها مع هذا ليست شبيهة بالطلل والمدن المهجورة  
والمعابد احث دياناتها خسب ، بل هي كل هذه مجتمعة ، إذهى رمز  
لحظتها العائرة جميعاً .

فقد سافرت عليها في مهمة ليست لها . كانت فيها كـ «هرقليس»  
يغزل لـ «أمفالة» وقد حملت هراوته ، وتجاذبت بحمل الأسد الذي  
اتخذ منه الجبار جلباباً .

وكان أن سمعت الهرج والمرج الذى اعتدت سماعه لدى  
تأهباً للخروج من الميناء ، وسمعت قعقة السلاسل وهمبة  
الآلات .

وخرجت إلى البحر تشنطرأً مواجه شطرأً بأنفها الرومانى  
للشمخ . وألقيت نظرة إلى الخلف فوجدت الراية الخضراء ترفرف  
فوق صارى المؤخرة ، والشارارة ذات الثلاثة نجوم منتشرة  
تحت لمسة الريح ، كالسهم يخترق الفضاء .

ولكنى عبشا درت أبحث فى أرجائهما عن تلك الروح القوية  
الى سرت فى أعطافها تسعه أشهر. فقد خفت أصوات الآلات  
العلمية . وهجرت المعامل . وخلت قرات الاخصائين إلا من  
ملابس القومندان منشوره تهوى . وذلك السلم الصاعد من طابق  
الاخصائين إلى ظهر السفينة ، عبشا جعلت أنصت إلى صوت  
الأقدام ترسه صعودا و هبوطا فى الليل والنهار ، وقد حمل  
 أصحابها نماذج الأحياء من كل عجيبة نادرة آخر جتها الشباك  
من بطون الأقianoس . عبشا أنصت لصوت المسير الكهربائي  
يقرع عشرات المرات فى الدقيقة ليسجل فى قمرة القيادة عمق  
البحر تحت السفينة . عبشا أنصت عند الفجر والزو والغروب  
لصوت صديق السكرماندر . . . يطالع ارتفاع الشمس أو  
النجوم وهو يأمر : «استعد! اضبط! عشرة، خمسة وخمسون»  
فيثبت الضابط النوبچى خطوط الطول أو العرض كا تتبين  
في زوايا الأسطرلاب وعدساته . عبشا أنتظر مقدم الزملاء  
إلى قمرتى لتناول كأس « الجن » اليومى قبيل العشاء !  
تلك الحياة العجيبة الضاربة فى أرجاء الأقianoس الواسع  
وسط ذلك المعسكر العائم ، بين جنود تسليحوا للفتح العلمى ،  
لالمذابح البشرية ، خفت جرسها فوق هذه السفينة .

ولقد عاد كل منهم إلى وطنه وعمله ، وعادت سفينتنا في  
نقوسهم ذكرى يزيدها الزمن ائتلاقا . ولكنهم تركوني هنا  
وحدي ، كالشاعر البدوى ، أبكي فوق الدمن ، وأستبكي  
الرائح والغادى !

تركوني أجوس خلال هذه القمرات والمعامل ، فتألب  
على أشباح ذكر ابراهيم حتى لا إخال نفسي شبحا بين الأشباح .  
إيه أيتها السفينه ! إيه أيها الجواب الأشهب !  
هل قدر لنا أن نتوء بحمل الذكرى ؟ أو أنتا سوف نعود  
سويا إلى خوض البحار النائية ، حيث للموج اصطخاب وهدير  
وللإعصار صرير وصفير ؟

انحراف



دفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

